

الجمهورية السعودية
للدراسات الدعوية



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الجمهورية السعودية للدراسات الدعوية

مجلة الدراسات الدعوية

مجلة علمية محكمة

بصيرة



<https://dawa.center>

الجمعية السعودية
للدراسات الدعوية



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الجمعية السعودية للدراسات الدعوية

مجلة
الدراسات الدعوية
مجلة علمية محكمة
العدد الثاني

محرم ١٤٣٠هـ



المشرف العام
أ. د خالد بن عبد الرحمن القرشي
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
أ. د. عبدالله بن إبراهيم اللحيدان

أعضاء هيئة التحرير

د. إبراهيم بن صالح الحميدان
د. محمد بن عبدالله السحيم

أ. د. عبدالرحيم بن محمد المغدوي
أ. د. حمد بن ناصر العمار

أمين المجلة
شبيب بن حسن الحقباني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إيداع: ٩٢٤ / ١٤٢٩

ردمك: ٣٨٨٤ - ١٦٥٨

قواعد النشر

أولاً: يشترط في البحث الذي ينشر في المجلة ما يلي:

- ١- أن يكون متسماً بالأصالة وسلامة الاتجاه.
- ٢- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
- ٣- أن تتحقق له السلامة اللغوية.
- ٤- أن تكتب الآيات بالرسم العثماني.
- ٥- أن يكون ملتزماً بعلامات الترقيم المتعارف عليها.
- ٦- أن لا يكون قد سبق نشره أو قدم للنشر لجهة أخرى.
- ٧- أن لا يكون مستلاً من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية.

ثانياً: أن تكون الهوامش والمصادر على النحو التالي:

- ١- توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة.
 - ٢- تثبت المصادر والمراجع في قائمة في آخر البحث مع استيفاء معلوماتها، مثال: معالم الدعوة، عبد الوهاب بن لطف الديلمي ط١ (جدة، دار المجتمع، ١٤٠٦هـ).
 - ٣- توضع نماذج من صور المخطوط إن وجد في المكان المناسب.
- ثالثاً: عند ورود أعلام أجنبية في متن البحث تكتب بحروف عربية، وتكتب بين قوسين بحروف لاتينية.

رابعاً: يشترط عند تقديم البحث ما يلي:

- ١- أن يقدم الباحث طلباً لرئيس تحرير المجلة بنشر بحثه، الدراسات الدعوية

والتزاماً بعدم نشره إلا بعد موافقة خطية من هيئة تحرير
المجلة.

٢- يقدم الباحث خمس نسخ من البحث يتضمن ملخصاً
باللغة العربية بحدود (٢٥٠) كلمة.

٣- أن لا تزيد صفحات البحث عن (٦٠) صفحة مقاس (A4).

٤- أن يكون البحث مكتوباً على برنامج (Microsoft
Word) متوافق مع الإصدارات الحديثة.

٥- أن يترك مسافة قدرها (٤.٥) سم على كل جانب من
صفحة (A4) وكذلك (٥) سم من أعلى وأسفل الصفحة،
لتكون الكتابة على مساحة قدرها (٢٠×١٢) سم بما في
ذلك رقم الصفحة الذي يكون في وسط أسفل الصفحة.

خامساً: يتم تحكيم البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين
على الأقل من المتخصصين.

سادساً: يلتزم الباحث بتقديم البحث الذي يجتاز التحكيم وبعد
إجراء التعديلات إن وجدت على قرص حاسوبي، أو إرساله
عبر البريد الإلكتروني.

سابعاً: لاتعاد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

ثامناً: يعطى الباحث نسختين من المجلة وعشر مستلآت من بحثه
الذي تم نشره.

تتبيه: الأبحاث الواردة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها.

المراسلات:

تتم المراسلات باسم رئيس تحرير المجلة على العناوين التالية:

المملكة العربية السعودية ص ب ٤٨٤٧ - الرياض ١١٤١٢

هاتف وفاكس: ٢٥٨٥١٣٢ - ١ - ٠٠٩٦٦

موقع الجمعية الإلكتروني:

<http://www.imamu.edu.sa/dawastud/index.htm>

الفهرس

٨٠ - ١١	أصول الإقناع في الخطاب الدعوي د. محمد بن خالد البداح
١٤٨ - ٨١	سماحة الأخلاق وأثرها في الدعوة إلى الله د. حمزة بن سليمان الطيار
٢١٠ - ١٤٩	الدعوة وإعجاز غيب المستقبل المفهوم والعلاقة د. محمد بن إبراهيم الزهراني
٢٧٦ - ٢١١	أهمية الأناة وأثرها في الدعوة إلى الله تعالى د. حمود بن جابر الحارثي
٣١٢ - ٢٧٧	الهدية وأثرها في الدعوة إلى الله تعالى د. الجوهرة بنت محمد العمراني
٣٤٨ - ٣١٣	العلاقة بين القول والعمل وأثرها في الدعوة إلى الله د. حسن بن عائض آل عبد الهادي
٤٠٩ - ٣٤٩	السلطة التقديرية للمحتسب د. رزین بن محمد الرزین

أصول الإقناع
في الخطاب الدعوي
(دراسة تطبيقية على نماذج من خطب
الإمام الحسن البصري - رحمه الله تعالى - ت ١١٠هـ)

إعداد

الدكتور/ محمد بن خالد البداح

الأستاذ المساعد في قسم الدعوة والاحتساب

كلية الدعوة والإعلام - في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

أسلوب الإقناع له أهمية بالغة في استخدامات الدعوة وتطبيقاتها، والقرآن الكريم سلك هذا النهج مع الأمم في دعوتها إلى طريق الحق والنور والهدى.

ولأهمية هذا الموضوع وقع اختياري عليه واخترت الخطب من وسائل الإقناع لقوة تأثيرها في جمهور المتلقين وتم اختيار نماذج من خطب الحسن البصري - رحمه الله - لشخصيته التي وصفت بأنه يتكلم كالأنبياء.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة ومبحث تمهيدي وثلاثة مباحث وخاتمة.

تحدثت في المبحث التمهيدي عن مصطلحات الدراسة، وأهمية الخطابة في التأثير في الناس، وعلاقة الخطابة بالإقناع، والتعريف بالإمام الحسن البصري - رحمه الله - .

أما في المبحث الأول فقد قمت بعرض نماذج من خطب الحسن البصري - رحمه الله - في الدعوة والدلالات الإقناعية منها.

وفي المبحث الثاني تطرقت لدراسة نماذج من خطب الحسن البصري - رحمه الله - في الاحتساب والدلالات الإقناعية منها.

وفي المبحث الثالث تحدثت عن أصول الإقناع في خطب الإمام الحسن البصري - رحمه الله - .

وفي الخاتمة أبرزت أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث ثم تطرقت إلى الحديث عن عدد من التوصيات والمقترحات التي

قد يستفيد منها الداعية عند استخدامه أسلوب الإقناع في دعوته.

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا رِجَالًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣) (٤).

أما بعد: فإننا نتلقى الرسائل الإقناعية التي تأتينا كل يوم من مصادر عديدة، تحاول أن تؤثر فينا بشكل أو بآخر، كما أننا بدورنا نحاول أن نقنع الآخرين بوجهة نظرنا، وبأشياء نؤمن بها ونريد من الآخرين تبنيها. كما أننا نوجه الرسائل الإقناعية في جملة من علاقاتنا الشخصية، ونستقبلها صباح مساء من وسائل الإعلام بكل

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠ - ٧١.

(٤) تسمى هذه الخطبة بـ (خطبة الحاجة) وهي ضمن حديث صحيح، انظر: مسند الإمام أحمد، الموسوعة الحديثية، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرون، تمة مسند عبد الله بن عباس، رقم الحديث (٤١١٥)، ١٨٨/٧، الطبعة الثانية (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، وانظر: رسالة بعنوان (خطبة الحاجة)، الشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني، ص ١٢، الطبعة الرابعة (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ).

الجهات وأوجه الحياة، سواء كان ذلك في المجال الديني والثقافي، أو السياسي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي... فالرسائل الإقناعية تحيط بنا من الآخرين، كما نحاصر بها الآخرين أيضاً^(١).

ولما سبق بيانه يأتي هذا البحث محاولة متواضعة لتلمس أصول الإقناع ومقوماته وبيانها. أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

لهذا الموضوع أهمية بالغة في استخدامات الدعوة، وذلك أن القرآن الكريم سلك هذا الأسلوب - الإقناع - مع الأمم التي ألفت الكفر والشرك وعبادة الأوثان رغبة في هدايتهم إلى طريق الحق واستمالتهم إلى النور المبين.

ولعلي عند الحديث عن أهمية هذا الموضوع وعن سبب اختياره ألا أخفي اهتمامي به منذ زمن ليس بالقصير، فقد كان يشغل ذهني دائماً قدرة البعض من المتحدثين والخطباء وغيرهم على استمالة المستمعين والمخالطين لهم وكسب تأييدهم لما يذهبون إليه من أقوال أو آراء، وقدرة البعض الآخر على إقناع الآخرين بكل مهارة وتميز، مع تفاوت تلك القدرة من شخص لآخر. فوقع في ذهني سؤال محير: هل القدرة على الإقناع عند البعض أمر جبلي؟ أم إنه مكتسب؟ بمعنى أن الإنسان يستطيع أن يكتسبه بالدربة والمران؟ ... وأسئلة أخرى.

فكان هذا هو السبب الرئيس في اختيار هذا الموضوع، وخوض غماره مع قلة ما كتب فيه.

ولئن كان الاستهواء والتأثير واستمالة العواطف في الخطابة سائداً في أزمنة سابقة، فإن الأحوال قد تبدلت ولم يعد يؤثر في كثير من الناس هذا الأسلوب وهذه الطريقة، بل اتخذت من الإقناع بالأفكار سبيلاً لاعتناقها وتبنيها والذود عنها والدعوة إليها، فهم لا يسمحون للتأثر بما يسمعون طواعية بل الإقناع المبني على الدليل والحجج والبراهين العقلية، أكثر من تأثرهم بالاستمالة العاطفية الوقتية.

أما سبب اختيار أسلوب الإقناع دون غيره من الأساليب في هذا البحث فلأهميته كما اتضح ولأن الإقناع - كما قيل - فضيلة بين رذيلتين، بين الإغراء والإكراه.

وأما سبب اختيار الدراسة على الخطب دون غيرها من ممارسات الخطاب الدعوي كالرسائل مثلاً، فلأن الخطابة تمثل أرقى أسلوب اتصالي إقناعي ذا تأثير في جمهور المستمعين واقتناعهم.

وأما سبب اختيار هذه الشخصية - الإمام الحسن البصري - دون غيره من الخطباء لدراسة خطبه وما اشتملت عليه من مضامين إقناعية، هو أن هذه الشخصية الفريدة وصف أن كلامه يشبه كلام الأنبياء، ولعل هذا الأمر يتضح جلياً عند الحديث عن شيء من سيرته. فلهذه الأسباب أنفة الذكر وغيرها كان هذا الموضوع جديراً بالدراسة والبحث.

الدراسات السابقة لهذا الموضوع:

بالنسبة لهذا الموضوع: (أصول الإقناع في الخطاب الدعوي، دراسة تطبيقية لنماذج من خطب الإمام الحسن البصري - رحمه الله -) فلم

مجلة
الدراسات
الدعوية
أعثر - حسب اطلاعي - على دراسة مستقلة تناولت هذا الموضوع
بالتحديد.

غير ما وجد في بعض الكتب من الحديث حول الإقناع، ولعل من أبرز ما اطلعت عليه في هذا المجال ما يلي:

- كتاب: (الأسس النظرية للإقناع) لـ د. محمد محمد البادي.
- وكتاب: (الجوانب الإعلامية في خطب الرسول ﷺ) لـ أ. د. سعيد بن علي بن ثابت.

- وكتاب: (كيف تقنع الآخرين) لـ عبد الله بن محمد العوشن.
أما الدراسة التطبيقية لخطب الإمام الحسن البصري فلم أعثر على من قام بدراستها من حيث جوانب المضامين الإقناعية فيها. وهذا ما سوف تقوم به هذه الدراسة - بإذن الله - في تركيز على جانب محدد وهي أصول الإقناع في خطب الحسن - رحمه الله - .

وأما الدراسات الأكاديمية (الرسائل الجامعية) فقد عثرت ضمن فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية (الإيداع النظامي) على رسالة مسجلة تحوي عنواناً مقارباً هو: (الإقناع في التربية الإسلامية)⁽¹⁾ حيثُ أُفرد في فصل من الفصول بيان الأسس الإقناعية في التربية الإسلامية ثم فصل في الأساليب التي يتم بها الإقناع، وذكر منها أسلوب القدوة الحسنة وأسلوب الممارسة والعمل وغيرها.

غير أن هذه الدراسة تناولت الإقناع من جهة استخداماته في مجال التربية والتعليم، دون الوصول إلى أصول معتمدة في الإقناع.
مشكلة البحث:

لا بد أننا - جميعاً - قد مورس تجاهنا أساليب متنوعة من أساليب الإقناع سواء المباشر أو غير المباشر، ولا بد أننا أيضاً قد وقعنا

(1) بحث غير مطبوع مسجل في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، كلية التربية، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، وهو من إعداد الطالب/ سالم بن سعيد بن مسفر بن جبار، لنيل درجة الماجستير، في العام الجامعي ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

ضحية ممارسة أسلوب الإقناع غير النزيه (الخداع) بالدعاية لأفكار معينة، أو سلع شرائية حتى أننا تأثرنا بها فحصلنا على سلع لسنا بحاجة إليها؛ إلى غير ذلك من صنوف استخدامات الإقناع الكثيرة. وحتماً أنك - عزيزي القارئ - خرجت يوماً من صالة أحد المؤتمرات أو المحافل العامة والندوات وقد ترسخ في ذهنك عدد ليس بالقليل من الأفكار والمبادئ نتيجة ذلك المتحدث البارع، أو الخطيب المفوم.

فما سبب هذا التأثير؟ وأي أسلوب استخدمه هذا المتحدث أو الخطيب حتى جعلك تفتتق وتتأثر بما قال؟
ولابد أن البعض يُعجبُ بذلك الداعية الموفق الذي يسرد لك ما يريد أن يوصله من أفكار بتسلسل منطقي، مدعم بالبراهين، حتى ما يلبث أن ينتهي من حديثه ذاك أو من خطبته إلا وقد ترسخ في ذهنك (اقتناعاً) العديد من الأفكار الهامة، والتي أراد هو ببراعة أن يوصلها لك فتفتتق بها، حتى أضحيت مقتنعاً بها داعياً إليها. فأأي أسلوب مقنع سلكه هذا الداعية؟ وأي مهارة يمتلكها، ليحيل معانيه تلك إلى أمور مسلم بها ومقنعة؟

ثم عكس ذلك عند كثير من الخطباء والدعاة والمنظرين أو غيرهم تجدك غير متحمس لما يتبنونه من أفكار وآراء، فتجدك مدفوعاً لعدم الاقتناع بها، أو حتى القبول بها. فما السر في ذلك؟ هل لأن الأول امتلك القدرة على الإقناع؟ والآخر افتقد هذه القدرة؟ أم ما هو السبب؟

وبما أن المشكلة ينبغي لحلها أن توضح الحيرة أو يزال الغموض والعقبة غير المرغوب فيها، فإن الباحث سيستفرغ جهده لبحث هذه المسألة وصولاً إلى استخراج أصول الإقناع، مطبقاً ذلك على أحد

مجلة
الدراسات
الدعوية

جهايزة الخطباء المسلمين، دراسة لنماذج من خطبه، مستخلصاً ما يمكن من أساليب وأصول الإقناع ليتم تعميمها للوصول لأقصى درجة من إقناع الآخرين بالدعوة الإسلامية واستمالتهم لمضامينها. تساؤلات الدراسة:

- تساؤلات الدراسة تتلخص في النقاط التالية:
- هل هناك علاقة بين الخطابة والإقناع؟
 - هل معرفة أصول الإقناع أمر مهم للداعية والخطيب؟
 - ما الفائدة من الإلمام بأصول وأساليب الإقناع؟
 - لماذا بعض الخطباء مقنع أكثر من غيره؟
 - ما الأساليب الإقناعية التي سلكها الإمام الحسن البصري - رحمه الله - في مجمل خطبه؟
 - ما دلالات أساليب وأصول الإقناع عند الإمام الحسن البصري - رحمه الله - ؟
 - هل يمكن للخطيب الداعية استخدام الأصول والأساليب في دعوته، وتوظيفها فيما يخدم هدفه من الدعوة وهو تعبيد الناس لرب العالمين.

نوع الدراسة ومنهج البحث:

وحيث إن البحث يعتمد على الجانب الوثائقي القائم على جمع البيانات فسيستخدم الباحث: المنهج التاريخي، حيث (لا تتوقف الدراسة التاريخية عند حدود الماضي بل تتابع دراسة الظاهرة حتى تتوصل إلى دلالات تساهم في فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل...)^(١).

(١) انظر: البحث العلمي مفهومه، أدواته، أساليبه، ذوقان عبيدات ورفاقه، ص ٢١١ (الرياض: دار أسامة، ١٩٩٧م).

إذن سأتبع طريقة الدلالات في تحليل الخطاب للوصول إلى النتيجة
من البحث وهي أصول الإقناع.

المنهج الاستقرائي:

ذلك أن المنهج الاستقرائي يعتمد على أنه حصر وتقصي شامل
لجميع الجزئيات التي تتكون منها ظاهرة البحث (الإقناع) للوصول
من خلال ذلك إلى حكم عام يجمعها.

وقد اتبع الباحث في بحثه جملة من الأمور^(١).

(١) على النحو التالي:

- ١- عزو الآيات إلى سورها.
- ٢- تخريج الأحاديث النبوية - على قلتها - .
- ٣- بيان الكلمات الغامضة قدر الاستطاعة من كتب المعاجم.
- ٤- اتباع قواعد البحث العلمي في عزو النقول.
- ٥- عند ذكر المعلومة أرجعها لأكثر من مرجع إثراء للمعلومة.
- ٦- وضع خاتمة للبحث تحتوي على أهم النتائج.
- ٧- وضع قائمة مفصلة لكافة المراجع الوارد ذكرها في هذا البحث.
- ٨- وضع فهرس مفصل للموضوعات.

مجلة
الدراسات
الدعوية

تقسيمات البحث:

أحتوى هذا البحث على مقدمة ومبحث تمهيدي وثلاثة مباحث

رئيسية، وهي على النحو التالي:

المقدمة وتشمل مايلي:

- ١- مصطلحات الدراسة.
- ٢- أهمية الموضوع وسبب اختياره.
- ٣- الدراسات السابقة للموضوع.
- ٤- المشكلة البحثية.
- ٥- تساؤلات الدراسة.
- ٦- نوع الدراسة ومنهج البحث.

المبحث التمهيدي، ويشمل ما يلي:

أولاً: مفاهيم ومصطلحات الدراسة.

ثانياً: أهمية الخطبة في التأثير في الناس.

ثالثاً: علاقة الخطابة بالإقناع، واستخدامات أسلوب الإقناع.

رابعاً: التعريف بالإمام الحسن البصري - رحمه الله - .

المبحث الأول: نماذج من خطبه في الدعوة والدلالات الإقناعية

فيها، وفيه:

المطلب الأول: خطبتي الإمام الحسن البصري - رحمه الله - في

موضوع الدعوة.

القسم الأول: الخطبة الأولى.

القسم الثاني: الخطبة الثانية.

المطلب الثاني: الدلالات الإقناعية في خطبتي الدعوة.

المبحث الثاني: خطبه في الاحتساب، وفيه:

المطلب الأول: خطبته في الاحتساب على الملأ والدلالات الإقناعية منها.

المطلب الثاني: خطبته في الاحتساب على أهل الفتنة والدلالات الإقناعية منها.

المطلب الثالث: خطبته في الاحتساب على العامة.

المبحث الثالث: أصول الإقناع في خطب الإمام الحسن البصري - رحمه الله - وفيه:

الأصل الأول: الخطيب (الداعية) المقنع.

الأصل الثاني: ما يتعلق بالمرسل إليه (المدعو) لكسبه واستمالته للحق.

الأصل الثالث: غاية الدعوة ومضمونها.

الأصل الرابع: الوسائل الملائمة والأساليب البليغة في العرض.

الخاتمة.

المراجع.

الفصل التمهيدي:

قبل الشروع في البحث يحسن التمهيد بمدخل ملائم لهذه الدراسة يشتمل على: مفاهيم الدراسة، والحديث عن التعريف الإجرائي للخطبة، ثم بيان أهمية الخطابة في التأثير في الناس، وعلاقة الخطابة بالإقناع، والتعريف بالإمام الحسن البصري - رحمه الله - وتفصيلها على النحو التالي:

أولاً: مفاهيم ومصطلحات الدراسة:

وهي تتركز فيما يلي:

عند النظر لعنوان هذه الدراسة (أصول الإقناع في الخطاب الدعوي) يبرز أمامنا المصطلحات التالية:

أصول، وإقناع، والخطاب الدعوي؛ وهي التي تحتاج إلى بيان:

الأصل في اللغة:

يقول صاحب " القاموس المحيط " : الأصل : أسفل الشيء ، وجمعه أصولٌ وأصلٌ. وأصلٌ، كالكرم: صار ذا أصل أو ثبت ورسخ أصله^(١). (الأصل: ما يبنى عليه غيره، أو ما يتفرع عنه غيره. كأصل الجدار وهو أساسه المستتر في الأرض المبني عليه الجدار. وأصل الشجرة وهو طرفها الثابت في الأرض: ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٢) و(الأصل: أسفل الشيء، ثبت ورسخ أصله)^(٣).

(١) القاموس المحيط، العلامة اللغوي مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ص ١٢٤٢، الطبعة الثالثة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٤.

(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة (أصل)، ص ١٢٤٢.

الأصل في الاصطلاح:

يطلق على معان منها: الدليل، القاعدة المستمرة، المقيس عليه^(١).
 والمقصود في هذه الدراسة المعنى الثاني وهو القاعدة المستمرة.
 أما المصطلح الثاني "الإقناع" في اللغة: عند النظر لمادة (ق ن ع) نجد
 أنها تدل على (القنوع) السؤال والتذلل وبابه خضع فهو (قانع) وقال
 الفراء: (القانع) الذي يسألك فما أعطيته قبله، و(القناعة) الرضا
 بالقسم وبابه سلم فهو (قنع) ... و(أقنعه) الشيء أي أرضاه^(٢).
 ويقول صاحب (تاج العروس): القنوع قد يكون بمعنى (الرضا) ...
 وقال ابن السكيت: من يحجز القنوع بمعنى القناعة ... والإقناع أن
 يقنع البعير رأسه إلى الحوض للشرب وهو مد رأسه^(٣).
 و(الإقناع عند أهل اللغة هو الرضا، وأصله مادة (قنع)، تقول العرب
 قنَع بنفسه قنعاً وقناعة: رَضِيَ، وتقول: أقنعتني كذا أي أرضاني، ومن
 أمثالهم: خيرُ الغنى القنوعُ الفقر الخضوع^(٤).
 تعريف الإقناع في الاصطلاح:

من أقدم التعريفات الاصطلاحية تعريف (حازم القرطاجني
 ٦٨٤هـ) في كتابه "منهاج البلغاء" فيقول: "هو حملُ النفوسَ على فعل
 شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده"^(٥).

(١) شرح الورقات في أصول الفقه، لفضيلة الشيخ عبد الله بن صالح الفوزان، ص ١٦،
 الطبعة الثانية (الرياض: دار المسلم، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).

(٢) مختار الصحاح، الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مادة (ق ن ع) ص
 ٥٥٢ - ٥٥٣، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضي الزبيدي، مادة (قنع)، ٤٨٦/٥،
 بدون ذكر الطبعة (بيروت: دار مكتبة الحياة).

(٤) لسان العرب، ابن منظور (٧١١هـ)، مادة (قنع)، (بيروت: دار صادر).

(٥) منهاج البلغاء وسراج الأدياء، تحقيق محمد بن الخوجة، ص ٢٠، الطبعة الأولى
 الدعوية (تونس: الشركة الوطنية للنشر، ١٩٦٦م).

(وجاء في الموسوعة البريطانية أن الإقناع هو العملية التي بها يُؤثر الخطاب في مواقف الإنسان وسلوكه بدون إكراه أو قسْر)^(١).
وهناك من عرفه بقوله: (الرضا بالشيء والقبول به، ومن تعاريفه أقنع يقنع إقناعاً نتيجة محاولات الإقناع)^(٢).
ومنها قول الشاعر:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تـرد إلى قـليل تقنـع
يقول الدكتور إبراهيم إمام: (أقنعني أي أرضاني، ويقصد به أن يصبح السامع لك وقد اقتنع بفكرتك لا باعتبارها فكرتك أنت ولكنها أصبحت فكرته الخاصة به والتي نبعت من داخل نفسه وكان لك فضل إثارتها وتحريكها والكشف عنها)^(٣).

كما عرف الإقناع بأنه: (الإقناع هو الاتصال الذي يسعى لجعل المتلقي يقبل استجابة جديدة أو يتبناها وذلك بطريقة طوعية، ويعرف (أدونيل وكيل) الإقناع بما يلي: "الإقناع هو عملية تفاعلية معقدة يرتبط فيها المرسل والمتلقي برموز لفظية وغير لفظية، ومن خلال هذه الرموز يسعى المقنع أن يؤثر ليغير استجابته)^(٤).

ENCYCLOPAEDIA BRITANICA (PERSUASION) 15 TH (١)

EDITION وانظر: أساليب الإقناع في القرآن الكريم، د. بن عيسى باطاهر، ص

٢١، الطبعة الأولى (عمان: دار الضياء للنشر والتوزيع، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).

(٢) كيف تقنع الآخرين، عبد الله بن محمد العوشن، مرجع سابق، ص.

(٣) الإعلام السياسي، د. إبراهيم إمام، ص ٥٧ وما بعدها، الطبعة الثانية (القاهرة:

مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م).

(٤) الدعاية وأساليب الخداع، تيد سميث الثالث، ترجمة عثمان العربي، ص ٩٤ -

٩٥، بدون ذكر الطبعة (الرياض: دار الشبل، ١٤١٣هـ)، وانظر: التأثير الذي لا

يقاوم، سعد محمد الحمودي وسعيد سالم المالكي، ص ٤، الطبعة الأولى

(الرياض: ١٤٢٧هـ).

ويعرف الدكتور سمير محمد حسين في كتابه (الإعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام) الاتصال الإقناعي بقوله: (هو الاتصال الذي يحدث عندما يوجه القائم بالاتصال - عن قصد - رسائله الإعلامية لإحداث تأثير مركز محسوس على اتجاهات وسلوك مجموعات معينة مستهدفة من الجمهور)^(١).

ولعل أحدث التعريفات ما ذكره العوشن من تعريف علمي للإقناع حيث يقول: (هو عمليات فكرية وشكلية يحاول فيها أحد الطرفين التأثير على الآخر وإخضاعه لفكرة ما)^(٢).

ولعل التعريف الأقرب لمقصد هذه الدراسة ما ذكره العوشن من تعريف علمي للإقناع.

ولعل من المناسب بعد هذا البيان أن نتحدث عن الخطب مع تعريف إجرائي للخطبة، ثم نذكر أهمية الخطابة في التأثير في الناس، ثم نلقي الضوء على علاقة الخطابة بالإقناع، واستخدامات الإقناع، ثم نختم ذلك بذكر تعريف موجز بالإمام الفذ الإمام الحسن البصري - رحمه الله - الذي سيتم تطبيق هذه الدراسة على نماذج من خطبه.

وقد تم اختيار نماذج من الخطب بحسب تنوعها الموضوعي ذلك أن خطب الإمام الحسن البصري عديدة^(٣) - مع قلة ما دون منها - غير

(١) الإعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام، د. سمير محمد حسين، ص ١٦٦، الطبعة الأولى (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٤م).

(٢) كيف تقنع الآخرين، عبد الله بن محمد العوشن، مرجع سابق، ص ١٨.

(٣) انظر: رسائل مبكية، فتحي الجندي، الطبعة الأولى (إسلام آباد: دار الكتاب والسنة، ١٤١٦هـ) وغيره.

أنه تم الاكتفاء بأبرز تلك النماذج لشمولية موضوعاتها وتنوعها الدلالي.

مفهوم الخطابة:

في اللغة: (خطب) في استخدامات اللغة تدل على: خطب على المنبر (خطبة) بضم الخاء... و (خَطَب) من باب ظَرَفَ أي صار (خطيباً).^(١) (والخطبة عند العرب: الكلام المنثور المسموع)^(٢).

في الاصطلاح: عرف أرسطو الخطابة بقوله: (يمكن أن نُحَدِّد الخطابة بأنها: الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان)^(٣). وعرفها الدكتور أحمد الحوي في أنها: (فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالة).

ثم يقول: وإذا فأسس الخطابة: مشافهة، وجمهور، وإقناع، واستمالة^(٤).

وكذلك يذكر: (أن الخطابة لا بد أن تكون في جمع من الناس، يحاول الخطيب إقناعهم، ويجد في استمالتهم)^(٥).

(١) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، عني بترتيبه محمود خاطر، ص ١٨٠، بدون طبعة أو سنة نشر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب).

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، مادة (خطب)، ص ١٤٣.

(٣) الخطابة، أرسطو، ترجمه للعربية عبدالرحمن بدوي، ص ٢٩ (بيروت: دار القلم، ١٩٧٩م).

(٤) فن الخطابة، د. أحمد محمد الحوي، ص ٥، الطبعة الرابعة (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر).

(٥) المرجع السابق، ص ٥٠.

وقد ذكر الأستاذ الدكتور عبدالرب بن نواب الدين آل نواب تعريفاً لـ (الخطاب الدعوي) بقوله: (هو الأسلوب القويم الذي يستميل به الداعية الناس إلى الحق والرشد)^(١).

أما المقصود بالخطاب الديني:

فهو الخطاب الذي يستند إلى مرجعية ربانية، يأخذ صوراً كثيرة متعددة (كالتوعظ المباشر) والخطابة، والدعوة الفردية، والكتابة الدعوية وغيرها.

وتم التركيز على الخطابة لأنها تمثل أوضح صور الخطاب الدعوي وأكثرها استخداماً.

التعريف الإجرائي للخطبة:

لتحديد التعريف الإجرائي للخطبة فإنني سأتابع ما أورده المصنفون دالاً على مقوم من مقومات الخطبة، أو ما يشير إلى ذلك نحو قولهم: وقف خطيباً... أو خطب في الناس... أو قام ليخطب أو نحو ذلك. ولشع ذلك الأمر فإنني سعيت ألا أدون سوى الخطب التي اشتملت على هذا الأمر، غير خطبة واحدة لم تذكر المراجع والمصادر فيها هذا الشرط، بيد أن هذه الخطبة اشتملت على أركان الخطبة، فاعتمدها للدراسة لأهميتها (وهي خطبته في الدعوة).

ومما سبق يمكن تحديد تعريف إجرائي للخطبة، وما نغنيه في

هذه الدراسة على النحو التالي:

(١) انظر: السجل العلمي لأبحاث ملتقى الدراسات الدعوية الواقع والأمل، (٢٣ - ٢٥ /

صفر / ١٤٢٩هـ)، بحث بعنوان: الخطاب الدعوي ومقومات النجاح، إعداد

الدكتور عبدالرب بن نواب الدين آل نواب، ص ٢٩٠.

دراسة نماذج من خطب الإمام الحسن البصري - رحمه الله - التي اشتملت على مقوم من مقومات الدلالة على الخطابة كقول المصنفين: وقف خطيباً... أو خطب في الناس... أو قام ليخطب أو نحو ذلك. دراسة تطبيقية لاستخراج الدلالات الإقناعية فيها واستنتاج أصول الإقناع منها.

ثانياً : أهمية الخطابة في التأثير في الناس.

للخطابة أهمية بالغة في التأثير على مشاعر الناس وتوجهاتهم، ذلك أن الخطبة تمثل أفضل أسلوب اتصالي في مجال الدعوة، ولما له من تأثير في جماهير المستمعين، ولأنه اتصال مواجهي (جماهيري) يعتمد على التلقائية.

يقول الدكتور أحمد غلوش: (وقد استخدمت الخطابة لكثرة فائدتها، وعظيم جدواها، ذلك أن الخطابة علم من العلوم الهامة التي تساعد على الاتصال الجماعي)^(١).

وتعتبر الخطبة من أقوى صور تطبيقات التواصل قديماً وحديثاً؛ لما تلعبه من دور في التأثير على مشاعر الناس وإقناعهم.

ويقول صاحب كتاب (فقه الدعوة) في معرض حديثه حول الخطبة: (وهي لون من ألوان القول، يحشد له الخطيب من الأساليب ما يمكنه من التأثير في سامعيه، وجذبهم إلى جانب ما يدعوهم إليه عن طريق: الإقناع بما يسوق من حجج وبراهين)^(٢).

(١) الدعوة الإسلامية، د. أحمد أحمد غلوش، ص ٤١٩، الطبعة الثانية (القاهرة: دار

الكتاب المصري، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

(٢) فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، ١ / ١٦٩، الطبعة الرابعة (المنصورة: دار

الوفاء، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

ولكي تكون الرسالة (الخطبة) أكثر تأثيراً فلا بد أن يتوافر فيها ما يلي:

- ١- الوضوح.
- ٢- أن تكون مدعمة بالمصادر الموثوقة.
- ٣- أن تكون قصيرة ومفهومة مراعاة لحال السامع.
- ٤- التكرار والإلحاح على الفكرة. بهدف توضيح جوانب الموضوع للوصول للإقناع به.
- ٥- شمول مضمونها^(١).

وللخطبة أثر نجمه فيما يلي:

- أ- توفير حوافز التغيير للأفضل باستمرار.
- ب- الحيلولة دون رواج الشائعات.
- ج- تحقيق الوحدة.
- د- مساهمة الخطبة في تبني الأفكار^(٢).

ثالثاً: علاقة الخطابة بالإقناع، واستخدامات أسلوب الإقناع.

إن بين الخطابة والإقناع علاقة وطيدة واضحة، وقد دُكر فيما سبق أن على الخطيب السعي للتأثير في سامعيه بغية إقناعهم والوصول بهم إلى درجة الاقتناع المؤدي للاستمالة والتأثير، ومما يوضح ذلك: (إن المجادلات والمحاورات، ووسائل الإقناع من حجة ومنطق وبرهان وشاهد، هي اللبنة التي تقوم عليها الخطابة)^(٣).

(١) انظر: بحث بعنوان (الوظيفة الإعلامية للمسجد)، محمد ناجي مسلم ندى، مقدم لـ المعهد العالي للدعوة الإسلامية لنيل درجة الماجستير عام ١٤٠٠هـ، ص ١١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٩.

(٣) فقه الدعوة إلى الله، د.علي عبدالحليم محمود، مرجع سابق، ص ١٧٠.

وحول الهدف من الخطابة وأن لها علاقة بالإقناع يقول: دايل كارنيجي:

(فما الذي نغنيه بهدف الخطابة؟ إن كل خطاب لديه أربعة أهداف أساسية هي:

- ١- إيضاح شيء ما.
- ٢- التأثير والإقناع.
- ٣- الحث على التحرك.
- ٤- التسلية^(١).

ولأن أساس الخطابة هو المعاني وصياغتها؛ فإن لها أهمية بالغة في الإقناع بالأفكار، يقول ليونيل روبي: (المنطق هو أحد العناصر الرئيسية في عملية الإقناع... إن فن الإقناع يتغذى وينمو بوساطة الإمام ببعض مبادئ علم المعاني والمنطق والطرق العلمية للتفكير)^(٢).

أما عن استخدامات الإقناع فلعلي أشير إليها إشارة موجزة وأحيل على مراجع لمن رام الاستزادة، فتركز استخدامات الإقناع في التالي:

- الإدارات والمؤسسات^(٣).
- الإعلام والدعاية^(٤).

(١) فن الخطابة كيف تكسب الثقة وتؤثر في الناس، دايل كارنيجي، ص ١٢٩-١٣٠، بدون طبعة (بيروت: دار الهلال، ١٩٩١م).

(٢) فن الإقناع (المرشد للتفكير المنطقي)، ليونيل روبي، ترجمة / محمد علي العريان، ص ٥ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية).

(٣) المدخل إلى الإقناع في المؤسسات المعاصرة، د.محمد محمد البادي، ص ٩٥-١٢٨، الطبعة الأولى (جدة: مكتبة مصباح، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

(٤) انظر للاستزادة: الإعلام والاتصال بالجماهير، د. إبراهيم إمام، مرجع سابق، ص ٥٦، والبنیان الاجتماعي للعلاقات العامة، د. محمد محمد البادي، ص ١٨٣-١٨٢، ٢١٠، بدون طبعة (مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨م)، والأسس العلمية =
مجلة الدراسات الدعوية

- التربية والتعليم^(١).

- عمليات غسل الدماغ^(٢).

رابعاً: التعريف بالإمام الحسن البصري - رحمه الله - .

فيما يلي سأذكر ترجمة للإمام الحسن البصري - رحمه الله -
- ترجمة موجزة ومختصرة، تشتمل على: اسمه ونشأته وأقوال بعض
الصحابة والتابعين في الثناء عليه ثم ذكر لبعض صفاته وأختم ذلك
بذكر سنة وفاته.
نسبه ونشأته:

هو الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد مولى زيد بن ثابت الأنصاري.
سُبيت أمه من ميسان وهي حاملُ به وولدتَه بالمدينة^(٣).

وكان أبوه مولى لرجلٍ من الأنصار، وكانت أمه مولاة لأم سلمة
رضي الله عنها؛ زوج النبي ﷺ، رُبي في حجرها، وأرضعته من ثديها
بلبنها، ودر عليه لبرها به، ومحبتها له، وفاضت عليه بركة النبوة
فتكلم بالحكمة، وارتقى في الصلاح، والمعرفة إلى الأفضل، وكان
- رحمه الله - أحد المتقين، ومن أولياء الله الصديقين.

=نظريات الإعلام، د. جيهان أحمد رشدي، ص ٢٧٩ - ، ٣٦١ - ٣٧٤، الطبعة
الثانية (دار الفكر العربي، ١٩٧٨م).

(١) كيف تقنع الآخرين، عبد الله العوشن، مرجع سابق، ص ٧٥ - ٨٤.

(٢) انظر: أساليب الإقناع وغسيل الدماغ، جي.آي. براون، ترجمة: الخياط، ص ٣٦،
ص ١٠٤، (الرياض: مكتبة الهدى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت
٧٤٨هـ)، ٥٦٣/٤ وما بعدها، الطبعة الثامنة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ -
١٩٩٢م).

ثم كان وهو صغير تخرجه أمه إلى الصحابة فيدعون له ، وكان في جملة من يدعوه له عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : اللهم فقهه في الدين ، وحببه إلى الناس .
بعض صفاته :

سئل مرة أنس بن مالك عن مسألة فقال : سلوا عنها مولانا الحسن ، فإنه سمع وسمعنا ، فحفظ ونسينا ، وقال : إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين - الإمام الحسن البصري وابن سيرين .
وكان أبو جعفر إذا ذكره يقول : ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء ^(١) .

ومما قيل في خطابته ما قاله صاحب البيان والتبيين : (ومن خطباء النساك والعُباد " الحسن ابن أبي الإمام الحسن البصري "
وقال :... فأما الخطب فإننا لا نعلم أحداً يتقدم الإمام الحسن البصري فيها) ^(٢) .

وروي في الخبر: أن عائشة - رضي الله عنهما - سمعت الحسن يتكلم ، فقالت: من هذا الذي يتكلم بكلام الصديقين؟ ^(٣)
ومن صفاته: كان الحسن دائم الحزن كثير البكاء ، بعيداً من التصنع لا يُظهِر التقشف وإن كاد بادياً عليه ، ولا يدع التجميل ،... ولا

(١) انظر: البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي، ٢٧٨ - ٢٧٩ ، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الريان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

(٢) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق حسن السندي، ١٨٦ / ١ ، بدون طبعة (بيروت: دار الفكر، بدون سنة طبع).

(٣) انظر: آداب الحسن بن أبي الحسن البصري، الإمام جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي (ت: ٥١٠هـ)، تحقيق: سليمان بن مسلم الحرش، ص ٢١، الطبعة الأولى (الرياض: دار المعراج الدولية للنشر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).

يتخلف عن مؤاكلة الناس... وكان له سمت يعرفه به من لم يكن
رآه^(١).

وفاته:

مات الحسن عن ثمان وثمانين سنة، عام عشر ومائة في رجب
منها،^(٢) ...

المبحث الأول

نماذج من خطبه في الدعوة والدلالات الإقناعية فيها

بعد القيام بجمع الخطب- على قلتها نسبياً - عمد الباحث إلى تقسيمها حسب موضوعاتها؛ فهناك خطب تأخذ الطابع الدعوي الوعظي فقط، ولها دلالاتها الإقناعية الخاصة وهناك خطب ذات موضوع خاص، كالإنكار (الاحتساب) المتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي يشمل جميع أصناف المحتسب عليهم كالملا وعامة الناس وأصحاب الفتنة، ولقد قام الباحث بتقسيم وتفصيل هذا النوع الأخير إلى أقسام سوف تتضح في المبحث القادم.

المطلب الأول

خطبتنا الإمام الحسن البصري - رحمه الله - في موضوع الدعوة

تميزت خطب الإمام الحسن البصري - رحمه الله - بقوة العبارة
وجزالتها، واقتصارها على المقصود دون تطويل أو إملال.
القسم الأول: الخطبة الأولى:

خطب الحسن رحمه الله - يوماً فوعظ الناس فقال:

(يا ابن آدم، بع دُنْيَاكَ بِأَخْرَتِكَ تَرْبِحُهُمَا جَمِيعاً، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ
بِدُنْيَاكَ فَتَخْسِرَهُمَا. يَا ابْنَ آدَمَ، إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فِي الْخَيْرِ فَتَنَّا فِئْسَهُمْ
فِيهِ، وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي الشَّرِّ فَلَا تَغْبِطَهُمْ بِهِ. الثَّوَاءُ هَهُنَا قَلِيلٌ، وَالْبَقَاءُ
هُنَاكَ طَوِيلٌ. أَمَّتْكُمْ آخِرُ الْأُمَمِ وَأَنْتُمْ آخِرُ أُمَّتِكُمْ، وَقَدْ أَسْرَعَ
بِخِيَارِكُمْ فَمَاذَا تَنْتَظِرُونَ؟ الْمَعَايِنَةُ؟ فَكُنْ قَدْ هِيَ هِيَ هِيَ هِيَ هِيَ هِيَ هِيَ هِيَ
الدُّنْيَا بِحَالِيهَا وَبَقِيَتِ الْأَعْمَالُ قَلَانِدٌ فِي أَعْنَاقِ بَنِي آدَمَ، فَيَالِهَا مَوْعِظَةٌ
لَوْ دَافَعْتَ مِنَ الْقُلُوبِ حَيَاةً!)

أما إنه والله لا أمة بعد أممكم، ولا نبي بعد نبيكم، ولا كتاب
بعد كتابكم. أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وإنما ينتظر
بأولكم أن يلحقه آخركم....

إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ منه، اختاره لنفسه، وبعثه
برسالته، وأنزل عليه كتابه، وكان صفوته من خلقه ورسله إلى
عباده، ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض، وآتاه منها
قوتاً وبلغته، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١)

فرغب أقوامٌ عن عيشه، وسخطوا ما رَضِيَ له ربه، فأبعدهم الله
وأسحقهم.

مجلة
الدراسات
الدعوية

(١) سورة الأحزاب، من الآية: ٢١.

يا ابن آدم، طأ الأرضَ بقدمك فإنها عما قليل قبرك، واعلم أنك لم تنزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك.

فرحم الله رجلاً نظراً ففكر وتفكراً فاعتبر واعتبر فابصر، وأبصر فصبر. فقد أبصر أقوام ولم يصبروا فذهب الجزعُ بقلوبهم ولم يدركوا ما طلبوا، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا.

يا ابن آدم، اذكر قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَ يَوْمٍ وَعَنُقَهُ﴾ ونُحِجُّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك.

خذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها، فليس الصفو ما عاد كدرًا، ولا الكدر ما عاد صفوًا. دعوا ما يُريبكم إلى ما لا يريبكم. ظهر الجفاء وقلت العلماء، وعفت^(١) السنة وشاعت البدعة. لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرّة العين، وجلاء الصدر، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق من أن ترد عليهم، منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها، وكانوا فيما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها! ما لي أسمع حسيباً ولا أرى أنيساً! لو تكاشفتن ما تدافنتن. تهاديتن الأطباق ولم تتهادوا النصائح. قال ابن الخطاب: رحم الله امرءاً أهدى إلينا مساوينا. أعدوا الجواب فإنكم مسؤولون: المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه، ولكن أخذ من قيل ربه.

(١) سورة الإسراء، الآيتين: ١٣ - ١٤.

(٢) عفت) بمعنى تركت. انظر: مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مادة (ع ف ا)، ص ٤٤٢، بدون طبعة (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون سنة نشر).

إن هذا الحق قد جَهد أهله وحالَ بينهم وبين شهواتهم، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله، ورجا عاقبته، فمن حمد الدنيا ذم الآخرة، وليس يكره لقاء الله إلا مقيمٌ على سُخطه.
يا ابن آدم، الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكنه ما وقر في القلب وصدقته الأعمال^(١).

يقول صاحب كتاب (الخطابة في صدر الإسلام) تعليقاً على هذه الخطبة: (وهذه الخطبة في غرضها واتجاهاتها موافقة للمنهج الذي سلكه خطباء الوعظ الديني، من التزهيد في الدنيا، والحث على طلب الآخرة، والتبصير بالعواقب، والتذكير بالموت، وبما وراء من حساب، والدعوة إلى الاعتصام بالإيمان الحق.

وأسلوبها يغلب عليه السجع، والازدواج، ويكثر فيه الطباق والمقابلة، والمعاني الجليلة والألفاظ أقرب إلى الجزالة^(٢).
ويبدو واضحاً عناية الإمام الحسن البصري بصياغة أسلوبه، وانتقاء كلماته، وتتقيحه، وحسن تأنيه في إقامة سجع جملة، تحقيقاً لإثارة السامعين وتحريك مشاعرهم...

وعلى الرغم من تفاوت خطبه - رحمه الله - بين الإيجاز والإطناب إلا أنها تتسم بأنها تسير على نسق واحد متشابه في الوعظ والتذكير بزوال الدنيا وإدبارها - وهي الحقيقة التي لا تكاد تغيب عن كل ذي لب، مع الحض على الفوز بنعيم الآخرة وثوابها.

(١) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، مرجع سابق، ١/

١٢١ - ١٢٣.

(٢) الخطابة في صدر الإسلام، محمد طاهر درويش، ٢/ ٤١٧ - ٤١٨، بدون طبعة

(مصر: دار المعارف، ١٩٦٧م).

وخلاصة القول: إن خطب الوعظ الديني (الخطاب الدعوي) لونه مهم من ألوان الخطابة الدينية...^(١).

القسم الثاني: الخطبة الثانية.

وقف الإمام الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يخطب الناس ويعظهم فقال: (أيها الناس أني أعظكم ولست بخيركم ولا أصلحكم، وإنني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لها، ولا حاملها على الواجب في طاعة ربها، ولو كان المؤمن لا يعظ أخاه إلا بعد إحكام أمر نفسه لُعدِمَ الواعظون، وقل المذكرون، ولما وجد من يدعو إلى الله عز وجل، ويُرغَّبُ في طاعته، وينهى عن معصيته، ولكن في اجتماع أهل البصائر، ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضاً حياة لقلوب المتقين، وإدكار من الغفلة، وأمان من النسيان، فالزموا - عافاكم الله - مجالس الذكر قريباً كلمة مسموعة، ومحتقر نافع، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

أيها الناس أصبحتم والله في أجل منقوص، وعمل محصى محروس، الموت فوق رؤوسكم، والنار بين أيديكم.

أيها الناس إنما لأحدكم نفس واحدة، إن نجت من عذاب الله لم يضرها من هلك، وإن هلكت لم ينفعها من نجا، فاحذروا - عافاكم الله - التسويف فإنه أهلك من قبلكم، وإنكم لا تدرون متى تسировون؟ ولا إلى أي شيء تصيرون؟ فرحم الله عبداً عمل ليوم معاده، قبل نفاذ زاده.

أيها الناس أن الله عز وجل بسط لكم صحيفة، ووكل بكل رجل منكم ملكين كريمين أحدهما عن اليمين، والآخر عن الشمال، وهو تعالى رقيب عليهما، فإن شاء قتل، وإن شاء كثر، إنما يملي كتاباً لا يفاذر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ريبك أحداً، ولقد رُوي أنه لما نزل على رسول الله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(١) قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "نزلت قاصمة الظهر". فإذا قال ذلك أبو بكر وقد شُهد له بالجنة، فكيف يجب أن يكون قول من سواه؟

فاعتبروا معشر المؤمنين وكونوا على حذر لعلكم تأمنون من عذاب يوم عظيم.

ابن آدم! إياك والاعتزاز، فإنك لم يأتك من الله أمان، فإن الهول الأعظم والأمر الأكبر أمامك، وإنك لا بد أن تتوسط في قبرك ما قدمت. إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فاعتم المبادرة في المهل، وإياك والتسويق بالعمل فإنك مسؤول فأعد للمساءلة جواباً.

ابن آدم! إن الله جلت قدرته أمر بالطاعة وأعان عليها، ولم يجعل عذراً في تركها، ونهى عن المعصية ونفى عنها، ولم يوسع لأحد في ركوبها. ولقد رُوي أن الله سبحانه وتعالى يقول يوم القيامة لآدم: يا آدم أنت اليوم عدل بيني وبين ذريتك، فمن رجح خيره على شره مثقال ذرة فله الجنة، حتى تعلم أنني لا أعذب إلا ظالماً... اتقوا الله أيها الناس واحذروا مقتته. فلمقت الله أكبر لو كانوا يعلمون^(٢).

(١) سورة النساء، من الآية: ١٢٣.

(٢) آداب الشيخ الحسن بن أبي الحسن البصري وزهده وطرف أخباره وما كان عليه رحمه الله ورضي عنه، مرجع سابق، ص ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧.

المطلب الثاني الدلالات الإقناعية في خطبتي الدعوة

ما المقصود بالدلالة:

قبل الشروع في بيان ما يتعلق بالدلالات الإقناعية في خطب الإمام الحسن البصري - رحمه الله؛ يجد الباحث من الضروري تعريف المقصود بالدلالة، وماذا نعني بها في مجال دراستنا.

الدلالة في اللغة:

دل: الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات، والرموز، والكتابة، والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك بقصد ممن يجعله دلالة أو لم يكن بقصد كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾^(١) وأصل الدلالة مصدر كالكناية والإمارة، والبدال من حصل منه ذلك، والدليل في المبالغة كعالم، وعلیم، وقادر، وقدير، ثم يسمى الدال والدليل دلالة كتسمية الشيء بمصدره^(٢).

(الدليل) ما يستدل به والدليل الدال أيضاً وقد (دله) على الطريق يدلّه بالضم (دلالة) بفتح الدال وكسرها...، والاسم (الدالة)^(٣).
أدلة: جمع دليل أي بما قد علموا فيدلون عليه الناس.

(١) سورة سبأ، من الآية: ١٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، كتاب الدال، مادة دل ص: ١٧١ (بيروت: دار المعرفة).

(٣) مختار الصحاح، للإمام الرازي، مرجع سابق، مادة دل، ص ١٩٧.

ودلت بهذا الطريق: عرفته، ودلت به أدلة دلالة، وأدلت بالطريق
إدلالاً^(١).

الدلالة في الاصطلاح:

لعل مصطلح الدلالة الدعوية من المصطلحات غير البيئية المعالم، فلم يعثر الباحث على من عرف الدلالة الدعوية تعريفاً جلياً بيناً في الاصطلاح. غير أن معناها الاصطلاحي لا يكاد ينفك عن معناها في اللغة، أي أن الدلالة يقصد بها: ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، ويقصد به في هذه الدراسة: ما نستطيع أن نستنتج من المعاني؛ وما نتوصل به إلى معرفة شيء مما له الصلة بأصول الإقناع في الخطب محل البحث.

بعد استعراض هذين النموذجين من خطب الإمام البصري - رحمه الله - الخاصة بموضوع الدعوة والتي استخدم فيها أسلوب الوعظ وهو أكثر الأساليب استخداماً؛ نأتي لذكر أبرز الدلالات الإقناعية التي يمكن أن نستنتجها وهي على النحو التالي:

١- المدخل الإقناعي المثير. أو البداية الملفتة للنظر والجالبة لمراعاة الانتباه. وتصدير الخطاب بالنداء بحرف (يا) وهو أشهر أحرف النداء وأبلغها.

ففي الخطبة الأولى يبدأ الإمام الحسن بقوله: (يا ابن آدم...) كأنه بذلك يذكر بأساس النشأة وأصلها، أو أنه أراد التأكيد على مبدأ المساواة، فكل الناس لآدم وآدم من تراب.

وكذلك في الخطبة الثانية بدأ بقوله: (أيها الناس...) جلب

للاهتمام. ولأن ما سيأتي بعدها أمر هام.

مجلة
الدراسات
الدعوية

(١) لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، مادة دلال، ٢٤٩/١١.

٢- ثقة المصدر بما لديه، وثقة الناس بما عنده من مبادئ (المصدقية)^(١) وهذه الدلالة يؤكدتها ما سبق أن ذكر عن فضل هذا الإمام وما قيل عنه. فكم سمعوا له وصدروا عن رأيه وتأثروا به. و (حتى ينجح الإقناع فلا تضيع الجهود سدى لأبد من مراعاة بعض العوامل في الرسالة التي نريد إيصالها إلى الجمهور فيقبل مضمونها ويتبناها وهذه العوامل هي:

- البساطة والوضوح.
- الإثارة والتشويق.
- إشباع الرغبات والحاجات (حاجة حب الاستطلاع والحاجة إلى الأمان وهكذا..).
- المصدقية في المضمون.
- الإثابة والتعزيز.^(٢)

٣- ربط الناس بالباقية (والإعراض عن الفانية) والتنافس مع الغير في الخير.

وكانت هذه المضامين مجمل خطب الإمام الحسن البصري - رحمه الله - ، وهذه دلالة إقناعية فريدة، وذلك بالبدء بالنقاط المشتركة والتي لا ينكرها أحد من المسلمين وصولاً إلى إقناعهم بالعمل الصالح. فالموت والنشور من الأمور الغيبية التي لا يمكن أن يجدها مسلم صحيح الإسلام.

(١) انظر: قوة الإقناع، المهندسة/ نجوى خباز، ص ٦٤ - ٦٥، الطبعة الأولى (الرياض: شعاع للنشر والعلوم، ٢٠٠٥م).

(٢) الإقناع كيف تقنع الآخرين بآرائك وأفكارك؟، مصطفى الدباغ، ص ٣٧ - ٣٨، الطبعة الأولى (عمان: دار الإسراء، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).

٤- الإقناع بسلوك المسلك الموصل إلى النتائج التي تميل وترتاح لها النفوس.

ويتضح ذلك من قوله: (... بع دنياك بأخرتك تريحهما جميعاً، ولا تبع أخرتك بدنياك فتحسرهما جميعاً)، ذلك أن من باع دنياه فإنه في حقيقة الأمر يربح الدنيا والآخرة، وهذا فيه ترغيب وهو أحد أساليب الإقناع.

ثم يتبع أسلوباً آخر في الإقناع وهو أسلوب (التهديد بوقوع العقاب) الترهيب بقوله: (تحسرهما جميعاً).

٥- الاستشهاد بالأدلة والحجج القاطعة والموثوقة، والتمسك بالدليل^(١)

وذلك ماثل في كلا الخطبتين فقد وظف - رحمه الله - الأدلة والبراهين خير توظيف، على نحو جيد، ذلك أن للأدلة أثرها في تدعيم الحق وقوته. ومثال ذلك الاستشهاد بالآيات في مواضع، منها: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٢) و﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾^(٣) و﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(٤)

٦- التكرار بغية الإقناع بالأفكار.

وهذه الدلالة من أهم الدلالات الإقناعية الجالبة للتأثر بها وتبني أفكارها، ومن نحو تكراره في هذه الخطب: تتابع قوله: يا ابن آدم و

(١) انظر: الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسان الباهي، ص ٤٣ و٢١٨، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٤م)، وانظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري، ص ٩٠ (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٢م).

(٢) سورة الأحزاب، من الآية: ٢١.

(٣) سورة الأسراء، من الآية: ١٣.

(٤) سورة النساء، من الآية: ١٢٣.

يا أيها الناس... وتكرار المضمون الذي يريد إيصاله للمستمعين له،
ومن ذلك: التحقير من الدنيا وعدم التعلق بها.

٧- سوق البرهان المحسوس للإقناع به.

ومن ذلك قوله: (واعلم أنك لم تنزل في هدم عمرك منذ سقطت من
بطن أمك) وهذه حقيقة لا مرأى فيها ولا جدال، فإن الأيام نواقص
الأعمار، وهذا فيه إثارة لحقيقة ماثلة لكافة الناس. ثم كيف لا
يستخدم هذا وقد ذكر عنه قوله: (يا ابن آدم إنما أنت أيام إذا ذهب
يومك ذهب بعضك).

٨- التسلسل المنطقي المقنع.

وهذا الأسلوب مدعاة للوصول إلى الإقناع (اعني به التسلسل
المنطقي) والتسليم بما جاء به، ويتضح ذلك من قوله: (إن الله تبارك
وتعالى بعث محمداً ﷺ... إلى أن قال: (فأبعدهم وأسحقهم).
فالنتيجة: أن من اتبع سنة المصطفى فقد نجا. ومن رغب عنها فقد
ضل وغوى.

٩- استخدام العبارات ذات القرع القوي في الأسماع.

وهذا يتكرر كثيراً في خطبه - رحمه الله - ومن ذلك
استخدام العبارة المسجوعة المحكمة القوية وصولاً للإقناع بها، ومن
ذلك قوله: (... طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قبرك)، فيالها من
عبارة قوية تهز الوجدان وتحرك القلوب لتكون سبباً في العمل.

١٠- إشراك المستمعين وإدخالهم في الحوار عبر التساؤل

والاستفسار.

وذلك نجده ما ثلاً في قوله: (... فماذا تنتظرون؟) وهذا فيه دافع
للتحرك والعمل وعدم الركون.

١١ - مشاركة المتلقين في الاهتمامات والرغبات والميول. وهذا مدخل إقناعي جيد ، يتضح من قوله في الخطبة الثانية: (في اجتماع أهل البصائر، ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضاً حياة لقلوب المتقين...).

وذلك فيه الحرص على بذل الخير للغير من مبدأ المسؤولية الملقاة على عاتق أهل العلم.

١٢ - دلالة مخاطبة المتلقين باستثارة الدوافع الإيمانية لديهم: حيث يقول: اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

١٣ - من أساليب الإقناع ضرب المثل بالاعتبار بالسابقين. وهو متمثل في هذه الخطبة نحو قوله: (...احذروا التسويف فإنه أهلك من قبلكم...).

(فضرب الأمثلة يعمل عمل الأدلة والبراهين في تحقيق مصداقية الرسالة المقدمة من المصدر وبالتالي استمالة المستقبل وإقناعه)^(١).

يقول غلوش: (والمثل في كل أحواله يقرب المعاني ويضع صورتها مثيرة لدى المستمع...يقول: (وقد اختير لفظ الضرب مع المثل لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيج الانفعال كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه وينتهي إلى أعماق نفسه)^(٢).

١٤ - ربط المتلقي بالقدوات التي لها قبول وتأثير. وقد استخدم الإمام ذلك عند ذكره لموقف الصديق ﷺ ليكون قدوة ماثلة، وهذا الأسلوب له أثره في الإقناع بالسلوك المطلوب إتباعه والسير فيه.

(١) انظر: كيف تقنع الآخرين، عبدالله العوشن، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٢) الدعوة الإسلامية، د. أحمد أحمد غلوش، مرجع سابق، ص ٢٦٢، ٣٥٥. وانظر: القرآن والمنهج العلمي المعاصر، المستشار/ عبدالحليم الجندي، ص ٤٢ وما بعدها، بدون طبعة (القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م).

١٥ - الدعوة لاغتنام الفرص.

وهذا مدخل إقناعي جيد، وطريق لحل المشكلة سديد، بعد أن استطرده في ذكر التحذير من الاغترار بالدنيا والركون لها، وأن الإنسان مجزي بما يعمل، حول الخطاب إلى الدعوة للعمل بقوله: (اغتمم المبادرة بالسهل وإياك والتسويق).

وهذه غاية وهدف الخطابة، التأثير في الناس وإقناعهم واستمالتهم لتبني موقف عملي مثمر وناضج سليم.

المبحث الثاني

خطبه في الاحتساب والدلالات الإقناعية منها

الاحتساب قرين الدعوة، فهما يحملان المضمون ذاته في استتقاز المكلفين وإرشادهم، والعالم العامل لا بد أن يقرن بين دعوته واحتسابه، لأن الله تعالى أخذ على أهل العلم التبيين للناس وعدم الكتمان. لأن العلماء هم مصابيح الدجى الذين ينيرون للناس بفقهم وعلمهم ودعوتهم الطريق؛ وينبهونهم على كل مسلك خاطئ غير سديد.

ولعل ممن قام بذلك خير قيام الإمام الحسن البصري - رحمه الله - فقد كان مثلاً يحتذى وقدوة في هذا المجال؛ علماً وعملاً، بالقيام بالاحتساب على عامة الناس وعلى خاصتهم (الملا) وعلى أصناف المدعويين عامة مصطحباً في كل ذلك الرفق واللين.

وبعد أن قام الباحث بجمع خطبه - على قلة ما دون منه كما أسلفت - قسمت الخطب من حيث موضوع الاحتساب فيها إلى أقسام تالية:

- ١- الاحتساب على الملأ.
 - ٢- الاحتساب على عامة الناس.
 - ٣- الاحتساب على أصحاب الفتنة.
- وسوف أفرد لكل قسم من الأقسام السابقة مطلباً مستقلاً ثم استخراج الدلالات الإقناعية لكل خطبة على حدة وذلك بسبب التباين في منهجية الخطبة أولاً، وموضوع الحسبة والمحتسب عليهم ثانياً.

المطلب الأول

خطبته في الاحتساب على الملأ والدلالات الإقناعية منها

جاءت نصوص الشريعة الإسلامية بعدد كبير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة الحاتئة والموجبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على عامة الناس، ويدخل التوجيه بالاحتساب على ولاية الأمر في معرض تلك النصوص الشرعية مع التأكيد على ضوابط وإجراءات هذا الاحتساب^(١).

ومن أوضح تلك النصوص وأشهرها حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم)^(٢). وغير ذلك من النصوص الكثيرة في هذا الباب^(٣).

الفرع الأول: نص خطبته في الاحتساب على الملأ.

فقد تولى الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية العراق ما بين عامي ٧٥هـ و ٩٥هـ من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان.

فماذا كان موقف الإمام الحسن البصري - رحمه الله - من

الحجاج؟

(١) انظر تفصيلاً مفيداً عند: حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. حمد بن ناصر العمار، ص ١١٦ وما بعدها، الطبعة الأولى (الرياض: دار أشبيليا، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

(٢) انظر: صحيح الإمام البخاري المطبوع مع فتح الباري، للحافظ بن حجر العسقلاني، كتاب: الأحكام، باب: كيف يبايع الإمام الناس، ص ٢٠٤، رقم الحديث (٧١٩٩)، الطبعة الثالثة (القاهرة: المكتبة السلفية، ١٤٠٧هـ).

(٣) انظر: دعوة الملأ في ضوء الكتاب والسنة، د. عبدالله بن محمد المجلي (رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الدعوة والإعلام).

والجواب على ذلك أن موقف الحسن منه كان موقف الناصح الأمين الذي لا يبخل بالنصيحة مهما كانت الظروف والأحوال، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة...^(١).

ولئن سلم الإمام الحسن البصري من الفتن، قولاً وفعلاً، فإنه كان يناصح الملام دون أن يتعدى ذلك إلى التآليب والإثارة عليهم. وهو يصور حالهم إنما يرجو أن يصلحوه بأنفسهم وأن تكون موعظته لهم سبيلاً للتصحيح والارتداد يقتصر خيرها عليهم، دون أن يتأدى من ذلك احتشاد عليهم وعصيان لسلطتهم. فهو يعظ صاحب السلطان ولا يحرض عليه الرعية^(٢).

أما هذه الخطبة التي نحن بصددنا فقد قالها الإمام الحسن البصري- رحمه الله- إنكاراً على الحجاج عندما حشد الناس ليروا قصره الذي شيده في واسط^(٣)، فانتهز الحسن - رحمه الله- هذه الفرصة واجتمع الناس فخطب بهم فقال:

(الحمد لله أن الملوك ليرون لأنفسهم عزاً وأنا لترى فيهم كل يوم عبراً. يعمد أحدهم إلى قصره فيشيده، وإلى فرش فينجده، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها، ثم تحف به ذباب طمع، وفراش نار، وأصحاب سوء. فيقول: انظروا ما صنعت فقد رأينا أيها المغرور. فكان

(١) ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، د. مصلح سيد بيومي، ص ٢٧٦، الطبعة الرابعة (الكويت: دار القلم، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

(٢) انظر: فن الخطابة وتطوره عند العرب، إيليا حاوي، ص ٢٥٦ - ٢٥٧، بدون ذكر الطبعة (بيروت: دار الثقافة، بدون بيانات نشر).

(٣) بلد في العراق، انظر: معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، ٣٤٧/٥، بدون ذكر الطبعة (بيروت: دار الفكر).

ماذا يا أفسق الفاسقين؟ أما أهل السماوات فقد مقتوك، وأما أهل الأرض فقد لعنوك، بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء، وعززت في دار الغرور لتذلل في دار الحبور، ثم خرج وهو يقول: سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه^(١).

الفرع الثاني: الدلالات الإقناعية من خطبة الاحتساب على الملأ. يمكن الخروج من الخطبة السابقة بجملته من الدلالات الإقناعية على النحو التالي:

١- استخدام المدخل المناسب لحال الواقعة:

فلم يطل الإمام- رحمه الله- في هذا الاستهلال فقال: الحمد لله، ثم ولج إلى مراد كلامه وما يريد أن يوصله إلى مستمعيه، وذلك حرصاً على استغلال هذه المناسبة، وخشية أن ينفذ الناس من حوله.

٢- عدم إرجاء البيان عن وقته:

ذلك من مبدأ الإحساس بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، وبدل عليها ختمه لخطبته تلك بقوله: (سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه).

فهو قد اختار الوقت المناسب ليلقي خطبته على الناس. وليكون قدوة لغيره في الإنكار من مبدأ المسؤولية في التبليغ والإنكار والقيام بالأمانة.

(١) آداب الشيخ الحسن البصري، جمال الدين أبي الفرج الجوزي، مرجع سابق، ص ١١٢. وانظر: أمالي السيد المرتضى، الشريف أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين ت (٤٣٦)، ١ / ١١٢، الطبعة الرابعة (مصر: مطبعة السعادة، ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م). وكذلك: الخطابة في عصرها الذهبي، د. إحسان النص، ص ٢٧٢ (القاهرة: دار المعارف، بدون بيانات النشر) ورسائل مبكية، فتحي الجندي، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

٣- ثقة الناس بالمصدر مدعاة للاقتناع بما يقول؛
وذلك ليتأثروا به ويعملوا بما قال، وليس المنهج في قول الحق،
دون خشية لومة لائم فيه. فطالما استمعوا وتعلمذوا على فقهه وعلمه،
وشعروا أنه يتكلم من مشكاة النبوة.

٤- مراعاة خصائص ونفسيات المتلقين؛
وكأنه بذلك أراد أن يبيث في نفوسهم عدم التعلق بزخرف الدنيا
(عند رؤيتهم لقصر الحجاج) وأن التعلق بها سبب في الخسران المبين
يوم القيامة.

٥- اغتنام الفرص المناسبة كمدخل للإقناع.
وقد اتضحت قدرة الإمام الحسن البصري - رحمه الله - على
ضبط التوقيت المناسب للخطاب الدعوي.

ففي هذه الحادثة عندما فرغ الحجاج من بناء قصره في واسط؛ أمر
الناس للخروج ليطلعوا على قصره، فتجمع عامة الناس من كل
مكان، ولم يرد أن يفوت هذه الفرصة من اجتماع الناس. لأنه قد
أحس بالمسؤولية الملقاة على عاتقه في البيان للناس وعدم الكتمان.

٦- بروز الحكمة في قول الحسن - رحمه الله - مدعاة للتأثر
والإقناع:

وذلك يتضح جلياً في خطبته، فقد اقتصر فيها على ما يلزم دون
تطويل أو تهويل أو تهوين.

وقد عرف سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله -
الحكمة بقوله: (المراد بها الأدلة المقنعة الواضحة الكاشفة للحق
والداحضة للباطل)^(١).

(١) الدعوة الإسلامية: الوسائل، الخطط، المداخل سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله
بن باز، أبحاث اللقاء الخامس لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي بكينيا، ص
٢٨٢ (الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤٠٥هـ).

٧- حسن العرض في الخطبة والتقنن في صياغتها وصولاً للإقناع بمضامينها.
إن براعة انتقاء الألفاظ والتعابير مدعاة لسرعة الاقتناع بالمبادئ والأفكار.
يقول أ.د. الشنقيطي حول هذا الأمر عند حديثه عن قواعد صياغة الرسالة: (حشد أساليب العرض والصياغة مراعاة لخصائص وطبيعة المضمون والجمهور والمستقبل والأثر المقصود...)^(١).
وحول أهميتها يقول: (أهمية العناية بصياغة الرسائل الإعلامية وصولاً للإقناع والتأثير...)^(٢).

(١) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، أ.د. سيد محمد سادتي الشنقيطي، ص ١٨٠ - ١٨١، (رسالة دكتوراه، مقدمة لكلية الدعوة والإعلام عام ١٤٠٥هـ).

(٢) المرجع السابق، ص ٤٨٣.

المطلب الثاني

خطبته في الاحتساب على أهل الفتنة والدلالات الإقناعية منها

لا ريب أن دعاة الحق في كل زمان ومكان يُعدون صمام الأمان في الوقوف ضد الفتن وأهلها والتي تسعى لتقويض دعائم المجتمعات وتشتت شملها ووحدتها. ولا شك أن الإمام الحسن البصري - رحمه الله - كان يستشعر ذلك الدور تمام الاستشعار، وهو ما حدث فعلاً، فعندما قامت ثورتا ابن الأشعث ويزيد بن المهلب في العراق، وقف الإمام الحسن البصري - رحمه الله - أمامهما موقف العالم الرياني محذراً من الفتن وأهلها وحثاً على الاعتصام بطاعة الأئمة وعدم الخروج عليهم^(١). وهكذا يجب أن يكون موقف الداعية زمن الفتن. موقفه من ثورتي ابن الأشعث^(٢) ويزيد بن المهلب^(٣):

في حياة الإمام الحسن البصري قام أناس بعدة محاولات للقيام بثورة لتقويض حكم بني أمية أبرزها ثورة الأشعث في عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي... كذلك حدث بعد موت الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - أن هرب يزيد بن المهلب من السجن ولجأ إلى قومه بالبصرة. حينئذ اتجه الإمام الحسن البصري - رحمه

(١) وهذا الموقف يؤكد رسوخ هذا الإمام في العلم؛ فمع أخذه بميثاق الله ورسوله في الحفاظ على النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، إلا أنه يقوم بدور المحذر من الفتن والخروج على الولاة مترسماً المنهج الشرعي القويم.

(٢) هو عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، هلك صبراً سنة أربع وثمانين، انظر: سير أعلام النبلاء مرجع سابق، ٤ / ١٨٣.

(٣) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، قتل في صفر سنة اثنتين ومئة، انظر: المرجع السابق، ٤ / ٥٠٣.

اللّه - إلى المهالبة للعدول عن هذه الثورة من قبل عدي بن أرطاة^(١) وتكلم يومئذ بكلام فيه الحكمة وبعد النظر^(٢).

الفرع الأول: نص الخطبة:

خطبة الإمام الحسن البصري - رحمه الله - يثبب الناس عن يزيد بن المهلب:

خطب قائلاً: (أيها الناس: الزموا رحالكم، وكفوا أيديكم، واتقوا الله مولاكم، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة، وطمع فيها يسير، ليس لأهلها بياق، وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براض، إنه لم يكن فتنة إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء، وأهل التيه والخيلاء، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي، والمعروف التقى، فمن كان منكم خفياً فليلزم الحق، وليحبس نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا، فكفاه والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفاً، وكفى له به من الدنيا خلفاً، ومن كان منكم معروفاً شريفاً، فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا - أراد الله بذلك - فواهاً^(٣) لهذا، ما أسعده وأرشدته، وأعظم أجره، وأهدى سبيله! فهذا غداً - يعني يوم القيامة - القرير عيناً، الكريم عند الله مآباً^(٤).

(١) عدي بن أرطاة الفزاري أمير البصرة، قتله معاوية بن يزيد بن المهلب سنة اثنتين ومئة.

انظر: سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، مرجع سابق، ٥٣٠/٥.

(٢) انظر: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، د. مصلح سيد بيومي، مرجع سابق، ص ٢٨٥.

(٣) واهماً إذا تعجبت من الشيء قلت (واهاً) له ما أطيبه. انظر: مختار الصحاح، الرازي، مرجع سابق، ص ٧٣٩.

(٤) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، ٢/ ٢٣٥ -

٢٣٦، الطبعة الأولى (مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٢٥٢هـ - ١٩٣٣م).

الفرع الثاني: الدلالات الإقناعية في هذه الخطبة:

تميزت هذه الخطبة بعدد من المميزات المهمة كقصر العبارة، وجزالة الألفاظ والمعاني، مع تركيز على المداخل الإقناعية الملائمة في سياق التحذير. ومن الدلالات الإقناعية فيها:

١- استخدام أسلوب الحكمة لأثره الإقناعي:

فهو قد استخدم هذا الأسلوب بالاختصار على المطلوب دون تطويل أو تهويل أو تشهير بأحد.

وذلك لاستشعاره المسؤولية الملقاة على عاتقه ورغبته في القيام بما أوجبه الله عليه من النصح للناس وتحذيرهم من مغبة ما قد يقدمون عليه من الخوض في الفتنة.

٢- عدم إرجاء القول عن وقته وأوانه:

وقد سبق ذكر شيء مما يتصل بهذا الأمر في (المطلب الثاني: الدلالات الإقناعية من خطبة الاحتساب على الملائ).

٣- السبر والتقسيم منطقياً:

ذكر في خطبته هذه سبراً لحال أهل الفتنة بقوله: (إلا كان أهلها...) ثم قسم بقوله: (فمن كان...)

وفي هذه الطريقة تسلسل منطقي محفز للإقناع بالفكرة والتسليم بها.

٤- التذكير بالتجارب السابقة أو ضرب المثل:

ليكون في ذلك عظة وعبرة لمن غفل، حيث يقول: (إنه لم يكن فتنة....)

٥- استخدام أساليب التأثير كالاستنتاجات وصولاً للمستوى

الإقناعي:

ذكر العوشن ضمن الأساليب المتبعة في الإقناع والمناسبة في الدعوة
مجلة الدراسات الدعوية والتبليغ قوله: (إن يقوم القائم بالإقناع بمناقشة الآخرين ومناظرتهم

فيما يؤمنون به من أفكار ويهتمون به من ماديّات، ويبين لهم فساد ما هم عليه بطريقة علمية صحيحة، بالصيغ الأكثر إقناعاً كالاستنتاجات...^(١).

ويتضح ذلك عند سرد كلامه في هذه الخطبة وختمه بقوله: (فهذا غداً القرير عيناً، الكريم عند الله مآباً).

يقول كرونكيت: (إن هناك عمليتين مهمتين تدخلان في عملية الإقناع. أولهما أن الذي يقوم بالإقناع يجب أن يختار للتأثير على الدوافع مفاهيم يعلم أنها سوف تؤدي دائماً إلى استنتاجات قوية وإيجابية عند المتلقي)^(٢).

وهذا ما نحسه ونلمسه في كل عبارة من عبارات هذه الخطبة والتي كان موجبها وسببها ذلك الأمر الطارئ؛ وهو جمع الناس تحت مظلة إمامهم وعدم الخروج عليه وترك تتبع أهل الفتنة.

أما عن المستوى الإقناعي، فنقصد به التأثير بالكلام لتصحيح السلوك، يقول النغمشي في كتابه: (علم النفس الدعوي): (وهو التصديق الباطن المقترن بالعمل الظاهر، حيث تتم ممارسة السلوك والأخلاق برغبة وإحساس عميق، يكسبان العمل قيمة وأهمية في الشعور الباطني، ودقة وشمولاً في العمل الظاهري...)^(٣).

أي التأثير ثم القناعة بالفكرة فتحويلها إلى سلوك وموقف عملي.

(١) كيف تقنع الآخرين، عبد الله محمد العوشن، مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٢) انظر: الأسس العلمية لنظريات الإعلام، الدكتورة جيهان أحمد رشتي، مرجع

سابق، ص ٢٨٠

(٣) علم النفس الدعوي، د. عبدالعزيز بن محمد النغمشي، ص ٤٩ وما بعدها، الطبعة

الأولى (الرياض: دار المسلم للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ).

٦- مشاركة الناس واقعهم وهمومهم:

وهذا مدخل من مداخل الإقناع القوية والتي لها تأثير، ذلك أن المتلقي عندما يحس أن صاحب الدعوة مهتم بمشاكله وهمومه فهذا مدعاة للقبول منه، لأنه مشارك في الحال والهموم. ولعل هذه الفتنة مما شغل به المسلمون في ذلك الوقت وأصبحت أولى اهتماماتهم.

وفي ذلك أيضاً مراعاة لعدم الاستخفاف بعقل الجمهور المستقبل والثقة في قدرته...^(١).

ومن الدلالات في هذه الخطبة:

□ القدرة على ضبط التوقيت المناسب للخطاب الدعوي.

□ وإن من أهم أساليب الخطاب الإسلامي في الإقناع هو الرحمة بالمخاطبين.^(٢) وذلك من خلال الخوف عليهم من مسببات الفتن ونتائجها، من سفك للدماء، وأخذ الحقوق وتضييعها، وتعطيل الحدود وغير ذلك من المفساد.

(١) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد الساداتي الشنقيطي، مرجع سابق، ص ٢٢٣ وما بعدها.

(٢) الجوانب الإعلامية في خطب الرسول ﷺ دراسة تحليلية من خطب الرسول ﷺ، د. سعيد ثابت، ص ٦٢، بدون طبعة (طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والأرشاد، ١٤١٧هـ).

المطلب الثالث

خطبته في الاحتساب على العامة

قبل البدء بذكر خطبة الحسن في الاحتساب على عامة الناس يحسن بنا ذكر أنواع نصح الناس وإرشادهم وأن من ذلك: ردّ من زاغ منهم عن الحق في قول أو عمل، ولكن عليه أن يتتبه ويعنى (اعني المحتسب) بالأسلوب النبوي الفريد في الإنكار العلني وهو عدم التشهير، ولكن ذكرهم في معرض القول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا..^(١).

الفرع الأول: نص الخطبة في الاحتساب على العامة، لوقوعهم بعيب بعضهم بعضاً:

ذكر الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - هذه الخطبة حيث قال: (ابن آدم إنك لن تجمع إيماناً وخيانة، كيف تكون مؤمناً ولا يأمنك جارك؟ أو تكون مسلماً ولا يسلم الناس منك أليس قد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)^(٢). وكان ﷺ يقول: (ليس بمؤمن من خاف جاره بوائقه)^(٣).

(١) حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. حمد بن ناصر العمار، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، شرح وفهارس/ أحمد محمد شاكر، ١/ ١٣٥، الطبعة الثالثة (القاهرة: دار المعارف، ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م).

(٣) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، ترقيم/ محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب: الإيمان، باب: تحريم إيذاء الجار، ص ٤٦، بدون طبعة (الرياض: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

ثم يا ابن آدم إنك لا تستحق حقيقة الإيمان، حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، فأصلح عيب نفسك، فإنك لا تصلح عيباً، إلا وجدت عيباً آخر أنت أولى بإصلاحه، ابن آدم إن تكن عدلاً فاجعل لك عن عيوب الناس شغلاً، فإن أحب العباد إلى الله من كان كذلك. والله در القائل:

وأجراً من رأيت بظهر غيب على عيب الرجال ذوو العيوب

ابن آدم ما أوهنك وأكثر غفلتك، تعيب الناس بالذنوب، وتتساها من نفسك، وتبصر القذى في عين أخيك، وتعمى عن الجذع معترضاً في عينك، ما أقل إنصافك، وأكثر حيفك^(١).

الفرع الثاني: الدلالات الإقناعية من هذه الخطبة:

من الدلالات الإقناعية في خطبته في الاحتساب على العامة:

١- قرع الأسماع بالبداية القوية الملفتة:

حيث يقول: (ابن آدم إنك لن تجمع إيماناً وخيانة)... فكأنه يقول: إن وجدت فيك هذه الخصلة فقد نزع منك الإيمان، وإن كنت مؤمناً حقاً فلن تقترف ذلك أبداً.

يقول شيخنا الشنقيطي: (ضرورة معرفة المداخل الأساسية للتأثير في المستمعين...)^(٢).

٢- التسلسل المنطقي كأحد الأسباب الموصلة للاقتناع بالطرح:

وقد قام الإمام - رحمه الله - بذكر الكليات ثم أعقب ذلك بذكر وبيان أنواع الخيانة وأن منها عدم أمن الجار.

(١) آداب الحسن بن أبي الحسن البصري، الإمام جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي

(ت: ٥١٠هـ)، تحقيق: سليمان بن مسلم الحرش، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٢) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد السادتي الشنقيطي، مرجع سابق،

ص ٣٠٩ وما بعدها.

٣- الاستشهاد بالمصادر الموثوقة وأثرها في الإقناع:

وهذا أمر ملاحظ في هذه الخطبة وغيرها حيث استشهد بأحاديث للمصطفى ﷺ، واستشهد في معرض هذا بنص شعري، وكل هذا له أثر على قبول المستمعين لما يطرح عليهم من مبادئ. يقول شيخنا الشنقيطي: (... أهمية البرهنة والاستدلال في الجدل الدعوي... وخطاب العقل والفكر يعتمد على الدليل والبرهان ودعوة إلى النظر والتدبر وحض على اليقين والاستدلال... ومطالبة الخصوم بالحجة... وهذا المنهج يجب أن يتخذ كأحد أساليب الإقناع ليكون له نفع وتأثير بأذن الله^(١).

وتقول الدكتورة فريال مهنا: (يجب أن تزود عملية الإقناع بحجج وبراهين وأدلة وافية...)^(٢).

٤- من الدلالات التي لها تأثير: الموعظة الحسنة:

وهي تشمل أساليب كثيرة ومؤثرة على جمهور المتلقين للخطاب الدعوي، يقول الدكتور عبدالرحمن الميداني: (ويندرج في الموعظة الحسنة كل الأساليب التي تؤثر في النفس الإنسانية، والتي من شأنها أن توجه عوامل الأنفس من جهة الإقناع بالحقيقة...)^(٣).

(١) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد سادتي الشنقيطي، مرجع سابق، ص: ٣٥٩، وانظر: فن الحوار والإقناع، د/ فهد خليل زايد، ص ١٧٦، الطبعة الأولى (عمان: دار النفائس، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م).

(٢) تقنيات الإقناع في الإعلام الجماهيري، د. فريال مهنا (ترجمة وإعداد)، ص ١١٩، الطبعة الأولى (دمشق: طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٩م).

(٣) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال، د. عبدالرحمن بن حنيفة الميداني، ص ١٩٤، بدون ذكر الطبعة (دمشق: دار القلم، ١٤٠٨هـ).

فالموعظة الحسنة مدخل نفسي عاطفي فيه ترغيب في أحيان، وفيه ترهيب في أحيان أخرى، وكل هذا يساعد على تهيئة الأنفس لنفاذ الخطاب الإقناعي لها والقبول بالأفكار والمبادئ.

المبحث الثالث

أصول الإقناع في خطب الإمام الحسن البصري - رحمه الله -

وبعد هذا العرض لنماذج من خطب الإمام الحسن البصري - رحمه الله - والدلالات الدعوية منها نأتي الآن لبيان عدد من أصول الإقناع في الخطاب الدعوي المستتبطة من خطب الإمام الحسن البصري - رحمه الله - .

وبما أن هذه الدراسة مركزة على جانب الخطاب الدعوي وذلك لتلمس أصول الإقناع واستخراجها منه ، فإن الباحث سيجاول أن يلقي الضوء على هذه الأصول من حيث الربط بينها وبين موضوع دراستنا - الدعوة - فأصول الدعوة قائمة على أربعة أصول - على القول الصحيح - وهي:

أولاً: الداعي.

ثانياً: المدعو.

ثالثاً: موضوع الدعوة.

رابعاً: الوسائل والأساليب.

فعلى القائم بمحاولات التأثير في الناس وإقناعهم أن يراعي هذه النقاط ويضعها في حسبانته عند صياغة أي رسالة دعوية إقناعية. الأصل الأول: الخطيب (الداعية) المقنع.

إذا كان الداعية يتخذ من الخطبة أسلوباً من أساليب دعوته ، فإنه لا بد أن يتصف بصفات تؤهله ليكون لخطابه وقع وتأثير في مجموع الناس والحضور من حوله.

ومن ذلك معرفة الناس بحقيقة ما يدعو إليه ، والثقة بالمصدر ، وفي

مجلة

هذه الدراسة التطبيقية على خطب الإمام الحسن البصري ثم بيان الدراسات الدعوية

جانب من ذلك حيث إن الناس أخذوا عنه كثيراً، وكم تأثروا به طويلاً وكانوا يصدرون عن رأيه ومشورته، والشواهد على ذلك كثيرة تم إيراد شيء من ذلك عند الحديث عن سيرته، كقول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وغيرها.

وكيف لا يكون له ذلك القبول عند الناس وقد كان مثلاً للقدوة لهم، ثم إنه لم يعرف عنه في سابق حياته من السوء ما يجعلهم يعرضون عنه ولا يقبلون دعوته، وكما قيل: (أن السوابق تؤثر في اللواحق)، وكم ردّ الحق لا لذات الحق؛ وإنما لأنه قدم من مصدر ليس له قبول في جمهور المتلقين.

يقول الدكتور إبراهيم إمام: (وقد أثبتت التجارب أن هناك علاقة وثيقة بين سمات الشخصية ودرجة القابلية للإقناع والتأثر...)^(١).

ولأنه - رحمه الله - كسب الثقة من الجمهور المتلقي فانعكس ذلك على مقدار القبول منه، والتأثر بما يدعو إليه، وقد تمت الإشارة لذلك عند الحديث عن ثقة المصدر بما لديه من مبادئ، وثقة الناس بما عنده ضمن الحديث عن الدلالات الإقناعية.

ولأنه - رحمه الله - لا يمارس الإلزام بالأفكار أو الإكراه عليها وإنما يتخذ من الإقناع بالأفكار سبيلاً، مدعماً ذلك ومقويه بالأدلة والبراهين والشواهد التي لها أثر على قبول المدعو لما يقول.

ومن صفات القائم بالدعوة باستخدام الخطاب الدعوي ما يلي:

١- أن تكون لديه ثقة بما لديه من مبادئ، ومن ذلك أن يكون ملماً بجوانب ما يريد بثه من فكر ومحاولات إصلاح. (على المتكلم أن

يكون حاذقاً بطريقة إقناع الآخرين بأفكاره، وإيضاح ما يحب قوله^(١).

٢- القدرة على فن التوقيت المناسب وانتهاز الفرص، لتكون للدعوة الأثر النافذ المطلوب.

٣- أن يراعي الفروق الفردية لدى المدعويين، من حيث المستوى الثقافي والعلمي^(٢)، أو المستوى الاجتماعي وغيره، فتوجيه الخطاب لكبار السن مثلاً يختلف عنه طريقة وعرضاً عند خطاب الصغار والأطفال...وهكذا.

ومراعاة الفروق في الأفهام، فلا يكون كلامه مبهماً أو غامضاً، وذلك خشية أن يقوم أحد السامعين بعدم فهم قوله وتأويله إلى غير ما أراد القائم بالخطاب (الداعي)، وكما ورد في الأثر عن عبدالله بن مسعود أنه قال: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟) وكما قيل قديماً (وما آفة الأخبار إلا رواتها). وكما قال الأول:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

٤- أن يقتصر في خطبه على ما يلزم، وقد تمت الإشارة إلى ذلك وأطلق عليه (مبدأ الحكمة أو إحكام القول).

٥- أن يحاول أن يقنع الآخرين بالأفكار ولا يلزم بها، ولا يستخدم مبدأ الإكراه، فلا إكراه في الدين والرسالة التي تصحب بالإكراه أو الالتزام عادة ما تأنف منها النفوس.

(١) المهارة في نقل الأفكار إلى الآخرين، كيرت هانكز، ص ٢٤، الطبعة الثالثة (دمشق: دار الرشيد، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

(٢) انظر: فنون الحوار والإقناع، محمد ديماس، ص ٣٢، الطبعة الأولى (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

٦- أن يحسن انتهاز واستغلال الفرص التي تعرض له في سير حياته، ويطوعها لنشر ما لديه من حق وهدى، وهذا مظنة قبول الحق والتسليم به، ولا يؤخر البيان عن وقته. تعريف المؤثر في الآخرين (المقنع): (هو الذي يتفاعل مع الآخرين، ويقوم ذلك على مراحل ثلاث:

١- التأثير في الناس.

٢- توجيه سلوكهم.

٣- بلوغ هدف الجماعة^(١).

الأصل الثاني: ما يتعلق بالمرسل إليه (المدعو) لكسبه واستمالته للحق. المخاطب هو من يقع تحت طائلة محاولات الإقناع والتأثير. ولكي يتم ذلك فلا بد من مراعاة العديد من الجوانب المهمة والمتعلقة به، من نحو إشباع وتلبية حاجاته، ومراعاة ميوله ورغباته ما لم تعترض مع نصوص هذه الشريعة السمحة.

يقول صاحب كتاب (أساليب الإقناع وغسيل الدماغ): (إن أهم غوغائي في عصرنا هو (هتلر)، وقد كان له سيطرة تامة على وسائل الإعلام، ولكن نجاحه في التأثير على الألمان سببه أنه منحهم ما يريدون في الواقع...)^(٢).

فنجاح الداعية في كسب مدعويه قائم على اتصافه بصفة مراعاة أحوال المدعويين، وتلبية حاجاتهم^(٣).

(١) الدعوة المؤثرة، جمال ماضي، ص ١٥، الطبعة الأولى (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).

(٢) انظر: أساليب الإقناع وغسيل الدماغ، جي. إي. براون، ترجمة د. عبداللطيف الخياط، مرجع سابق، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٣) الجوانب الإعلامية في خطب الرسول ﷺ دراسة تحليلية من خطب الرسول ﷺ، د. سعيد ثابت، مرجع سابق، ص ١٥٩ وما بعدها.

ولابد عند التعامل مع المخاطبين بغية التأثير فيهم وإقناعهم من مراعاة الجوانب التالية على سبيل المثال لا الحصر:

مراعاة المدخل الخطابي المناسب الذي يتوافق مع تهيئة نفوس المتلقين لقبول الخطبة أو الموعظة. (إذا أردت أن تحاول إقناع الشخص الآخر فإنه يتوجب عليك أن تثير عواطفه)^(١).

- مشاركة الناس والجمهور واقعهم والاهتمام والتركيز على همومهم. (طرق التأثير: وتعتمد على أصليين: الأصل الأول: أن تخاطب الإنسان فيما يحبه ويرغب فيه، وأن تدله على طريقة الحصول عليه.

الأصل الثاني: أن تجعل فيه رغبة قوية جامحة في أن يفعل ما تريده له)^(٢).

- تحفيز المتلقين للمشاركة في الممارسة الدعوية، عبر الحوار المفتوح، ونقل المعلومة للغير للفوز بالثواب، فرب مبلغ أوعى من سامع ورب حامل فقه لمن هو أفقه منه، فبذلك يستمر تناقل العلم والدعوة والتبليغ.

- ربط جمهور المتلقين بالقدوات التي لها ثقلها في المجتمع، واتخاذها نموذجاً يحتذى في الخير.

- على الداعية لتكون دعوته عبر الخطبة مؤثرة أن يراعي خصائص المجتمعات وخلفياتها الفكرية والاجتماعية والعرقية... الخ^(٣).

(١) كيف تؤثر في الآخرين، ددافيد ج. ليبرمان، ص ١١١، الطبعة الأولى (بيروت: الدار

العربية للعلوم، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م)

(٢) الدعوة المؤثرة، جمال ماضي، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٣) الدعوة المؤثرة، جمال ماضي، مرجع سابق، ص ١٦٠.

- الرحمة بالمخاطبين ودفء العاطفة نحوهم والحرص على سلامتهم ونجاتهم وسعادتهم^(١).

الأصل الثالث: غاية الخطاب الدعوي ومضمونه:

إن تحديد الأهداف لدى الخطيب أمر هام، ليعمل على ضوء هذه الأهداف؛ على مراعاة الأولويات في الدعوة، وعدم تخطي الحواجز. وتحديد الأهداف مدعاة للاستمرارية وعدم الشطط في القول أو العمل والذي يبعد عن الهدف الأساسي، وفي ذلك ضياع وقت وجهد من يقوم بالدعوة، ومخالفة للمنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى. ولكي يكون الهدف من الخطاب الدعوي عبر الخطبة واضحاً جلياً لا بد من مراعاة الجوانب التالية على سبيل المثال:

□ تناول الإسلام من جميع جوانبه، عقيدة وشريعة وأخلاق وعدم إغفال جانب من هذه الجوانب، ففي تركه أو إغفاله خلل في الرسالة الدعوية، فيؤدي ذلك لعدم قبولها ورفضها وهذا أحد أسباب فشل العمليات الإقناعية.

وقد تكون غاية الخطاب إيصال فكرة، وقد تتوافق هذه مع أفكار فئة اجتماعية معينة يمكن أن نفترض أن لها أداءً وأسلوباً معيناً.

وقد تكون غاية الخطاب إيصال أثر وجداني يظهر في اللغة اليومية بشكل عفوي^(٢).

(١) الجوانب الإعلامية في خطب الرسول ﷺ دراسة تحليلية من خطب الرسول ﷺ،

د. سعيد ثابت، مرجع سابق، ص ١٦٠.

(٢) الأسلوبية وتحليل الخطاب، د. منذر عياشي، ص ٤٩، الطبعة الأولى (حلب: مركز

الإنماء الحضاري، ٢٠٠٢م).

□ أن يحتوي موضوع الدعوة، والهدف منها على الأدلة والبراهين والحجج القوية^(١)، والتمسك بالدليل وصولاً للإقناع به تحقيقاً للتأثير بالأفكار والآراء التي تحتوي عليها موضوعات الدعوة.

□ أن تكون مشتملة على التسلسل المنطقي.

ذلك (إن الكلام يحوي قوة تمكنه من الفعل والتأثير)^(٢).

□ إن (الاتصال الفكري: وهو نقل الأفكار من شخص إلى شخص آخر مرتبطاً بالإقناع)^(٣) وهذا مدعاة للتأثير بالدعوة والقبول بها.

□ السبر والتقسيم من الأمور الهامة في موضوع الدعوة عبر الخطاب الدعوي. والذي يوصل إلى نتيجة قوية في الإقناع وهذا الأسلوب استخدمه الحسن - رحمه الله - في مجمل خطبه، مما كان له أثر في قبول مستمعيه له وتأثرهم به.

□ أن تحتوي الخطبة على الشروط التي تؤهلها تكون مقبولة. وقد تمت الإشارة فيما سبق لنحو من ذلك عند الحديث عن شروط تأثير الرسالة الخطابية.

الأصل الرابع: الوسائل الملائمة والأساليب البليغة في العرض. أسلوب القول هو من أكثر أساليب الدعوة استخداماً ولعل من أهم ذلك القول عبر الخطاب الدعوي (أي الخطبة) وهو ما قمنا بدراسته عبر ورقيات هذا البحث المتواضع.

(٢) انظر: الحجاج في درس الفلسفة، مليكة غبار وآخرون، ص ١٦ وما بعدها، بدون طبعة (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦م).

(١) الحجاج بين المنوال والمثال، د. علي الشبعان، ص ٧١، الطبعة الأولى (تونس: مسكيلياني للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م).

(٢) المهارة في نقل الأفكار إلى الآخرين، كيرت هانكز، مرجع سابق، ص ٤.

ووسائل الدعوة غير توقيفية، أي أنها اجتهادية حسب كل زمان ومكان، ومن الوسائل الخطبة المنبرية أو غيرها.

ولكي تكون هذه الوسيلة ذات فعالية وتأثير في الناس كان لها شروط وضوابط، وجوانب لا بد من مراعاتها والتركيز عليها عند استخدام هذه الوسيلة الدعوية الهامة، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

□ التتويج في صيغ الطرح، والانتقال من جانب بياني إلى آخر، دفعاً للسامة عن المدعو ووصولاً لكسب تأييده في تلك الفكرة. يقول إيليا حاوي: (اعتمد الإمام الحسن البصري في خطبه الأسلوب الحسي الذي تكثر فيه صيغ التعجب والتساؤل وألفاظه...حتى قال: ويعمد الحسن كذلك إلى التمثيل والتصوير والاستعارة....

ويقول: (ولا يتكعب الحسن عن الأسلوب التفصيلي في مواضعه إذ يتوسل الإقناع بالبينة والتصنيف والتحليل^(١)). (السير والتقسيم).
□ التكرار في طرح المضمون.

ويستخدم التكرار من أجل الثبات على مبادئ الإقناع السابقة ومصادمة الإقناع المضاد^(٢).

التكرار: ويحقق التأثيرات التالية:

- ١- استقرار الآراء والأفكار المطروحة.
- ٢- تثبيت هذه الأفكار، وبالتالي يمكن تعلمها.
- ٣- التأثير في اتجاهات الناس^(٣).

(١) فن الخطابة وتطوره عند العرب، إيليا حاوي، مرجع سابق، ص ٢٦٣، ٢٦١.

(٢) البنيان الاجتماعي للعلاقات العامة، د. محمد محمد البادي، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

(٣) الدعوة المؤثرة، جمال ماضي، مرجع سابق، ص ٨.

- التنوع في الأساليب الدعوية المناسبة لكل حادثة بعينها كضرب المثل، والقصة، والحوار والتساؤل، والجدل... وغيرها والمراحة بين تلك الأساليب، ليكون المدعو موصولاً بالداعية الذي يسعى لإقناعه بما يقول.

□ العناية بالمدخل الملائم والجمل الافتتاحية.

عندما يستمع الأشخاص إلى حديث أو يقرؤون مقالاً. فإنهم يولون اهتماماً كبيراً إلى الجمل الافتتاحية والجمل الختامية^(١).

□ العناية بالقفلة المناسبة لموضوع الخطبة.

(يجب أن يتكون الختام الجيد من جملة معدة إعداداً جيداً تعيد للأذهان أهم جزء في الحديث)^(٢).

الختامة:

الحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين آمين. أما بعد: فأحمد الله تعالى وأثنى عليه الخير كله، فهو أهل الثناء والمجد، على ما وفق وسدد، وأعان وأرشد، على القيام بإنهاء هذا البحث المتواضع حول نماذج من خطب علم من أعلام الإسلام، هو الإمام الحسن البصري - رحمه الله - و يتضح لنا من خلال هذه الدراسة الجوانب التالية: تعرفنا أولاً على أهمية الخطابة في التأثير في النفوس لقبول الحق ثم تم- بفضل من الله- بيان علاقة الخطابة بالإقناع، وأن بينهما علاقة وثيقة، حيث أن الخطابة قائمة على مبدأ الإقناع،

(١) فن التحدث والإقناع، تأليف وليم ج. ماكولاف، ترجمة وفيق مازن، مرجع سابق،

ص ٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٨.

وأن الإقناع يتخذ من الخطبة أحد طرق التأثير في المستمعين. ثم عرجنا على تعريف ميسر لهذا الإمام ثم عرض نماذج من خطبه، والتي قسمت إلى خطب في الدعوة وخطب في الاحتساب، ثم استخراج الدلالات الإقناعية الخاصة بكل خطبة، ثم خلصنا من ذلك كله إلى استنباط موجز لأصول الإقناع في الخطاب الدعوي - وهي قابلة للزيادة بلا شك - ذلك أن الباحث تناولها من الجانب الدعوي الصرف، دون التعرض لأساليب وأصول الإقناع المبنية على الخداع أو الإكراه أو الإلزام المقيت.

وقد خرجت الدراسة بالنتائج التالية:

- إن أحد أسباب الخلل في عدم قبول الحق والسّامة من سماعه ناتج عن عدم تطبيق أصول الإقناع في الخطاب الدعوي.
- إن الدعاة إلى الله تعالى ينبغي لهم التعرف على جوانب الإقناع وأساليبه، ليقدموا الدعوة بالشكل الصحيح.
- إن السبب في إعراض كثير من الناس عن دعوة الحق ليس سببه ذاتية الحق، وإنما طريقة تقديمه وطرحه.
- إن للخطابة إسهاماً في التأثير على فكر الناس وتوجهاتهم وهذا يتطلب العناية بالاستشهاد بالأدلة والحجج القاطعة والموثوقة والتمسك بالدليل الصحيح.
- إن المصدقية في طرح الموضوع له أهمية في ثقة المصدر بما لديه وثقة الناس بما عنده من مبادئ.
- لا بد للداعية من اغتنام الفرص في دعوته كمدخل للإقناع.
- أن يحاول الداعية إقناع الآخرين بالأفكار ولا يلزم بها.

وقد خرج الباحث بالتوصيات التالية:

- أن تعنى الدراسات والبحوث بتحليل خطب الدعاة والبلغاء والاستفادة منها في مجال الدعوة الإسلامية.
- أن تعنى أقسام الدعوة في الجامعات السعودية وتهتم بجوانب تأصيل علم الإقناع وتطبيقاتها.
- أن يهتم الدعاة بتدريب المتلقين على استخدام أسلوب الإقناع في شتى مجالات حياتهم.
- أن يعنى الخطباء بالإعداد الجيد لخطبهم مستخدمين أسلوب الإقناع بالحجج والبراهين.
- العناية بإعداد الدعاة وتأهيلهم على الاستخدامات التطبيقية لأسس وأصول الإقناع وتوظيفه في الدعوة إلى الله ودلالة الناس على الخير. هذا وفي الختام فيني أعلم أنني لم آت بشيء لم يسبق إليه، غير أنني استفرغت جهدي وطاقتي في بحث هذه المعلومات وتقصيها مع العلم أنها كانت معلومات مبنوثة في بطون الكتب وموزعة، وحسبي في ذلك أنني بذلت جهدي وطاقتي، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فما كان من خير وصواب وسداد فذلك كله من الله وحده، وما كان من خطأ وخطل فمن نفسي والشيطان، والله تعالى يتجاوز عن المسيء.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المراجع:

- آداب الشيخ الحسن بن أبي الإمام الحسن البصري وزهده وطرف أخباره وما كان عليه رحمه الله ورضي عنه، تحقيق سليمان بن مسلم الحرشي، الطبعة الأولى (الرياض: دار المعراج الدولية للنشر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
- ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، د. مصلح سيد بيومي، الطبعة الرابعة (الكويت: دار القلم، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- أساليب الإقناع في القرآن الكريم، د. بن عيسى باطاهر، الطبعة الأولى (عمان: دار الضياء للنشر والتوزيع، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- أساليب الإقناع وغسيل الدماغ، جي.آي. براون، ترجمة د. عبد اللطيف الخياط (الرياض: مكتبة الهدى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- أسس العلاقات العامة وتطبيقاتها، د. حمود بن عبدالعزيز البدر، (بيروت: دار العلوم، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
- الأسس العلمية لنظريات الإعلام، الدكتورة جيهان أحمد رشتي، الطبعة الثانية (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٨م).
- الأسلوبية وتحليل الخطاب، د. منذر عياشي، الطبعة الأولى (حلب: مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٢م).
- الإعلام والاتصال بالجماهير، د. إبراهيم إمام، الطبعة الثالثة (مصر: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨١م).
- الإعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام، د. سمير محمد حسين، الطبعة الأولى (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٤م).
- الإعلام السياسي، د. إبراهيم إمام، الطبعة الثانية (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٠م).
- الإقناع في حملات التوعية الإعلامية، د. عبد اللطيف ديبان العوفي، بدون ذكر الطبعة (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٩٩٤م).

مجلة
الدراسات
الدعوية

- الإقناع كيف تقنع الآخرين بأرائك وأفكارك؟ مصطفى الدباغ، الطبعة الأولى (عمان: دار الإسراء، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- أمالي السيد المرتضى، الشريف أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين ت (٤٣٦)، الطبعة الرابعة (مصر: مطبعة السعادة، ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م).
- بحث بعنوان (الوظيفة الإعلامية للمسجد)، محمد ناجي مسلم ندى، مقدم لـ المعهد العالي للدعوة الإسلامية لنيل درجة الماجستير عام ١٤٠٠هـ.
- البحث العلمي مفهومه، أدواته، أساليبه، ذوقان عبيدات ورفاقه (الرياض: دار أسامة، ١٩٩٧م).
- البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الريان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- البنيان الاجتماعي للعلاقات العامة، د. محمد محمد البادي، بدون طبعة (مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨م).
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، تحقيق حسن السندي، بدون طبعة (بيروت: دار الفكر، بدون سنة نشر).
- التأثير الذي لا يقاوم، سعد محمد الحمودي وسعيد سالم المالكي، الطبعة الأولى (الرياض: ١٤٢٧هـ).
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضي الزبيدي، بدون ذكر الطبعة (بيروت: دار مكتبة الحياة).
- تقنيات الإقناع في الإعلام الجماهيري، د. فريال مهنا (ترجمة وإعداد)، الطبعة الأولى (دمشق: طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٩م).
- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، الطبعة الأولى (مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م).
- الجوانب الإعلامية في خطب الرسول ﷺ دراسة تحليلية من خطب الرسول ﷺ، د. سعيد ثابت، بدون طبعة (طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والأرشاد، ١٤١٧هـ).

- الحجاج بين المنوال والمثال، د. علي الشبعان، الطبعة الأولى (تونس: مسكيلاني للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م).
- الحجاج في درس الفلسفة، مليكة غبار وآخرون، بدون طبعة (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦م).
- حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. حمد بن ناصر العمار، الطبعة الأولى (الرياض: دار أشبيليا، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
- الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسان الباهي (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٤م).
- الخطابة، أرسطو، ترجمه للعربية عبدالرحمن بدوي (بيروت: دار القلم، ١٩٧٩م).
- الخطابة الدينية في العصر الأموي، غانم جواد رضا الحسن، مقال منشور في مجلة البيان، العدد ٢٩١، ذو القعدة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- الخطابة في صدر الإسلام، محمد طاهر درويش، بدون طبعة (مصر: دار المعارف، ١٩٦٧م).
- الخطابة في عصرها الذهبي، د. إحسان النص (القاهرة: دار المعارف، بدون بيانات النشر).
- (خطبة الحاجة)، الشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني، الطبعة الرابعة (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ).
- الدعاية وأساليب الخداع، تيد سميث الثالث، ترجمة عثمان العربي، بدون ذكر الطبعة (الرياض: دار الشبل، ١٤١٣هـ).
- الدعوة الإسلامية، د. أحمد أحمد غلوش، الطبعة الثانية (القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- الدعوة الإسلامية: الوسائل، الخطط، المداخل سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، أبحاث اللقاء الخامس لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي بكينيا (الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤٠٥هـ).
- دعوة الملأ، د. عبدالله بن محمد المجلي (رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الدعوة والإعلام).

- الدعوة المؤثرة، جمال ماضي، الطبعة الأولى (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- رسائل مبكية، فتحي الجندي، الطبعة الأولى (إسلام أباد: دار الكتاب والسنة، ١٤١٦هـ).
- السجل العلمي لأبحاث ملتقى الدراسات الدعوية الواقع والأمل، (٢٣ - ٢٥ / صفر / ١٤٢٩هـ)، بحث بعنوان: الخطاب الدعوي ومقومات النجاح، إعداد الدكتور عبدالرب بن نواب الدين آل نواب.
- سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، الطبعة الثامنة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
- شرح الورقات في أصول الفقه، لفضيلة الشيخ عبدالله بن صالح الفوزان، الطبعة الثانية (الرياض: دار المسلم، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
- صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري، للحافظ بن حجر العسقلاني، الطبعة الثالثة (القاهرة: المكتبة السلفية، ١٤٠٧هـ).
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، ترقيم/ محمد فؤاد عبدالباقي، بدون طبعة (الرياض: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال، د. عبدالرحمن بن حنيفة الميداني، بدون ذكر الطبعة (دمشق: دار القلم، ١٤٠٨هـ).
- علم النفس الدعوي، د. عبدالعزيز بن محمد النغمشي، الطبعة الأولى (الرياض: دار المسلم للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ).
- فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، الطبعة الرابعة (المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
- فن التحدث والإقناع، تأليف وليم.ج.ماكولاف، ترجمة وفيق مازن، الطبعة الرابعة (القاهرة: دار المعارف).
- فن الحوار والإقناع، د. فهد خليل زايد، الطبعة الأولى (عمان: دار النفايس، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م).

- فن الإقناع (المرشد للتفكير المنطقي)، ليونيل روبي، ترجمة/ محمد علي العريان (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية).
- فن الخطابة، د. أحمد محمد الحويّض، الطبعة الرابعة (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر).
- فن الخطابة وتطوره عند العرب، إيليا حاوي، بدون ذكر الطبعة (بيروت: دار الثقافة، بدون بيانات نشر).
- فن الخطابة كيف تكسب الثقة وتؤثر في الناس، دايل كارنيجي، بدون طبعة (بيروت: دار الهلال، ١٩٩١م).
- فنون الحوار والإقناع، محمد ديماس، الطبعة الأولى (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
- في بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٢م).
- القاموس المحيط، العلامة اللغوي مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرسوقي، الطبعة الثالثة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
- القرآن والمنهج العلمي المعاصر، المستشار / عبدالحليم الجندي، بدون طبعة (القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م).
- قوة الإقناع، إعداد المهندسة نجوى خياز، الطبعة الأولى (الرباط: شعاع للنشر والعلوم، ٢٠٠٥م).
- كيف تقنع الآخرين، عبد الله بن محمد العوشن، الطبعة الثانية (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٤هـ).
- كيف تؤثر في الآخرين، د. دافيد ج. ليبرمان، الطبعة الأولى (بيروت: الدار العربية للعلوم، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).
- لسان العرب، ابن منظور (٧١١هـ)، (بيروت: دار صادر).
- المدخل إلى الإقناع في المؤسسات المعاصرة، د. محمد محمد البادي، الطبعة الأولى (جدة: مكتبة مصباح، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

- مختار الصحاح، الإمام محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
 - مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، عني بترقيبه محمود خاطر، بدون طبعة أو سنة نشر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب).
 - مسند الإمام أحمد، الموسوعة الحديثية، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرون، الطبعة الثانية (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
 - مسند الإمام أحمد بن حنبل، الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، شرح وفهارس / أحمد محمد شاكر، الطبعة الثالثة (القاهرة: دار المعارف، ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م).
 - معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، بدون ذكر الطبعة (بيروت: دار الفكر).
 - المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، (بيروت: دار المعرفة).
 - منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد بن الخوجة، الطبعة الأولى (تونس: الشركة الوطنية للنشر، ١٩٦٦م).
 - المهارة في نقل الأفكار إلى الآخرين، كيرت هانكز، الطبعة الثالثة (دمشق: دار الرشيد، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).
- الموسوعة البريطانية: □
- ENCYCLOPAEDIA BRITANICA (PERSUASION) TH EDITION
 - وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد السادتي الشنقيطي، الطبعة الرابعة (الرياض: دار إشيليا، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م)

سماحة الأخلاق وأثرها في الدعوة إلى الله

إعداد

الدكتور / حمزة بن سليمان بن راشد الطيار
الأستاذ المشارك في قسم الدعوة و الاحتساب
بكلية الدعوة والإعلام
في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة:

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وأنعم علينا بنعمة الإيمان، وأمرنا بالإحسان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد:

فإن سماحة الأخلاق لها أثر عظيم في توثيق العلاقة بين الناس، وتأسيس المودة والمحبة بينهم، خاصة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، فقد استطاع النبي ﷺ من خلال سماحة الأخلاق أن يؤثر في الناس، ويكسب ودّهم، ويرغبهم في الإسلام، لذا حث القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على سماحة الأخلاق، وكان رسول الله ﷺ أعظم أسوة في سماحة النفس ولين الطبع، وسهولة المعاملة، وكمال الخلق، فكان النبي ﷺ بأخلاقه صاحب دعوة عملية للتخلق بالسماحة وبسائر الفضائل، ومحامد السلوك.

ولم يكن ﷺ نكداً ولا صعباً ولا فظاً ولا غليظاً، لذلك أتى الله عليه بالرفقة ولين الجانب ولطف الحديث إذ نفى عنه الفظاظة وغلظ القلب فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(١).

إن سماحة الأخلاق لها أثر فاعل في الدعوة إلى الله، لأنه من خلال تحليّ الدعاة بالسماحة والعمل على نشرها بين الناس، وبيان آثارها يمكن جني الثمار الطيبة المتمثلة في التأثير الإيجابي على المدعويين، وقد أثمرت سماحة الأخلاق في دعوة النبي ﷺ، وذلك من خلال تخلقه ﷺ بالحلم والرفق وعدم مقابلة الإساءة بالإساءة ورحمته بالناس ورفقه بهم وإحسانه إليهم مما كان له الأثر العظيم في الدعوة إلى الله، فكان ﷺ قدوة للدعاة في سماحة الأخلاق. لقد جاء هذا البحث

الموجز لبيان سماحة الأخلاق وأثرها في الدعوة إلى الله تعالى عبر
المباحث التالية:

- المبحث الأول: الحلم وأثره في الدعوة إلى الله.
 - المبحث الثاني: الرحمة وأثرها في الدعوة إلى الله.
 - المبحث الثالث: العدل وأثره في الدعوة إلى الله.
 - المبحث الرابع: الرفق وأثره في الدعوة إلى الله.
 - المبحث الخامس: العفو وأثره في الدعوة إلى الله.
 - المبحث السادس: الإحسان وأثره في الدعوة إلى الله.
- وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ،

المبحث الأول

الحلم وأثره في الدعوة إلى الله

الحلم من أبرز الأخلاق التي تتجلى فيها سماحة الإسلام، قال ابن منظور: "وحلم يحلم حلماً تأتى وسكن عند غضب أو مكروه مع قدرة وقوة، والحليم في صفة الله عز وجل معناه: الصبور، وقيل: هو الذي لا يستخفه عصيان العصاة ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيء مقداراً فهو منته إليه"^(١).

وقال الراغب في المفردات: "الحلم ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب"^(٢).

وقال الجرجاني: "الحلم هو الطمأنينة عند ثورة الغضب، وقيل: تأخير مكافأة الظالم أي مجازاته بظلمه"^(٣). وقد حث القرآن الكريم على خلق الحلم فهو صفة من صفات الله - عز وجل - قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٤)، وقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(٥).

قال الإمام الطيبي: "والحليم من أسماء الله الحسنى وهو الذي لا يحمله غيظ على استعجال العقوبة والمصارعة إلى الانتقام، وحاصله راجع إلى التنزيه عن العجلة وحظ العبد منه أن يتخلق به ويحمل نفسه على كظم الغيظ وإطفاء ثائرة الغضب بالحلم، قال الشيخ أبو

(١) لسان العرب، ابن منظور ٢/٩٧٩، ٩٨٠.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ١٢٩.

(٣) التعريفات، الإمام الجرجاني ص ٩٢.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٢٥.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

القاسم: وإنما يلذ حلمه لرجاء عفوهِ لأنه إذا ستر في الحال بفضلهِ، فالمأمول منه أن يَغفر في المآل بلطفهِ، قال القاضي: الفرق بين الحقوق والحليم: أن الحقوق يؤخر الانتقام انتهازاً للفرصة، والحليم يؤخره انتظاراً للتوبة^(١).

وإذا كان الحلم من صفات الله - عز وجل - فهو أيضاً من صفات الأنبياء، قال سبحانه عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٢)، وقال عن إسماعيل عليه السلام: مبشراً أباه به: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^(٣)، وقال قوم شعيب عليه السلام عنه كما حكى القرآن: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(٤)، ومن حلم الله بعباده عدم تعجيل الشر لهم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ فَأَنْذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٥).

وإذا كان القرآن الكريم قد حث على الحلم وجعله من صفات الله سبحانه وصفاته أنبيائه فقد دعت السنة النبوية إلى التخلق بخلق الحلم وتعظيم أمره، وتمجيد الأناة التي هي من الحلم أو قرينته، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمندر بن عائد - أشج عبد القيس - : (إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ)^(٦).

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الإمام محمد بن عبد الله الطيبي، ٣٦/٥.

(٢) سورة التوبة، من الآية: ١١٤.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠١.

(٤) سورة هود، من الآية: ٨٧.

(٥) سورة يونس، آية: ١١.

(٦) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع

الدين، رقم ١٨.

ومن مظاهر سماحته وحلمه ﷺ ما رواه أبو هريرة ؓ قال: قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: (دَعَوْهُ، وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ - أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ - فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ)^(١).

"فقد علم الرسول ﷺ في هذا الحديث كيف تكون سماحة الأخلاق بالحلم مع الجاهلين، وكيف يكون الرفق بهم وكيف يجب أن يكون الدعاء إلى الله دعاء الحق والخير والفضيلة ميسرين لا معسرين"^(٢).

وفي رواية أخرى عن أنس ؓ قال: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ: مَهْ مَهْ^(٣). قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (لَا تُزْرِمُوهُ. دَعَوْهُ) فَتَرَكَوهُ حَتَّى بَالَ. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: (إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَالْقَذْرِ. إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ)، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ فَأَمَرَ رَجُلًا مِنْ الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَشَنَّهُ^(٤) عَلَيْهِ^(٥).

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب: صب الماء على البول في المسجد رقم ٢٢٠.

(٢) انظر: الأخلاق في الشريعة الإسلامية، د. أحمد عليان، ط/١ دار النشر الدولي، الرياض: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص ٢٥٠.

(٣) كلمة زجر، ومعناها: اسكت، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ص ٢٨٧.

(٤) فشنته: أي فصّبه، المرجع السابق ص ٢٨٧.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب: ترك النبي ﷺ والناس الأعرابي حتى فرغ من بوله في المسجد رقم ٢١٩، وصحيح مسلم، كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، رقم ٢٨٥.

ففي الرواية الثانية زيادة مفيدة، تبين حكمة رسول الله ﷺ التربوية لهذا الأعرابي الجاهل بأداب المساجد، وهي تدل على حلمه وسماحته ﷺ وحسن سياسته وهذا الخلق العظيم هو الذي ملك به قلوب أصحابه ﷺ وفرض به احترامه على أعدائه^(١).

إن دعوة الناس إلى الإسلام تحتاج إلى الحلم خاصة مع الجاهلين، لأن الحلم يعد من مفاتيح شخصيات كثير من الناس، لأن الداعية حينما يفتقد الحلم فإنه يفرق أكثر مما يجمع وينفر أكثر مما يؤلف، ومن ثم فإن تحلي الداعية بالحلم يجعله متسامحاً مع المدعويين مراعيًا لأحوالهم وظروفهم وهكذا كان ﷺ في دعوته فعن أنس ﷺ قال: (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ. فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ. فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً. نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ وَقَدْ أَتَرْتُ بِهَا حَاشِيَةَ الرِّدَاءِ. مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرِّي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي الَّذِي عِنْدَكَ. فَالْتَقَتِ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ. فَضَحِكَ. ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ)^(٢).

فأي احتمال أشد من هذا الاحتمال، وأي عفو أشد من هذا العفو؟ أعرابي يجذب رسول الله ﷺ ويؤثر في عاتقه و يلتفت إليه وهو يضحك ومع ذلك يلبي طلبه بكل سعة وارتياح، فصلوات الله وسلامه على هذا النبي الرحيم بالأمّة.

(١) انظر: الأخلاق في الشريعة الإسلامية، د. أحمد عليان ص ٢٥١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: التبسم والضحك، رقم ٦٠٨٨، وصحيح

مسلم، كتاب: الزكاة، باب: إعطاء من سأل بفحش وغلظة، رقم ١٠٥٧.

وإذا كان هذا الأمر يواجه أفضل الخلق - محمد بن عبد الله ﷺ - ومع ذلك يتحمل ويعفو ويسامح فغيره من باب أولى ، وهذا يبين مدى سماحة أخلاقه ﷺ (١).

ومن أعظم الأمثلة التي ضربها رسول الله ﷺ لأمته والتي تدل على سماحة خلقه وشدة حلمه وعفوه ما روته أم المؤمنين عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: (لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب. فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني. فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي. ثم قال: يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثي ربك إليك لتأمرني بأمرك. فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال له رسول الله: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً) (٢).

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة، د. عبدالعزيز بن

أحمد المسعود، ط/٢، ١٤٢٥هـ/١٩٩٤م، ٣٠٢/١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم: آمين، رقم ٣٢٣١،

وصحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين

والمنافقين، رقم ١٧٩٥.

هذا الحديث يبين بوضوح سماحة الأخلاق والعضو والحلم الذي جبل عليه الرسول ﷺ يأتي ملك الجبال في ساعة ضيق وحرّج من القوم ويأتي إليه لكي ينتصر له وأي نصر؟ إنه هلاك القوم. لكن نصره الرسول ﷺ بعيدة وبعيدة، فهو لا ينظر إلى الساعة التي هو فيها فقط، ولكنه ينظر إلى المستقبل البعيد، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله، فعلاً أصابت نظرة رسول الله ﷺ فخرج من أصلابهم آلاف الرجال الأفذاذ الذين عبدوا الله على أكمل وجه^(١). لقد كانت نظرة النبي ﷺ بعيدة تجاوز فيها آلامه النفسية والجسدية واستشرف الأفق الرحب للدعوة الإسلامية، لأن هداية الناس إلى الإسلام هي الغاية التي يسعى إليها ولأن تعبيد الناس لخالقهم هو الهدف الأسمى، ومن ثمّ فإن سماحة خلقه ﷺ وحلمه كان لها الأثر العظيم في دعوته. ولقد كان رسول الله ﷺ دائماً يوجه أصحابه إلى عدم مقابلة الإساءة بالإساءة، وإنما يدعوهم دائماً إلى السماحة والعضو والإحسان والتحمل لمعرفته ﷺ بما يصلح النفوس، فالعضو والتسامح أقرب إلى الإصلاح من المقابلة بالمثل.

لقد شكّا أحد الصحابة ما يجده من أقربائه من سوء المعاملة رغم إحسانه إليهم، فأمره بالاستمرار بحسن معاملته وبين له النتيجة في النهاية^(٢). فعن أبي هريرة ؓ أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي. وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ. وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالعزيز المسعود ٣٠٠/١.

(٢) المرجع السابق ٣٠٢/١.

عَلَيَّ. فَقَالَ ﷺ: (لَتَبْنَ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسْفِهُهُمُ الْمَلَّ. وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ، مَا دُمْتَ عَلَيَّ ذَلِكَ)^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (فَمَا تَعْدُونَ الصُّرْعَةَ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: الَّذِي لَا يَصْرَعُهُ الرَّجَالُ. قَالَ: لَيْسَ بِذَلِكَ. وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)^(٢).

وكلما ربا الإيمان في القلب ربت معه السماحة وازداد الحلم، ونفر المرء من طلب الهلاك والغضب للمخطئين في حقه فقد قيل لرسول الله ﷺ: ادع على المشركين، قال: (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا. وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً)^(٣).

وعلى قدر ما يضبط المسلم نفسه، ويكظم غيظه ويملك قوله، ويتجاوز عن الهفوات، ويرثي للعثرات تكون منزلته عند الله^(٤). إن الدعوة إلى الله تعالى أحوج الناس إلى خلق الحلم لأنهم قد يصادفون من المدعويين من هو فظ غليظ، ومن هو متجاوز حده ولا يفلح مع هذا الصنف إلا الحلم وسماحة الخلق، حيث يستطيع الداعية من خلال تحليته بسماحة الخلق أن يستوعب أصناف المدعويين. "إن الداعية الحكيم لا بد أن يتحلى بسعة الصدر وجميل الصبر حتى تثمر دعوته ويحقق أهدافه، ويبلغ غايته. ويخطئ أفحش الخطأ

(١) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم ٢٥٥٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب، رقم ٢٦٠٨.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم ٢٥٩٩.

(٤) خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالي، ط/٢ دار القلم، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ١١١.

من يظن أن المشكلات الفردية أو العادات الاجتماعية يمكن أن تعالج بجرة قلم أو قوة سلطان، أو فورة غضب فإن تغيير السلوك الفردي أو الاجتماعي ليس كتغيير شيء من الجماد عن موضعه، وإن فطم النفس عن المعصية إذا ألفتها واعتادت عليها من أشق الأمور وأصعبها، والداعية الأريب يجب أن يكون عارفاً بدوافع النفوس وكوابحها، قادراً على حسن توظيفها واستغلالها حتى لا تفل عزيمته ولا يدب اليأس إلى قلبه، وينكص على عقبيه"^(١).

إن الحلم هو الأناة والتثبت في الأمر وما يلزم ذلك من ضبط النفس عن الغضب وكظم للغيظ وعفو عن السيئة، "والداعية الحليم هو ذو الأناة الذي لا يستفزه الغضب إذا واجه ما يفضبه، ولا يتسرع بالعقوبة بل يضبط نفسه ويترث وبعد الأناة يتصرف على وفق مقتضيات الحكمة، وكل ذلك لا يكون إلا بضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الغضب ولأهمية خلق الحلم فيجب أن يتجنب العجلة الرعناء في تصريف الأمور، وفي القيام بالأعمال وفي الحكم على الأشياء، واستعجال الأشياء قبل أوانها والسرعة في العقاب دون إمهال تقتضيه الحكمة التربوية، وأن يتجنب الطيش كلما ثارت في النفس ثائرة، وكلما تحرك في النفس دافع من الدوافع لتحقيق مطلب من المطالب، وأن يتجنب سرعة الغضب حينما يصطدم الإنسان بما يثير غضبه أو يخالف هواه"^(٢).

(١) انظر: ركائز دعوية من هدي النبي ﷺ في العلاقات الاجتماعية، د. عبدالمجيد

البيانوني، ط ١/ دار ابن حزم، بيروت: ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ١١٦.

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة

الميداني، مؤسسة الريان، بيروت، ط ٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ٣٩١.

المبحث الثاني

الرحمة وأثرها في الدعوة إلى الله

إن الرحمة مظهر من مظاهر سماحة الأخلاق في الإسلام، يقول أبو البقاء الكفوي: "الرحمة حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب وتكون مبدأً للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان"^(١).

والرحمة من صفات الله - عز وجل - ، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ لَئِنْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾^(٢).

ورحمة الله خير من كل شيء، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٣). ورحمة الله قريبة قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنْ أَلْمُحْسِنِينَ﴾^(٤)، ورحمة الله واسعة، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبَ الَّذِينَ يَنْفُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥)، والرحمة من صفات الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمْتَنِي اللَّهُ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ غَافِقًا غَلِيظًا لَلْأَلْبَابِ لَأَنْفَضُونَنِي مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾^(٦)، وجعل الله الرحمة من صفات النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٧).

(١) الكليات، أبو البقاء الكفوي ص ٣٧٦.

(٢) سورة الكهف، آية: ٥٨.

(٣) سورة الزخرف، من الآية: ٣٢.

(٤) سورة الأعراف، من الآية: ٥٦.

(٥) سورة الأعراف، من الآية: ١٥٦.

(٦) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٩.

(٧) سورة الفتح، من الآية: ٢٩.

قال ابن كثير: "يخبر الله تعالى عن محمد صلوات الله عليه أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب، وهو مشتمل على كل وصف جميل ثم ثنى بالثناء على أصحابه بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً برباً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن"^(١).

ولقد أوصى الله عباده المؤمنين بالرحمة فيما بينهم، قال تعالى:
﴿تَذَكَّرَانِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَقَوَّصُوا بِالضَّرِّ وَقَوَّصُوا بِالرِّحْمَةِ﴾^(٢).
وقد دلت أحاديث السنة النبوية على رحمة رسول الله ﷺ بأمته صغيرها وكبيرها.

فعن قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطولَ فيها، فأسمع بكاءَ الصبيِّ فأتجوَّزُ في صلاتي كراهيةَ أن أشقَّ على أمِّه)^(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ قط أشد غضباً في موعظة منه يومئذ. قال: فقال: (يا أيُّها الناسُ، إنَّ منكم مُنفرين، فمنَّ أمَّ الناسَ فليتجوَّزْ، فإنَّ خلفه الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجة)^(٤).

(١) تفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن كثير ٣٦٠/٧.

(٢) سورة البلد، الآية: ١٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الأذان، باب: الإيجاز في الصلاة وإكمالها، رقم ٧٠٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله، رقم

٦١١٠، وصحيح مسلم، كتاب: الصلاة، باب: أمر الأئمة بتخفيف الصلاة، رقم ٤٦٦.

إن غضب النبي ﷺ وإنكاره الإطالة في الصلاة وإلحاق المشقة بالمصلين دليل على رحمته ﷺ بالمدعويين؛ حيث أراد النبي ﷺ أن يؤكد للدعاة من بعده تأكيداً عملياً على أهمية الرحمة وأثرها على المدعويين، حتى إنه ﷺ كان يقوم للصلاة يريد إطالتها، ولكنه يتجاوز فيها لسماعه بكاء صبي، وكذلك غضبه لإطالة الصلاة مما يؤدي إلى التفتير، حتى أن بعض الناس يُصر على الإطالة في الصلاة ويعتبر ذلك أمراً لا بد منه، متغافلاً عن ظروف الناس وحاجاتهم وأحوالهم الصحية، إن السماحة والرحمة لها أثر عظيم في الدعوة إلى الله تعالى. ومما يدل على سماحة أخلاقه ﷺ ما جاء في هذا الحديث: فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدي على فخذه ويقعد الحسن بن علي على فخذه الآخر ثم يضمهما ثم يقول: (اللهم ارحمهما فإني أرحمهما)^(١).

وقال قتادة: (خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلى، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها)^(٢).

ومن سماحة أخلاقه ﷺ أنه كان يداعب الأطفال ويلطفهم، فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: (صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْأُولَى! ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ. فَاسْتَقْبَلَهُ وَلِدَانٌ. فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدِّي أَحَدِهِمْ

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: وضع الصبي على الفخذ، رقم ٦٠٠٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم ٥٩٩٦.

وَاحِدًا وَوَاحِدًا. قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي. قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَارٍ^(١) (٢).

قال النووي: "وفي مسحه ﷺ الصبيان بيان حسن خلقه ورحمته للأطفال وملاطفتهم"^(٣).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ. فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ. فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدْخِنُ. وَكَانَ ظَهْرُهُ قَيْنًا. فَيَأْخُذُهُ فَيَقْبَلُهُ. ثُمَّ يَرْجِعُ)^(٤).

ولقد أراد الله أن يمتن على العالم برجل يمسح آلامه، ويخفف أحزانه، ويرثى لخطاياهم، ويستमित في هدايته ويأخذ بناصر الضعيف، ويقاقل دونه قتال الأم عن صغارها. ويخضد شوكة القوي حتى يرده إنساناً سليم الفطرة لا يضرى ولا يطفى.. فأرسل محمداً عليه الصلاة والسلام وسكب في قلبه العلم والحلم، وفي خلقه من الإيناس والسماحة والبر، وفي طبعه من السهولة والرفق وفي يده من السخاوة والتندي ما جعله أزكى عباد الله رحمة، وأوسعهم عاطفة وأرحبهم صدراً^(٥).

(١) جؤنة عطار: هي السقط الذي فيه متاع العطار، انظر: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ص ١٤٢٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: طيب رائحة النبي ﷺ ولين مسه والتبرك بمسحه، رقم ٢٣٢٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ص ١٤٢٣.

(٤) صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، رقم ٢٣١٦.

(٥) خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالي ص ٢٠٤.

ولذلك قال الله تعالى فيه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُ قَدْرًا غَلِيظٌ الْقَلْبِ لَا نَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(١).

وقد لازمته هذه الفضائل العذبة في جميع حياته وحث أصحابه عليها وبيّن فضل ذلك، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ)^(٢).
وقال ﷺ: (لَا تُنْزِعُ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ)^(٣).

إن الرحمة صفة كريمة وعاطفة إنسانية نبيلة، تبعث على بذل المعروف وإغاثة الملهوف، وإعانة المحروم، وكف العسف والظلم، ومنع التعدي والبغي^(٤).

والرحمة لها أثر فاعل في مجال الدعوة إلى الله فعلى الدعاة إلى الله أن يكون تعاملهم مع المدعوين بالرحمة، يقول الشيخ السعدي: "إن الشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفروعها، وفي الأمر بأداء الحقوق سواء كانت لله أو للخلق، فإن الله لم يكلف نفساً إلا وسعها، وإذا تدبرت ما شرعه الله عز وجل في المعاملات والحقوق الزوجية وفي حقوق الوالدين والأقربين والجيران وسائر ما شرع وجدت

(١) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٩.

(٢) رواه الترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة الناس، رقم ١٩٢٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ص ٤٣٩، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: في الرحمة، رقم ٤٩٤١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ص ٧٤٠.

(٣) رواه الترمذي، كتاب: الأدب، باب: في رحمة الناس، رقم ١٩٢٣، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ص ٤٣٩.

(٤) دعوة الإسلام، الشيخ السيد سابق، ط ١/ دار الكتاب العربي: ١٩٧٣م، ص ١٧١.

ذلك كله مبنياً على الرحمة فلقد وسعت هذه الشريعة برحمتها وعدلها العدو والصديق، ولقد لجأ إلى حصنها الحصين الموفقون من الخلق"^(١).

وقال ابن حجر تعليقاً على حديث: (من لا يرحم لا يُرحم)^(٢)، قال ابن بطال: فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق فيدخل المؤمن والكافر، والبهائم والملوك وغيرها والملوك، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والسعي والتخفيف في الحمل وترك التعدي بالضرب، وقال ابن أبي جمرة: لا ينظر الله بعين الرحمة إلا لمن جعل في قلبه الرحمة ولو كان عمله صالحاً وينبغي للمرء أن يتفقد نفسه فما قصر فيه لجأ إلى الله تعالى في الإعانة عليه"^(٣).

هذا وقد نبه الله نبيه أن يتعامل مع الناس بالرحمة وهو إمام الدعاة وقدوتهم وأنه إذا استعمل الخشونة والشدة معهم تركوه ولم يجالسوه، قال تعالى: ﴿فَمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٤). "أي لست يا محمد فظاً في أقوالك ومخاطبتك للناس غليظ القلب عديم الرقة واللفظ والرحمة في واقع حالك الخلق"^(٥).

(١) الرياض الناضرة والحدائق النبوية الزاهرة، الشيخ عبدالرحمن السعدي ص ٦١، ٦٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، رقم ٦٠١٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٥٥/١٠.

(٤) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٩.

(٥) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، مؤسسة الريان، بيروت، ط ٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ٤٤٦، ٤٤٧.

قال السعدي: "أي: برحمة الله لك ولأصحابك من الله عليك أن أنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترفقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك، ولو كنت سييء الخلق قاسي القلب لانفضوا من حولك لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ، فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدنيا تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبها من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين، تنفر الناس عن الدين وتبغضهم إليه مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم ﷺ يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره أليس من أوجب الواجبات وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به ﷺ من اللين وحسن الخلق والتأليف، امثالاً لأمر الله وجذباً لعباد الله لدين الله"^(١).

ويقول الشيخ الميداني: "وفي هذه الآية ثناء من الله على رسوله ﷺ بأنه ليس فظاً ولا غليظ القلب، وفي هذا توجيه بصورة غير مباشرة لكل من يضطلع بمهمات الدعوة أسوة حسنة لهم، أن لا يكون فظاً سيئ الخلق شرساً، وأن لا يكون غليظ القلب قاسياً لرحمة عنده، فمن كان كذلك نفر عنه المتأثرون ببياناته الدينية وانفضوا من حوله، وصار مزهوداً فيه، وغير ذي تأثير في دعوته، فإن الفظ السيئ الخلق أو الغليظ القلب لا يصلح ابتداءً لأن يكون داعياً لأحد من غير المسلمين إلى دين الله، لأنه سينفره من الدين لأول بادرة سوء خلق وفضاظة يلاحظها فيه، ويجفوه إذا أدرك أنه غليظ القلب عديم

الرحمة جاف العواطف النبيلة، فلا يستمع إليه ولا يصغي إلى أقواله ونصائحه"^(١).

ويقول الشيخ السيد سابق: "والرحمة صفة كريمة وعاطفة إنسانية نبيلة، تبعث على بذل المعروف، وإغاثة الملهوف، وإعانة المحروم، وكف العسف والظلم، ومنع التعدي والبغي وقد أراد الإسلام أن يطبع الناس بها حتى تمتلئ قلوبهم خيراً وبراً وتفيض على الدنيا رجاءً وأملاً، إن طبيعة الإسلام سهلة سمحة رحيمة، وهو يريد أن يطبع النفوس بطابع الرحمة، وأن ينشئهم على هذه الفضيلة حتى ينعم الناس في ظلها الوارف، ويعيشوا في كنفها آمنين، وينزل عليهم سلام الله ورحمته وبركاته"^(٢).

(١) فقه الدعوة إلى الله تعالى، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ط/١

دار القلم، دمشق: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ١/١٩٧.

(٢) دعوة الإسلام، الشيخ السيد سابق، ط/١ دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٧٣م،

ص ١٧١.

المبحث الثالث

العدل وأثره في الدعوة إلى الله

إن من الأخلاق التي تدل على سماحة الإسلام العدل، قال الراغب في المفردات: "والعدل: العدالة والمعادلة لفظ يقتضي معنى المساواة، والعدل ضربان: مطلق يقتضي العقل حسنه، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخاً ولا يوصف بالاعتداء بوجه نحو الإحسان إلى من أحسن إليك، وكف الأذية عنك كف أذاه عنك، وعدل يعرف كونه عدلاً بالشرع، ويمكن أن يكون منسوخاً في بعض الأزمنة كالقصاص وأروش الجنایات، وأصل مال المرتد، والعدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير وإن شراً فشر"^(١).

وقال ابن حزم: "العدل هو أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه والعدل حصن يلجأ إليه كل خائف، وذلك أنك ترى الظالم وغير الظالم، إذا رأى من يريد ظلمه دعا إلى العدل وأنكر الظلم حينئذ وذمه ولا ترى أحداً يذم العدل فمن كان العدل في طبعه فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين"^(٢).

وقال الجرجاني: "العدل: الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط، والعدالة في الشريعة: عبارة عن الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب مما هو محظور ديناً"^(٣).

(١) المفردات في غريب القرآن، الإمام الراغب الأصفهاني، دون ذكر لتاريخ ورقم الطبعة، ص ٣٢٥.

(٢) مداواة النفوس، الإمام ابن حزم الأندلسي، ط/٢ دار الكتب العلمية، بيروت:

١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٧٨.

(٣) التعريفات، الجرجاني ص ١٥٣.

وقد دلت نصوص القرآن الكريم على أهمية العدل وفضله، وعلى ضرورة وجوده بين الناس ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعُظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١).

قال الإمام القاسمي: "والعدل هو القسط والتسوية في الحقوق فيما بينكم، وترك الظلم وإيصال كل ذي حق إلى حقه، وقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إن أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية، ولما تليت هذه الآية على أكثم بن صيفي قال لقومه: إنني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامتها فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذئاباً، والآية لما فيها من العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى صارت أجمع آية لاندراج ما ذكر فيها"^(٢).

وقال الطاهر بن عاشور: "والعدل إعطاء الحق إلى صاحبه وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية وحقوق المعاملات، إذ المسلم مأمور بالعدل في ذاته، ومأمور بالعدل في المعاملة وهي معاملة مع خالقه بالاعتراف له بصفاته وبأداء حقوقه، ومعاملة مع المخلوقات من أصول المعاشرة العائلية، والمخالطة الاجتماعية، وذلك في الأقوال والأفعال ومن هذا تفرعت شعب نظام المعاملات الاجتماعية من آداب وحقوق وأفضية وشهادات ومعاملة مع الأمم، ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة. فالعدل هنا كلمة مجملة جامعة وهي بإجمالها مناسبة إلى أحوال المسلمين حين كانوا

مجلة

الدراسات

الدعوية

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٢) محاسن التأويل، الشيخ جمال الدين القاسمي ١٥٠/١٠ - ١٥١.

بمكة فيصار فيها إلى ما هو مقرر بين الناس في أصول الشرائع، وما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوة والتناصح قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية^(١).

ومن آيات القرآن الكريم التي تحث على خلق العدل قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٢)

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾^(٣) وقوله جل شأنه: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْرِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾^(٤) وفي الأمر بالعدل قال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٥). إلى غير ذلك من نصوص القرآن الكريم التي تأمر بالعدل وتحث عليه. أمّا في السنة النبوية المطهرة فقد ذكر رسول الله ﷺ المسلم بأنه: (كُلَّ يَوْمٍ تَطَّلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ صَدَقَةً)^(٦).

وربط عدل الإنسان في الدنيا بمصيره في الآخرة حيث يوضع الميزان ويحاسب الناس بالقسطاس المستقيم فأخبر ﷺ أن الله قد خص أهل العدل في الدنيا بإعلاء شأنهم في الآخرة، وتقريبهم منه سبحانه كما في الحديث: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ، عِنْدَ اللَّهِ، عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ. عَنْ

(١) التحرير والتوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سخنون، تونس، بدون، ٢٥٥/١٤.

(٢) سورة النساء، من الآية: ٥٨.

(٣) سورة الأنعام، من الآية: ١٥٢.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٦) صحيح البخاري، كتاب: الصلح، باب: الإصلاح بين الناس، رقم ٢٧٠٧.

يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكَلَّمْنَا يَدَيْهِ يَمِينِ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَّوْا^(١).

والأمة المسلمة لا يشفع لها إسلامها في استحقاق التأييد من الله إذا كانت ظالمة، فمن أسباب التمكين في الأرض والتأييد من الله أن يحال دون تفشي المظالم وأن يعم العدل حياة المسلمين^(٢).

ولذلك قال ابن تيمية: "إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام"^(٣).

وقد بين الإسلام أن الجميع متساوون أمام قانون الكتاب والسنة، ولا بد من تنفيذه فيهم بدرجة واحدة من أدنى فرد في الدولة إلى القادة والحكام، وليس فيه موضع لمعاملة شخص ما معاملة مختلفة عن غيره وكما جاء في القرآن أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ لأن يعلن: ﴿وَأْمُرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾^(٤).

يعني: إنني مأمور بالإنصاف دون عداوة فليس من شأنني أن أتعصب لأحد أو ضد أحد، وعلاقتي بالناس كلهم سواء، وهي علاقة العدل والإنصاف، فأنا نصير من كان الحق ضده، وليس في ديني أي امتيازات لأي فرد كائناً من كان، وليس لأقاربي حقوق وللغرباء عندي حقوق أخرى ولا للأكابر عندي مميزات لا يحصل عليها

(١) صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل، رقم ١٨٧.

(٢) انظر: هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار ص ٢٣٤.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، وساعده ابنه محمد، ط/ وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة

والإرشاد: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ٢٨/١٤٦.

(٤) سورة الشورى، من الآية: ١٥.

الأصاغر، والشرفاء والوضعاء عندي سواء، فالحق حق للجميع، والذنب والجرم ذنب للجميع، والحرام حرام على الكل، والحلال حلال لكل والفرض فرض على الكل.

يقول رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ، تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ، أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَابْتِغَاءُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)^(١).
يقول عمر بن الخطاب ؓ: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْتَصُ مِنْ نَفْسِهِ)^(٢).

فالإسلام يدعو إلى العدل وذلك لأن العدل إذا وجد في المجتمع وجدت السماحة في الأخلاق والحرص على أن يأخذ الإنسان حقه ويعطي غيره حقه كاملاً، ومن ذلك ما ورد عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جِرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي. إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الْأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَغِ مِنْكَ الذَّهَبَ. وَقَالَ الَّذِي لَهُ الْأَرْضُ: إِنَّمَا بَعْتُكَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا. قَالَ: فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ. فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ. وَقَالَ الْآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ. قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلَامَ الْجَارِيَةَ. وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِكُمَا مِنْهُ، وَنَصَدَقَا)^(٣).

(١) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: منه ٥٤، رقم ٤٣٠٤، وصحيح مسلم،

كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، رقم ١٦٨٨.

(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لأبي الفرج بن الجوزي، ط/٢ دار الكتب

العلمية، بيروت: ١٤٠٢هـ/١٩٨١م، ص ٩٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ٥٤، رقم ٣٤٧٢، وصحيح مسلم،

كتاب: الأقضية، باب: استحباب إصلاح الحاكم بين الخصمين، رقم ١٧٢١.

وفي الوقت الذي يأمرنا فيه الإسلام بالتسامح والاعتدال، ينهانا عن التشدد والغلو، والنصوص الإسلامية التي تدعو إلى الاعتدال كثيرة، والواقع أن الذي ينظر في هذه النصوص يتبين بوضوح أن الإسلام ينفر أشد النفور من هذا الغلو، ويحذر منه أشد التحذير، إن إشاعة العدل بين الناس والعمل على ترسيخه في التعاملات الاجتماعية مما يؤكد على سماحة الإسلام وتأكيد على تحري العدل في سائر الأمور وبين الناس كافة فالعدل في الإسلام ليس مقصوراً على المسلمين فحسب بل إن الإسلام ليؤكد على أهمية العدل بين الناس جميعاً، وعلى عدم ظلم غير المسلمين، وتوخي العدل معهم، ولعل التاريخ قد سجل بأحرف من ذهب عدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى مع غير المسلمين مما كان له الأثر الكبير في نشر الإسلام في أصقاع الأرض، حيث كان عمر رضي الله عنه لا يتردد في العدل والإنصاف للناس وإن كانوا غير مسلمين، فقد أنصف القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص، وأمر القبطي أن يضرب ابن عمرو بن العاص، وقال له اضرب ابن الأكرمين ثم قال قولته المشهورة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً".

إن العدل بمفهومه الشامل الواسع من الأخلاق الهامة في الدعوة إلى الله - تعالى - لأنه يدل على سماحة الإسلام وبره وقسطه، وبالعدل ينطلق الدعاة إلى الله يبشرون الناس بدين الله، قال الإمام الماوردي: "إن مما تصلح به حال الدنيا قاعدة العدل الشامل الذي يدعو إلى الألفة ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتتمو به الأموال ويكبر معه النسل ويأمن به السلطان. وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور، لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي

مجلة
الدراسات
الدعوية

إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل، والعدل أمن عام تطمئن إليه النفوس وتنتشر فيه الهمم، ويسكن فيه البريء، يأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة، وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهناً عيش، والعدل أقوى جيش لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم والأمن من نتائج العدل، والجور من نتائج ما ليس بعدل^(١).

وبالعدل ينتشر الإسلام بين الناس فقد قال ربعي بن عامر رضي الله عنه لرسّتم قائد الفرس لما سأله ما جاء بكم؟ قال: "ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لنُدعُوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه حتى نفيء إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقى"^(٢).

والعدل من أركان الشريعة، ويستطيع الدعاة إلى الله من خلاله إبراز مقاصد الإسلام ومحاسن شريعته، يقول الإمام ابن القيم: "ومن له ذوق في الشريعة، وإطلاع على كمالاتها، وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ومجيئها بغاية العدل، الذي يفصل بين الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزاءها، وفرع من فروعها، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها وحسن فهمه فيها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة، فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، ط/٤ دار الكتب العلمية، بيروت:

١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ١٤٤.

(٢) البداية النهاية، ابن كثير ٤٠/٧.

فالشريعة تحرمها ، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر ، فهي من الشريعة علمها من علمها وجهلها من جهلها"^(١).

وفي أهمية العدل يقول الشيخ الميداني: "إن ميزان العدل يزن قيم الأشياء وقيم الأعمال بالاستناد إلى قواعد الحق فمتى تساوت كفتا الميزان استقامت إشارة العدل، إن العدل عمل شديد الدقة يحتاج إلى بصر نافذ ومهارة فائقة وخبرة بالأشياء والأعمال، ومعرفة بقيمتها الذاتية، وإلا اختل ميزان العدل وجار، وجنح صاحبه إلى ظلم كبير شنيع وقد نهت نصوص الشريعة الإسلامية على ارتباط ميزان العدل بمقاييس الحق ولما كان العدل أحد فروع خلق حب الحق وإيثاره، وأثراً تطبيقياً من آثاره كان لا بد أن نجد الذين يحبون الحق ويؤثرونه قوماً متصفين بخلق العدل فأهل الإيمان الصادقين أهل عدل فإيمانهم به يدفعهم إلى إقامة العدل والحكم بالعدل والشهادة بالعدل ومعاملة الناس بالعدل والقول بالعدل والكتابة بالعدل إلى غير ذلك مما يدخل فيه العدل والجور"^(٢).

وإذا كان من سماحة الأخلاق في الإسلام العدل بين الناس، وإشاعة هذا الخلق العظيم، فإن الإسلام ينهى عن الغلو والتجاوز في الأمور، لاسيما في أمور الدين لأن الغلو يؤدي إلى عواقب وخيمة تؤدي إلى النفور من الدين، ويؤدي إلى عقبات كبيرة في طريق الدعوة إلى الله تعالى.

وحسبنا أن نقرأ هذه الأحاديث الكريمة لنعلم إلى أي حد ينهى الإسلام عن الغلو ويخوف من مغبته، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد

القمي، دون تاريخ ورقم للطبعة، دار الوطن، ص ٤ - ٥.

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٢٦٥.

قال: (إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ)^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ)، قَالَهَا ثَلَاثًا^(٢)، والمتنطعون هم: المتعمقون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم، المتعصبون غير المتسامحين.

ومن أجل ذلك قاوم النبي صلى الله عليه وسلم كل اتجاه ينزع إلى الغلو في الدين، وأنكر على من بالغ من أصحابه في التعبد والتقشف، مبالغة تخرجه عن حد الاعتدال الذي جاء به الإسلام، ووزان به بين الروحية والمادية، ووفق بفضلته بين الدين والدنيا، وبين حظ النفس من الحياة وحق الرب في العبادة التي خلق لها الإنسان^(٣).

(١) سنن ابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: قدر حصى الرمي، رقم ٢٠٢٩، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ص ٥١٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون، رقم ٢٦٧٠.

(٣) انظر: الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي، ط/٤ مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٢٤ - ٢٧.

المبحث الرابع

الرفق وأثره في الدعوة إلى الله

إن من مظاهر سماحة الأخلاق في الإسلام أن يكون الإنسان رقيقاً في أحواله كلها، فالرفق مظهر من مظاهر سماحة الخلق، قال ابن الأثير: "والرفق: لين الجانب وهو خلاف العنف ومنه اللطف، ويقال: الله رقيق بعباده من الرفق والرأفة"^(١).

وقال أبو حامد الغزالي: "أعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، لا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال ولأجل هذا أتى رسول الله ﷺ على الرفق، قال سفيان الثوري لأصحابه: أتدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد، قال: أن تضع الأمور في مواضعها: الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه، وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى
فالمحمود وسط بين العنف واللين كما جاء في سائر الأخلاق"^(٢).

هذا وقد دل القرآن الكريم على أهمية الرفق وضرورته، قال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمْتُمْ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْ اللَّهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣) فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴿٣﴾.

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٣٦٨.

(٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٣/ ١٨٤، ١٨٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

وأمر الله موسى ﷺ وأخاه هارون أن يخاطبا فرعون برفق ولين، قال الله تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّسَانًا لَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ (١).

هذا وقد دلت نصوص السنة النبوية على فضل الرفق وأهميته في حياة المسلم، فعن عائشة عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ) (٢).

والرفق مما يحبه الله عز وجل، فقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ. وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ) (٣).

والرفق كله خير، فقد جاء في الحديث: (مَنْ يُحْرَمِ الرَّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ) (٤).

وبين ﷺ أن وجود الرفق والسماحة في قوم دليل على أن الله تعالى أراد بهم خيراً. فقد روى البزار عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ خَيْرًا أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرَّفْقَ) (٥).

ودعا النبي الكريم ﷺ لمن رفق بأمته، فقد جاء في صحيح مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ. فَاشْتَقُّ عَلَيْهِ. وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَّقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ) (٦).

(١) سورة طه، الآيتان: ٤٣ - ٤٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق، رقم ٢٥٩٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق، رقم ٢٥٩٣.

(٤) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق، رقم ٢٥٩٥.

(٥) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب: الأدب، باب: في الرفق ١٩/٨، وقال الحافظ البيهقي: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح ١٩/٨.

(٦) صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم ١٨٢٨.

وتتجلى مظاهر السماحة واللين من خلال نهى النبي ﷺ عن ضرب الأكل بسبب الجوع والجهل من بستان غيره بغير إذنه وأخذ ثوبه فقد روى ابن ماجه عن عباد بن شرحبيل - رجل من بني غبر - قال: أَصَابْنَا عَامٌ مَخْمَصَةٌ. فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ. فَأَتَيْتُ حَائِطًا مِنْ حَيْطَانِهَا. فَأَخَذْتُ سُنْبُلًا ففَرَكَتُهُ وَأَكَلْتُهُ وَجَعَلْتُهُ فِي كِسَائِي. فَجَاءَ صَاحِبُ الْحَائِطِ. فَضَرَبَنِي وَأَخَذَ ثُوبِي. فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ فَأَخْبَرْتُهُ. فَقَالَ لِلرَّجُلِ: (مَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا أَوْ سَاعِيًا. وَلَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا) فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ فَرَدَّ إِلَيْهِ ثُوبَهُ. وَأَمَرَ لَهُ بِوَسْقٍ مِنْ طَعَامٍ أَوْ نِصْفِ وَسْقٍ^(١).

ومن مظاهر الرفق والشفقة السماحة في تعليم الصغير، فقد روى مسلم عن عمر بن أبي سلمة ﷺ يقول: كُنْتُ فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ. وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ. فَقَالَ لِي: (يَا غُلَامُ سَمَّ اللَّهُ. وَكُلْ بِيَمِينِكَ. وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ)^(٢).

وفي رواية لأبي داود أنه ﷺ قال له: (ادْنُ يَا بُنَيَّ، وَسَمَّ اللَّهُ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ)^(٣).

ولا تقتصر مظاهر الرفق والسماحة على المتعلمين فحسب، ولكنها تشمل الرفق مع المبتدئ والسماحة معه فعندما بعث النبي ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل ﷺ إلى اليمن كان أول ما أوصاهما به أن: (يَسْرًا وَلَا تُعْسِرًا، وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرًا، وَتَطَاوَعًا وَلَا تَخْتَلِفَا)^(٤).

(١) سنن ابن ماجه، كتاب: التجارات، باب: من مرَّ على ماشية قوم أو حائط هل يصيب منه، رقم ٢٣١٩، ٢٥/٢ المطبوع بتحقيق: د. الأعظمي، وقال عنه الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه رقم ١٨٦١ ٣١/٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الأشربة، باب: آداب الطعام والشراب، رقم ٢٠٢٢.

(٣) سنن أبي داود، كتاب: الأطعمة، باب: الأكل باليمين، رقم ٣٧٧٧، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٥٧٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: قول النبي ﷺ: (يسروا ولا تعسروا)، رقم ٦١٢٤.

قال ابن حجر: "والمراد تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه في الابتداء، وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف ليقبل، وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدرج لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حُب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالباً بالازدياد بخلاف ضده"^(١).

ومن الصور العملية التي فعلها النبي ﷺ لتعليم أصحابه كيف يكون الرفق مع المبتدئ ما جاء عن معاوية بن الحكم الأسلمي قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ. فَقُلْتُ: وَأَتَكُلُّ أُمِّيَاهُ! مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ. فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَازِهِمْ، رَأَيْتُهُمْ يُصَمْتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَبَأَيْبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي. قَالَ: (إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ. إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ)^(٢).

هذا ولم تكن السماحة والرفق قاصرة على الصغير، ولا على المبتدئ، إنما تشمل كذلك الرفق بالحيوان، فعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: (بيننا رجلٌ يمشي فاشتدَّ عليه العطشُ، فنزلَ بئراً فشربَ منها، ثمَّ خرجَ فإذا هو بكلِّبٍ يلهثُ يأكلُ الثرى من العطشِ، فقال: لقد بلغَ هذا مثلُ الذي بلغَ بي. فملاً خُفَّهُ ثمَّ أمسكهُ بفيه، ثمَّ

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/١٦٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة،

رَقِي فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: في كلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ^(١).

قال ابن حجر: "وفيه الحث على الإحسان لأنه إذا حصلت المغفرة بسبب سقي الكلب فسقى المسلم أعظم أجراً"^(٢).

إن الرفق في الدعوة إلى الله تعالى يؤدي إلى توثيق العلاقة بين الداعية والمدعومين لأن نفوس الناس لا تُساس إلا بالرفق، ولا يتأتى التأثير على المدعو إلا من خلال التلطف معه، ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، حيث كان ﷺ قدوة في الرفق في تعليمه للجاهل وتوجيهه المخطئ باللين وعدم تجريحه مما يحافظ على مشاعره، ويؤدي إلى كسبه واستقطابه واستجابته لتوجيهات الداعية.

يقول الشيخ الميداني: "وأولى الناس بالتخلق بخلق الرفق الدعاة إلى الله والمعلمون، فالدعوة إلى الله لا تؤثر ما لم تقترن بخلق الرفق في دعوة الخلق إلى الحق، وتعليم الناس لا يؤتي ثمراته الطيبات ما لم يقترن بخلق الرفق الذي يملك القلوب بالمحبة أما العنف فمن شأنه التنفير من الداعي، والتنفير من المعلم، إن من توجه له الدعوة إلى الخير أو يراد تعليمه متى وجد العنف والشدة انكشفت عاطفته فانغلق قلبه ومتى انغلق قلبه انغلق فكره، وعندئذ يصير كصخرة صماء ترجع ولا تمتص بخلاف الداعي أو المعلم الرفيق الحليم ذي الأناة، فإنه يملك القلوب بالمحبة وعندئذ تفتتح له القلوب التي أحبته،

(١) صحيح البخاري، كتاب: المساقاة، باب: فضل سقي الماء، رقم ٢٣٦٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤٢/٥.

ومتى انفتحت إليه الأفكار، وتأثرت به وتفاعلت معه آتت دعوته وأعماله ثمراتها طيبة يانعة"^(١).

إن الهدف الرئيس للداعية هو أن يستقيم المدعوون على طاعة الله، ويحرصوا على الطاعات ويتجنبوا المنكرات ولكي يتحقق له ذلك فلا بد من الرفق في الدعوة حتى يصل إلى هدفه المنشود.

"إن الداعية يواجه صنوفاً شتى من الناس وأخلاقاً متنوعة من فئات المجتمع ولكي ينجح الداعية في التعامل مع شتى الطبقات، وتحت كافة الظروف فلا بد من التحلي بالرفق في الدعوة إلى الله وأن يتصف - في تعامله - بلين الجانب وسهولة المعاشرة حتى يفتح - لدعوته - مغاليق القلوب، وينفذ - بنصحه - إلى أعماق النفوس ومن هنا كان اتصاف الداعية بالرفق والتيسير في دعوته إلى الله شيئاً أساسياً في سلوكه إذا أراد السداد والصواب، وتوضح أهمية الرفق في حياة الدعاة باعتبار أن الداعية يبغى بدعوته هداية الناس إلى طاعة الله، واستتقاذهم مما يسخطه ويفضبه، وليس الأمر - بالنسبة له - مجرد أداء الواجب لتقوم الحجة على الناس فقط ولا يتسنى للداعية أن يقوم بهذه الوظيفة إلا إذا اتصف بالحلم وطول النفس والتزم الرفق ولين الجانب"^(٢).

ولا شك أن سلوك طريق الرفق في الدعوة هو سبيل الأنبياء عليهم السلام، "إن الطريق الأمثل الذي سلكه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو

(١) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ص ٣٩٩، ٤٠٠.

(٢) أخلاق الدعاة إلى الله تعالى "النظرية والتطبيق"، د. طلعت محمد عفيفي سالم، الدراسات الدعوية ط/ دار عالم الكتب، الرياض: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ١٨٥.

الدعوة إلى الله تعالى في أول الأمر بالرفق واللين والحكمة والموعظة الحسنة الذي يشعر المدعو والمأمور والمنهي بأنك مشفق عليه وتحب له الخير حتى تفتح لك نفسه ويستجيب للدعوة والأمر والنهي، فإن الناس في حاجة إلى كنف رحيم إلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة وإلى ود يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج إلى عطاء فعلى الداعي أن يكون هيناً عطوفاً مشفقاً على الناس^(١).

وتتسع صورة الرفق لتشمل الرفق في أخذ الدين حتى يقدم الداعية صورة معتدلة للتدين الحق، "إن الرفق في أخذ الدين هو العامل الرئيس في تكوين صورة متزنة عند الداعية المسلم وإن صورة الاتزان هذه تكمن في التعامل مع الفطرة وعدم معارضتها بما لا تطيق، وإنه ما من مسلم يأخذ هذا الدين بصورة غير طبيعية بها نوع من العنف مع نفسه وفطرته إلا نتج عنه انحراف عن المنهج الرباني الصحيح.. وهناك نتيجة أخرى وهي: التوقوع واعتزال الناس وهو مرض نفسي ناتج من الأخذ غير المتزن؛ فالمطلوب في هذا الدين الرفق في أخذ أحكامه، والرفق في تطبيقها وليست الشدة في أخذ هذا الدين وترك الرفق من التقوى"^(٢).

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة، د. عبدالعزيز أحمد

المسعود ١/١٨٥.

(٢) المصطفى من صفات الدعاة، عبدالحميد البلالي، ط/١ مكتبة المنار الإسلامية،

الكويت: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٤٨، ٤٩.

المبحث الخامس العفو وأثره في الدعوة إلى الله

إن من سماحة الأخلاق في الإسلام أن يعفو الإنسان عن الآخرين ويسامحهم ويتجاوز عنهم، قال الكفوي: "العفو: كف الضرر مع القدرة عليه وكل من استحق عقوبة فتركها فهذا الترك عفو، والعفو عن الذنب يصح رجوعه إلى ترك ما يستحقه المذنب من العقوبة، وإلى محو الذنب وإلى الإعراض عن المؤاخظة كما يعرض المرء عما يسهل على النفس بذله"^(١).

وقال الراغب: "والعفو: القصد لتناول الشيء، والعفو هو التجايف عن الذنب، وتعاطي العفو عن الناس"^(٢).

وقال ابن الأثير: "العفو من أسماء الله تعالى وهو فعول من العفو وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه وأصله المحو والطمس، وهو من أبنية المبالغة"^(٣).

وقال الطيبي رحمه الله: "العفو يمحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي، وهو أبلغ من الغفور لأن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو وأصل العفو: القصد لتناول الشيء، سمي به المحو؛ لأنه قصد لإزالة الممحو وحفظ العبد منه ظاهر، قال الشيخ أبو القاسم: من عرف أنه تعالى عفو، طلب عفوه، ومن طلب عفوه تجاوز عن خلقه فإن الله تعالى بذلك أدبهم وإليه نديهم وإن الكريم إذا عفا حفظ قلب المسيء عن الاستيحاش بتذكيره سوء فعله بل يزيل عنه تلك الخجلة

(١) الكليات، لأبي البقاء الكفوي ص ٦٣٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٣٣٩.

(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ص ٦٢٧.

بما يسبل عليه من ثوب العفو، ويفيض عليه من ذيول الصفح، وعفو الله تعالى عن العباد ليس مما يستقصى بالعبارات كنهه معانيه^(١). وقد أخبر القرآن الكريم أن العفو من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ﴾^(٣)، وجعل الله العفو من صفات المتقين قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّيْفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(٥).

قال السعدي رحمه الله: "ومن أوصاف المتقين أنهم إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم فإنهم لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم، ويدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذه مع السماح عن المسيء وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه ويكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقير"^(٥).

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الطيبي ٥/٥٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٩.

(٣) سورة المجادلة، من الآية: ٢.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٣ - ١٣٤.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبدالرحمن السعدي ص ١١٦.

وقد أمر الله نبيه بالصفح والعتو، قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(١)، وقال جلّ شأنه: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣)، وقال جلّ شأنه: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْحَمِيلَ﴾^(٤)، وبين الله سبحانه عاقبة العفو والصفح فقال جلّ شأنه: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٥)، وبين الله تعالى أن ثواب وأجر الذي يعفو على الله فقال عز من قائل: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٦)، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٧)، وقال سبحانه: ﴿وَأَنْ تَعَفُّوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾^(٨)، ولقد كان من دعاء المؤمنين طلب العفو من الله قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٩).

(١) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٩.

(٢) سورة المائدة، من الآية: ١٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٤) سورة الحجر، من الآية: ٨٥.

(٥) سورة النور، من الآية: ٢٢.

(٦) سورة الشورى، من الآية: ٤٠.

(٧) سورة التغابن، من الآية: ١٤.

(٨) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٧.

(٩) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

وهذه النصوص جميعها تدل على التأكيد على خلق العفو والذي يدل بدوره على سماحة الأخلاق في الإسلام وكذلك أيضاً قد حثت السنة النبوية على العفو والمسامحة فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الربيع - وهي ابنة النضر - كسرت ثنيةً جاريةً، فطلبوا الأرش وطلبوا العفو، فأبوا. فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثيتها، فقال: (يا أنس كتاب الله القصاص. فرضي القوم وعفوا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره)^(١).

ومن سماحة الأخلاق العفو عن المسيء فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم (ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة فذكية، وأردف وراءه أسامة بن زيد وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث من الخزرج - وذلك قبل وقعة بدر - حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة. فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة حمّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا. فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء لا أحسن من هذا إن كان ما تقول حقاً، فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك فمن جاءك منّا فاقصص عليه، فقال ابن رواحة: اغشنا في مجالسنا فإننا نحب ذلك. فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا، فلم يزل

(١) صحيح البخاري، كتاب: الصلح، باب: الصلح في الدية، رقم ٢٧٠٢، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب: القسامة، باب: إثبات القصاص في الأسنان، رقم ١٦٧٥.

النبي ﷺ يُخفّضهم، ثم ركب دابّته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال: أي سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا. قال: اعفُ عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة^(١) على أن يتوجّوه فيعصبونه بالعصاة، فلما ردّ الله ذلك بالحقّ الذي أعطاك شرّق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه النبي ﷺ^(٢).

وفي الحث على العفو جاء عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إنّ الأنصار كرشى وعيبيتي^(٣)). وإنّ الناس سيكفرون ويقلون. فأقبلوا من محسنهم وأعفوا عن مسيئهم^(٤).

وفي مسامحة الخادم والعفو جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كم نefو عن الخادم؟ فصمت،

(١) أهل هذه البحيرة: هي القرية والمراد بها مدينة النبي ﷺ، انظر: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ص ١١٦٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الاستئذان، باب: التسليم على مجلس فيه أخلاط، رقم ٦٢٤٥، وصحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي وصبره على أذى المنافقين، رقم ١٧٩٨.

(٣) الأنصار كرشى وعيبيتي: قال العلماء معناه: جماعتي وخاصتي الذين أثق بهم وأعتمدهم في أموري، قال الخطابي: ضرب مثلاً بالكركش لأنه مستقر غذاء الحيوان الذي يكون به بقاؤه، والعيبة: وعاء معروف أكبر من المخلاة يحفظ الإنسان فيها ثيابه وفاخر متاعه ويصونها ضربها مثلاً، لأنهم سره وخفي أحواله، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ص ١٥١٥.

(٤) صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل الأنصار، رقم ٢٥١٠.

ثم أعاد إليه الكلام، فصمت فلما كان في الثالثة قال: (اعْفُو عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً)^(١).

وحدث رسول الله ﷺ على السماحة والعفو، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا تَقَصَّتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا. وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ)^(٢).

وعلم النبي ﷺ أصحابه فضل سماحة الخلق والعفو والغفران، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنتُ جالساً عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر أخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: أما صاحبكم فقد غامر، فسلم وقال: يا رسول الله، إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعتُ إليه ثم ندمتُ، فسألته أن يغفر لي فأبى علي، فأقبلتُ إليك. فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر (ثلاثاً). ثم إنَّ عمرَ ندم، فأتى منزلَ أبي بكر فسأل: أثمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتى إلى النبي ﷺ، فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر^(٣)، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنتُ أظلم (مرتين). فقال النبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذِبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:

(١) سنن أبي داود، كتاب: الأدب، باب: في حق المملوك، رقم ٥١٦٤، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ص ٧٧٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب العفو والتواضع،

رقم ٢٥٨٨.

(٣) يتمعر: أي يحمر من الغضب، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٦٦٠/٢.

صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركولي صاحبي؟ (مرتين).
فما أؤذي بعدها^(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو على المنبر: (ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ، وَيَلْ لَأَقْمَاعِ الْقَوْلِ^(٢)، وَيَلْ لِلْمُصْرِينِ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)^(٣).

ولقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم السماحة والعضو عمن يسيء إليه، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»)^(٤).

ومن سماحة خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء عن عائشة قالت: (مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ. وَلَا امْرَأَةً. وَلَا خَادِمًا. إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ. فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ. إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ. فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)^(٥).

ومن نماذج توجيه النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم إلى السماحة والعضو ما جاء عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: كُنْتُ أُضْرِبُ غُلَامًا لِي، فَسَمِعْتُ مِنْ

(١) صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لو كنت متخذاً خليلاً))، رقم ٣٦٦١.

(٢) لأقماع القول: الأقماع جمع قمع وهو ما يوضع في قم الإناء إذا صب فيه دهن أو غيره، وفي قم القرية إذا صب فيه الماء، وقد شبه الذين يستمعون القول ولا يعونهُ بالأقماع التي لا تمسك شيئاً مما يفرغ فيها، الموسوعة الحديثية ٩٩/١١.

(٣) رواه أحمد في المسند ١٦٥/٢ رقم ٦٥٤١، وقال محققو المسند: إسناده حسن، انظر: الموسوعة الحديثية، ٩٩/١١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب: استتابة المرتدين، باب: منه رقم ٥، رقم ٦٩٢٩، وصحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، رقم ١٧٩٢.

(٥) صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: مباحثته صلى الله عليه وسلم للأثام، رقم ٢٢٢٨.

خَلْفِي صَوْتًا (اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ! لِلَّهِ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ) فَالْتَفَتَ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لِيُوجِهَ اللَّهُ، فَقَالَ: (أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلْفَحْتِكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسْتِكَ النَّارُ)^(١).

ولخلق العفو أثر فاعل في الدعوة إلى الله تعالى فإن السماحة والصفح والعفو تحبب المدعوين، وتقربهم من الداعية، "لأن من فوائد سماحة النفس والعفو أن الإنسان من خلالها يستطيع أن يظفر بأكبر قسط من محبة الناس له، وثقة الناس به، لأنه يعاملهم بالسماحة والبشر ولين الجانب والتغاضي عن السيئات والنقائص فإذا دعاه الواجب إلى تقديم النصح كان في نصحه رفيقاً ليناً، سمحاً هيناً يسر بالنصيحة ولا يريد الفضيحة يسد الثغرات، ولا ينشر الزلات والعثرات، ويعامل الناس بالعفو والسماحة في الأمور المادية، ويجلب سمح النفس الهين لنفسه الخير الدنيوي بتسامحه، وذلك لأن الناس يحبون المتسامح الهين اللين، فيميلون إلى التعامل معه، فيكثر عليه الخير بكثرة محبيه والواثقين به ويجلب سمح النفس الهين اللين لنفسه رضا الله تعالى والخير الأخروي العظيم ما ابتغى بسماحته رضوان الله عز وجل"^(٢).

قال الماوردي: "وأما العفو والمسامحة في الأحوال فهي إطراح المنازعة في الرتب، وترك المنافسة في التقدم، فإن مشاحة النفوس فيها أعظم، والعناد عليها أكثر، فإن سامح فيها ولم ينافس كان مع أخذه بأفضل الأخلاق، واستعماله لأحسن الآداب أوقع في النفوس من إفضاله برغائب الأموال ثم هو أزيد في رتبته، وأبلغ في تقدمه وإن شاح

(١) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: صحة الممايك، رقم ١٦٥٩.

(٢) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني

فيها ونازع كان مع ارتكابه لأخشن الأخلاق، واستعماله لأهجن الآداب، أنكى في النفوس من حد السيف وطعن السنان، ثم هو أخفض للمرتبة وأمنع من التقدم"^(١).

وعن أثر العفو وبيان ذلك يقول الشيخ السيد سابق: "وفي التعويض الذي أعده الله للعافين عن الناس شفاء للنفس وتفرغ للغيظ وإن ذلك أجدى على الإنسان وأحسن عاقبة ولا تستوي الحسنة ولا السيئة في ميزان الحق، إذ السيئة سيئة في قدر الله وفي عرف الناس، والحسنة حسنة في قدر الله وعند الناس كذلك، وإن لكل منهما نتائج في واقع الحياة وإذا كان ذلك كذلك فلا معدي عن ما هو من شأنه أن يجمع القلوب ويربط الصلات وليست ثمة أبلغ من حسنة تقدم إلى المسيء فهي تذكره بالإنسانية التي مجدها من جانب، وتعيده إلى مودة أخيه من جانب آخر فطالما استعبد الإنسان إحسان وهذا معنى لا يظفر به إلا الذين زكت نفوسهم، وسمت أرواحهم فكانوا حكماء يعرفون للخير مواضعه، وللشر مواضعه كذلك"^(٢).

ومن خلال ما سبق تتضح أهمية خلق العفو في الدعوة إلى الله إذ يقطع دابر الشحناء بين الداعية والمدعو وفيما بين الناس فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُدَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحَرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عَمْرٌ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عَمْرٍ وَمَشَاوِرَتِهِ كَهَوْلًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا. فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَاسْتَأْذَنَ الْحَرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأْذَنَ لَهُ

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) دعوة الإسلام، الشيخ السيد سابق ص ١٥٠.

عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تُعطينا الجزل، ولا تحكّم بيننا بالعدل. فغضبَ عمرُ حتى همَّ به، فقال له الحرّ: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١) وإنّ هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله^(٢).

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن

الجاهلين، رقم ٤٦٤٢.

المبحث السادس الإحسان وأثره في الدعوة إلى الله

إن من مظاهر سماحة الأخلاق في الإسلام الإحسان، قال الراغب الأصفهاني: "وَالْإِحْسَانُ يُقَالُ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا الْإِنْعَامُ عَلَى الْغَيْرِ يُقَالُ أَحْسَنَ إِلَى فُلَانٍ، وَالثَّانِي إِحْسَانٌ فِي فِعْلِهِ وَذَلِكَ إِذَا عَلِمَ عِلْمًا حَسَنًا أَوْ عَمِلَ عَمَلًا حَسَنًا وَعَلَى هَذَا قَوْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: (النَّاسُ أَبْنَاءُ مَا يُحْسِنُونَ) أَي مَنَسُوبُونَ إِلَى مَا يَعْلَمُونَ وَمَا يَعْمَلُونَ مِنَ الْأَفْعَالِ الْحَسَنَةِ، وَالْإِحْسَانُ أَعَمُّ مِنَ الْإِنْعَامِ، فَالْإِحْسَانُ فَوْقَ الْعَدْلِ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ هُوَ أَنْ يَقْتَصِرَ فِي أَنْ يُعْطِيَ مَا عَلَيْهِ وَيَأْخُذَ مَالَهُ، وَفِي هَذَا نَوْعٌ مِنَ السَّمَاةِ لِكَوْنِهِ لَمْ يَتَجَاوَزْ فِي حَقِّ الْغَيْرِ، بَيْنَمَا الْإِحْسَانُ أَنْ يُعْطِيَ أَكْثَرَ مِمَّا عَلَيْهِ وَيَأْخُذَ أَقْلَ مِمَّا لَهُ، فَالْإِحْسَانُ زَائِدٌ عَلَى الْعَدْلِ فَتَحَرَّى الْعَدْلَ وَاجِبٌ وَتَحَرَّى الْإِحْسَانَ نَدْبٌ وَتَطَوُّعٌ"^(١).

وقال أبو البقاء الكفوي: "والإحسان هو فعل ما ينفع غيره بحيث يصير الغير حسناً به، كإطعام الجائع أو يصير الفاعل به حسناً بنفسه، والإحسان أعم من الإنعام، والإحسان هو أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل لأن العدل أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع"^(٢). والإحسان مظهر من مظاهر سماحة الأخلاق في الإسلام وقد حثت نصوص القرآن الكريم على فضل الإحسان وأهميته وبين الله

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ط/ دار المعرفة، بيروت، دون ذكر لرقم وتاريخ الطبعة، ص ١١٩.

(٢) الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري ص ٥٢.

تعالى أنه يحب المحسنين قال سبحانه: ﴿ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)،
 وقال جلّ شأنه: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)، وأخبر سبحانه أنه مع
 المحسنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾^(٣)،
 وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤)،
 ورحمة الله سبحانه قريبة منهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ
 الْمُحْسِنِينَ﴾^(٥)، والمحسن لا يضيع أجره عند الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ
 لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ﴾^(٧)، وقال سبحانه: ﴿تُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ﴾^(٨)، وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُ، مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
 أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٩)، والإحسان جزاؤه الإحسان، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ
 الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾^(١٠).

(١) سورة المائدة، من الآية: ٩٣.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١٩٥.

(٣) سورة النحل، من الآية: ١٢٨.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٥) سورة الأعراف، من الآية: ٥٦.

(٦) سورة التوبة، من الآية: ١٢٠.

(٧) سورة هود، الآية: ١١٥.

(٨) سورة يوسف، من الآية: ٥٦.

(٩) سورة يوسف، من الآية: ٩٠.

(١٠) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

قال ابن كثير: "أي: لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة"^(١).

والإحسان مما أمر الله به في القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾^(٢).

والإحسان من صفات المتقين الذين وعدهم الله بمغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(٤).

يقول الشيخ السعدي: "والإحسان في عبادة الخالق هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأما الإحسان إلى المخلوق فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم والسعي في جمع كلمتهم وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم على اختلاف أحوالهم، وتباين صفاتهم. ويدخل في ذلك بذل الندي وكف الأذى واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله وحق عبده"^(٥).

ومما هو معلوم "أن الإحسان ينتظم معنيين، أحدهما: الإتيان والإجادة والثاني: الإنعام على الغير، والإسلام دعا إلى الإحسان وندب

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/٧٠٥.

(٢) سورة النحل، من الآية: ٩٠.

(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١٢٢ - ١٢٤.

(٤) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي ص ١١٦.

إليه لأن ممارسته هي أنجح الوسائل لتثبيت الفضائل، وتعميق جذورها في النفس، وليرتفع بالمستوى الإنساني بصرف القوي في ترقية الحياة، وإفاضة البر على من هم في حاجة إلى البر والرحمة فالمحسنون في نظر الإسلام أحباب الله يكلؤهم بعنايته ورحمته لا تفارقهم طرفة عين، وصلة الإنسان بالله مهما عظمت لا يعترف بها إلا إذا صحبها الإحسان، والإحسان يتناول كل شأن من الشؤون وينتظم كل عمل من الأعمال"^(١).

وإذا كان القرآن الكريم قد حث على خلق الإحسان ودعا إليه وأمر به فإن السنة النبوية المطهرة بينت أن الإحسان مرتبة أعلى من الإيمان ففي حديث جبريل ﷺ الطويل مع النبي ﷺ وسؤاله عن الإحسان قال: (فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٢)).

قال ابن رجب الحنبلي: "يشير إلى أن العبد يعبد الله على هذه الصفة وهي استحضار قربه وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب أيضاً النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإكمالها، وقوله: (فإن كنت لا تراه فإنه يراك)، قيل: إنه تعليل للأول فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله في العبادة واستحضار قربه فإنه قد يشق ذلك عليه فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه"^(٣).

(١) انظر: إسلامنا، الشيخ السيد سابق، دار الكتاب العربي، دون ذكر لتاريخ ورقم الطبعة، ص ١٥٠ - ١٥١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإسلام والإيمان والإحسان، رقم ٨.
(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ط/٩ دارة الملك عبدالعزيز، الرياض: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ١/١٢٨ - ١٢٩.

ويبلغ الإسلام حداً لم يبلغه دين آخر في السماحة والإحسان فيأمر به حتى في القتل والذبح فعن أبي يعلى شداد بن أوس عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ. وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ. وَلْيُجِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ. وَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ)^(١).

قال ابن رجب الحنبلي: "ولفظ الكتابة يقتضي الوجوب عند أكثر الفقهاء والأصوليين خلافاً لبعضهم، واستعمل القرآن لفظ الكتاب فيما هو واجب حتم كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾^(٢)، أو فيما هو واقع قدراً لا محالة كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي﴾^(٣)، وحينئذ فهذا الحديث نص في وجوب الإحسان، وهذا الأمر بالإحسان يكون للوجوب كالإحسان إلى الوالدين والأرحام بمقدار ما يحصل به البر والصلة، والإحسان إلى الضيف بقدر ما يحصل به قراه، وتارة يكون للندب كصدقة التطوع ونحوها. وهذا الحديث يدل على وجوب الإحسان في كل شيء من الأعمال وإحسان كل شيء بحسبه"^(٤).

وإذا كان الإحسان من سماحة الأخلاق فإن للإحسان صوراً كثيرة منها الإحسان إلى الوالدين: ويكون في حياتهما وبعد موتهما فيكون في حياتهما ببرهما وطاعتهما في المعروف والإنفاق عليهما وعدم الضجر منهما، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٥)،

(١) صحيح مسلم، كتاب: الصيد والذبائح، باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل، رقم ١٩٥٥.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١٨٢.

(٣) سورة المجادلة، من الآية: ٢١.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ٢٨٢/١.

(٥) سورة النساء، من الآية: ٣٦.

وقال جلّ شأنه: ﴿قُلْ تَكَلَّمُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفٌّ عَنِ الْكُفْرَانِ وَاللَّيْسَ بِكُفْرَانِكُمْ أَلا تَتَّقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كُفِّرُوا كُفْرًا﴾ (١)، وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِنَاءَهُ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كُفِّرُوا كُفْرًا﴾ (٢)، ووصى الله بالوالدين فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ (٣)، وقال جلّ شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ (٤).

قال القرطبي: "ومن الإحسان إلى الوالدين أن يتلطف معهما بقولين لطيفين كريمين، وأن يجعل نفسه مع أبويه في خير ذلة في أقواله وسكناته ونظيره، ولا يحد إليهما بصره، فإن تلك نظرة الغاضب وهذا من بر الوالدين ومن برهما الترحم عليهما والدعاء لهما وأن ترحمهما كما رحماك، وترفق بهما كما رفق بك" (٥).

وبيّن رسول الله ﷺ أهمية الإحسان إلى الوالدين فعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: سألت رسول الله ﷺ قلت: أي العمل أفضل؟ قال: (الصلاة على ميقاتها. قلت: ثم أي؟ قال: ثم برُّ الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله) (٦).

وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَجْزِي وَكْدًا وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ) (٧)، ومن صور البر بهما بعد وفاتهما

(١) سورة الأنعام، من الآية: ١٥١.

(٢) سورة الإسراء، من الآية: ٢٣.

(٣) سورة الأحقاف، من الآية: ١٥.

(٤) سورة العنكبوت، من الآية: ٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/٢٤٢.

(٦) صحيح البخاري، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل الصلاة لوقتها، رقم ٥٢٧.

(٧) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، رقم ٨٥.

(٨) صحيح مسلم، كتاب: العتق، باب: فضل عتق الوالد، رقم ١٥١٠.

ما جاء في الحديث الشريف: (إِنَّ مِنْ أَبْرَأِ الْبَرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وَدُ آبِيهِ، بَعْدَ أَنْ يُؤْكَلِ)^(١).

وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ آبَوَيْ شَيْءٍ أَبْرَهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا. قَالَ: (نَعَمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالْأَسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّجْمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا)^(٢).

ومن مظاهر سماحة الأخلاق الإحسان إلى الزوجة والأولاد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خَلَقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ)^(٣).

وعن عمرو بن الأحوص الجشمي رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ، ثم قال: (الْأَسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ. فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا. أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا. وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا. فَأَمَّا

(١) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: فضل صلة أصدقاء الأب والأم، رقم ٢٥٥٢.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب: الأدب، باب: صل من كان أبوك يصل، رقم ٢٦٦٤، وأبو داود ٥١٤٢، وأحمد ٤٩٨/٣، والحاكم في المستدرک ١٥٥/٤، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: النكاح، باب: الوصاية بالنساء، رقم ٥١٨٦، وصحيح مسلم، كتاب: الرضاع، باب: الوصية بالنساء، رقم ١٤٦٨.

حَقَّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ مَنْ تَكَرَّهُونَ وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي
بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكَرَّهُونَ. أَلَا وَحَقَّهِنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي
كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ^(١).

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما حق زوجة
أحدنا عليه؟ قال: (أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ أَوْ
اِكْتَسَيْتَ وَلَا تُضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ)^(٢).

وأما الإحسان إلى الأولاد فحقهم على الوالد أن يحسن أديبهم وأن
يختار لهم أمأً صالحة، وأن يتعاهدهم بالنصح والإرشاد دائماً والإنفاق
عليهم بإحسان، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
(كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ
رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي
بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ
عَنْ رَعِيَّتِهِ - قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ
وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)^(٣).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
(مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَأَضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ
أَبْنَاءُ عَشْرِ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ)^(٤).

(١) سنن الترمذي، كتاب: الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم
١١٦٢، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ص ٢٧٦.

(٢) سنن أبي داود، كتاب: النكاح، باب: في حق المرأة على زوجها، رقم ٢١٤٢، وقال
الألباني: حسن صحيح، صحيح سنن أبي داود ص ٢٥٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: العتق، باب: كراهية التطاول على الرقيق، رقم ٢٥٥٤،
وصحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الأمير العادل، رقم ١٨٢٩.

(٤) سنن أبي داود، كتاب: الصلاة، باب: متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم ٤٩٥،
وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ص ٨٢.

وعن أبي ثرية سبرة بن معبد الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: (عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلَاةَ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرِ) (١).

ومن صور الإحسان إلى الأولاد النفقة عليهم وعدم البخل أو الإمساك، فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى امْسُكِينٍ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ. أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ) (٢).

وعن أبي عبد الله - ويقال له: أبي عبد الرحمن ثوبان بن جدد -

مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ: دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ. وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (٣).

ومن مظاهر سماحة الأخلاق في الإسلام ما جاء في الإحسان إلى الأقارب والأرحام وتفقد أحوالهم والسؤال عنهم وزيارتهم والنفقة على الفقير والمسكين، ولا أدل على ذلك مما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحْمَةً) (٤).

(١) سنن أبي داود، كتاب: الصلاة، باب: متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم ٤٩٤،

وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ص ٨٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة على العيال، رقم ٩٩٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة على العيال، رقم ٩٩٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: من بسط له في الرزق بصلة الرحم، رقم

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل من إذا قطعت رحمة وصلها)^(١).
ومن مظاهر سماحة الأخلاق في الإسلام الإحسان إلى الجيران، فعن ابن عمر رضي الله عنهما وعائشة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)^(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا ذر إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك)^(٣).

وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من إيذاء الجار أو تعريضه للأذى أو الشر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن). قيل: من يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)^(٤).

كما حض الإسلام على التعاون بين الجيران كصورة من صور السماحة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يمنع أحدكم جاره أن يفرز خشبة في جداره)، قال: ثم يقول أبو هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين؟ والله لأرmeen بها بين أكتافكم^(٥).

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: ليس الواصل بالمكافئ، رقم ٥٩٩١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: الوصية بالجار، رقم ٦٠١٤، وصحيح

مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم ٢٦٢٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم ٢٦٢٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: الوصية بالجار، رقم ٦٠١٦، وصحيح

مسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم إيذاء الجار، رقم ٤٦.

(٥) صحيح البخاري، كتاب: المظالم، باب: لا يمنع جار جاره أن يفرز خشبة، رقم

٢٤٦٣، وصحيح مسلم، كتاب: المساقاة، باب: فرز الخشبة في جدار الجار،

رقم ١٦٠٩.

ومما يدل على سماحة الأخلاق في الإسلام دعوته إلى مخالطة اليتامى باعتبار أن المجتمع الإسلامي مكلف برعاية مصالح الضعفاء واليتامى والأرامل، واليتامى بفقدهم آباءهم وهم صغار ضعاف أولى برعاية المجتمع وحمانيته.

"ولما استجاب المسلمون لنداء ربهم وكفلوا اليتيم كان بعض الأوصياء يخلطون طعام اليتامى بطعامهم وأموالهم بأموالهم للتجارة فيها جميعاً، وكان الغبن يقع على اليتامى فنزلت الآيات في التخويف من أكل أموال اليتامى كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١)، عندئذ تخرج الأتقياء حتى عزلوا طعام اليتامى من طعامهم فكان الرجل يكون في حجره اليتيم يقدم له الطعام من ماله، فإذا فضل منه شيء بقي له حتى يعاود أكله أو يفسد فيطرح، وهذا تشدد ليس من طبيعة الإسلام فوق ما فيه من الغرم أحياناً على اليتيم، فعاد القرآن يرد المسلمين إلى الاعتدال واليسر والسماحة في تناول الأمور وإلى تحري خير اليتيم والتصرف في حدود مصلحته، قال تعالى: ﴿وَسَتَأْتُونَكَ بِبَأْسٍ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنَ الْمُؤْمِنَاتِ لَأُغْنِيَنَّكَ اللَّهُ بِرِزْقِهِ إِذَا لَبِثْتَ فِي الْأَرْضِ وَإِن تُضِلُّهُم فَاصْبِرْ صَبْرًا جَدِيدًا﴾^(٢)، فليس المعول عليه ظاهر العمل وشكله ولكن نيته وثمرته والله لا يريد إحراج المسلمين وإعناتهم والمثقة عليهم فيما يكلفهم، ولو شاء الله لكفهم هذا، ولكنه لا يريد إلا الخير واليسر والصلاح"^(٣).

(١) سورة النساء، الآية: ١٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٠.

(٣) صور من سماحة الإسلام، د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الربيعه ص ٨٥ - ٨٦.

وقد دلت الأحاديث النبوية على فضل رعاية اليتيم وكفالاته، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً)^(١).

قال ابن حجر: "وكافل اليتيم هو القيم بأمره ومصالحه، قال ابن بطال: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك، وفي الحديث إشارة إلى أن بين درجة النبي ﷺ وكافل اليتيم قدر تفاوت ما بين السبابة والوسطى، ويكفي في إثبات قرب المنزلة من المنزلة أنه ليس بين الوسطى والسبابة إصبع أخرى، ويحتمل أن يكون المراد قرب المنزلة حالة دخول الجنة، لما أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه رفعه: (أنا أول من يفتح باب الجنة فإذا امرأة تبادرني فأقول: من أنت: فتقول: أنا امرأة تأيمت على أيتام لي)، ورواته لا بأس بهم، ويحتمل أن يكون المراد مجموع الأمرين: سرعة الدخول، وعلو المنزلة، والحكمة في كون كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة أو شبهت منزلته في الجنة بالقرب من النبي ﷺ أو منزلة النبي لكون النبي شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم فيكون كافلاً لهم ومعلماً ومرشداً، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه بل ولا دنياه، ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه، فظهرت مناسبة ذلك"^(٢).

إن اليتامى ضعفاء فقدوا ظهيرهم ونصيرهم من أجل هذا بادروهم الإسلام بالإحسان إليهم ورعايتهم وتعويضهم عما فقدوه، وبذل الحنان والعطف لهم.

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: فضل من يعول يتيماً، رقم ٦٠٠٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/٢٦٤٦.

وقد جاء في رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
(كَافِلُ الْيَتِيمِ، لَهُ أَوْ لِعَيْرِهِ، أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ)^(١).

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
(السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ -
وَأَحْسِبُهُ قَالَ - وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ وَكَالصَّائِمِ لَا يَفْطُرُ)^(٢).

وما من شك أن كل هذه النصوص النبوية تؤكد سماحة الإسلام في التعامل مع اليتامى والأرامل وأنها تدعو إلى الإحسان والبر واليسر والصلة، مما يدل على عظمة هذه الشريعة وعظمة ما جاءت به قال صلى الله عليه وسلم:
(أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ)^(٣).

إن للإحسان أثراً عظيماً في الدعوة إلى الله تعالى، حيث يعمل على كسب ود القلوب، وما أحوج الداعية إلى ذلك، لأن الإنسان إذا انقاد بقلبه وأنشرح صدره، فإنه يتأثر بالترغيب والترهيب، بل ويحرص على الالتزام بتعاليم الإسلام، ويسأل عما خفي عليه، وتكون هناك حالة من التفاعل بين الداعية والمدعو، أما إذا أعرض المدعو عن الاستجابة، فلن تفلح جهود الداعية في دعوته، ولذا فإن التخلق بالإحسان وإشاعته بين الناس، يعد من أهم الجسور التي يعبر من خلالها الداعية إلى المدعويين، لأن الإحسان بمفهومه الواسع الشامل الذي يحجب الناس في

(١) صحيح مسلم، كتاب: الزهد والرفائق، باب: الإحسان إلى الأرملة والمسكين، رقم ٢٩٨٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: الساعي على المسكين، رقم ٦٠٠٧، وصحيح مسلم، كتاب: الزهد والرفائق، باب: الإحسان إلى الأرملة والمسكين، رقم ٢٩٨٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: الدين يسر، رقم ٢٩، مقدمة الباب، قال ابن حجر: رواه البخاري معلقاً ووصله في الأدب المفرد ووصله أحمد بن حنبل ٢٩٤/١.

دين الله ويقوي الروابط والعلاقات بين أفراد المجتمع بصفة عامة وبين الداعية والمدعويين بصفة خاصة، فالإحسان خلق من الأخلاق التي لها دور رئيس في الدعوة إلى الله، وكما يكون الإحسان بالمال والنفقة والعطاء يكون ببذل المعروف والموازرة بالجاء، قال الماوردي: "ولا عذر لمن منح جاهاً أن يبخل به فيكون أسوأ حالاً من البخيل بماله الذي قد يعده لنوائبه، ويستبقه للذته، ويكنزه لذريته، وبضد ذلك من بخل بجاهه لأنه قد أضاعه بالشح، وبدده بالبخل وحرّم نفسه غنيمة مكنته، وفرصة قدرته، فلم يعقبه إلا ندماً على فائت، وأسفاً على ضائع، ومقتاً يستحكم في النفوس، وذمماً قد ينتشر في الناس وقال بعض الحكماء: اصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمده عند زواله، وأحسن والدولة لك يُحسن لك والدولة عليك، واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك"^(١).

ومن خلال خلق الإحسان تتأكد وحدة المجتمع الإسلامي مما يكون له عظيم الأثر في دعوة غير المسلمين، "إن بوسع المسلمين أن يعتزوا بدينهم ويفخروا بحضارتهم ويشمخوا بإنسانيتهم التي ستبقى علامات مميزة وسمات خاصة بالأمة الإسلامية التي تهدي بوحى الله وقيمته الأخلاقية الثابتة دون أن تحتكم لأهواء الفلاسفة والمفكرين الذين ولدوا الحيرة للإنسان وقضوا بأرائهم النفعية المادية على أسمى خصائص الإنسانية، إن تعاليم الإسلام تهدف إلى بناء مجتمع تقوم علاقات أفرادها على الحب والمودة والتآلف والرحمة والإحسان، ويبعد عن الشقاق والاختلاف والعداوة والبغضاء، وقد اعتمد الإسلام على تربية أتباعه وفق هذه المبادئ، وذلك بتوحيد عقيدتهم أولاً فيتم

تجانسهم الفكري، وتتحد مقاييسهم الخلقية، وتتوحد مصادر التلقي عندهم إذ كلهم يأخذون من الكتاب والسنة، ويصدرون عنهما في أقوالهم وأفعالهم"^(١).

ومن خلال خلق الإحسان وبيان منزلته في الإسلام يمكن دعوة غير المسلمين لأن دعوتهم إلى الإسلام لا تكون إلا بالاختلاط بهم ولا يتصور دعوة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي دون اختلاط بهم ومعرفة طبائعهم وعاداتهم وثقافتهم ومن ثم الاستفادة منها في دعوتهم، وذلك لا يكون إلا بمخالطتهم والبر بهم والإحسان إليهم والعدل معهم والرحمة والرأفة بهم، وكل ذلك مما تضافرت عليه نصوص الكتاب والسنة فضلاً عما في الإحسان إلى غير المسلم من تأثير بالغ في نفسه وتعريف له بمحاسن الإسلام عملياً وقد يدعوه هذا إلى الدخول فيه"^(٢).

الخاتمة:

الحمد لله الذي يسر لي إنجاز هذا البحث الذي حرصت فيه على بيان أهم مظاهر سماحة الأخلاق المتمثلة في الحلم والرحمة والعدل والرفق والعفو والإحسان.

وقد عالج البحث بصورة موجزة سماحة الأخلاق وأثرها في الدعوة إلى الله، حيث ذكرت الأدلة الشرعية على ذلك من خلال ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مما يستلزم تحلي الدعوة

(١) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ط/١ دار

إشبيلية، الرياض: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ٢٥٠.

(٢) انظر: دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، د. عبدالله بن إبراهيم اللحيان، ط/١،

١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص ١٤٧.

بسماحة الأخلاق وتوظيف ذلك في الدعوة إلى الله والعمل على إشاعة تلك السماحاة بين الناس من خلال الحث عليها في ضوء ما ورد في الكتاب والسنة، وبيان تحلي النبي ﷺ بالسماحة الخلقية، وكيفية تطبيقه ﷺ لذلك في الدعوة إلى الله تعالى والآثار الحميدة التي تمثلت في استجابة المدعوين وانسراح صدورهم للإسلام، مما يؤكد أهمية سماحة الأخلاق وأثرها في الدعوة إلى الله، خاصة في هذا العصر الذي يحاول فيه خصوم الإسلام إلصاق العنف والإرهاب بديننا، ووصفه بأنه دين العنف والقسوة والتطرف، مما يستوجب إبراز سماحة الأخلاق في الإسلام نظرياً وعملياً، وبيان النماذج العملية من خلال ما أمر به الإسلام من السماحاة في التعامل مع الآخر من غير المسلمين. وصى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

قائمة المصادر والمراجع:

١. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار الكتاب العربي، بدون ذكر التاريخ ورقم الطبعة.
٢. أخلاق الدعوة إلى الله تعالى "النظرية والتطبيق"، د. طلعت محمد عفيفي سالم، ط/ دار عالم الكتب، الرياض: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
٣. الأخلاق في الشريعة الإسلامية، د. أحمد عليان، ط/ ١/ دار النشر الدولي، الرياض: ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
٤. أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، ط/ ٤/ دار الكتب العلمية، بيروت: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
٥. إسلامنا، الشيخ السيد سابق، ط/ دار الكتاب العربي، دون ذكر لتاريخ ورقم الطبعة.
٦. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة، د. عبدالعزيز بن أحمد المسعود، ط/ ٢، ١٤٢٥هـ/ ١٩٩٤م.
٧. البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: معالي أ. د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط/ ١/ دار هجر: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٨. التحرير والتوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط/ دار سحنون، تونس، بدون ذكر رقم وتاريخ الطبعة.
٩. التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ط/ ١/ دار إشبيليا، الرياض: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
١٠. التعريفات، الإمام الجرجاني، تحقيق د. عبدالرحمن عميرة، ط ١، عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد السلامة، ط ٢، دار طيبة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
١٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبدالرحمن السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٣. جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ط/٩ داره الملك عبدالعزير، الرياض: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
١٤. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: معالي أ. د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط/١ مؤسسه الرساله، بيروت: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
١٥. خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
١٦. دعوه الإسلام، الشيخ السيد سابق، ط/١ دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٧٣م.
١٧. دعوه غير المسلمين إلى الإسلام، د. عبدالله بن إبراهيم اللحيان، ط/١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
١٨. ركائز دعويه من هدي النبي ﷺ في العلاقات الاجتماعيه، د. عبدالمجيد البيانوني، ط/١ دار ابن حزم، بيروت: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
١٩. الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، الشيخ عبدالرحمن السعدي، ط/ الرئاسة العامه لإدارات البحوث العلميه والإفتاء والدعوه والإرشاد، الرياض، المملكة العربية السعوديه، ١٤٠٥هـ.
٢٠. سنن ابن ماجه، الإمام/ محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، ط/١ دار السلام، الرياض: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٢١. سنن أبي داود، الإمام/ سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، ط/١ دار السلام، الرياض: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٢٢. سنن الترمذي، الإمام محمد بن عيسى الترمذي، ط/١ دار السلام، الرياض: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٢٣. سنن النسائي، الإمام/ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان النسائي، ط/١ دار السلام، الرياض: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٢٤. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الإمام محمد بن عبدالله الطيبي، إدارة القرآن والعلوم الإسلاميه، باكستان، ط/١، ١٤١٣هـ.

٢٥. شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي، ط/ بيت الأفكار الدولية، الأردن، دون ذكر تاريخ ورقم الطبعة.
٢٦. الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي، ط/٤ مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٢٧. صحيح البخاري، الإمام/ محمد بن إسماعيل البخاري، ط/١ بيت الأفكار الدولية، الأردن: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٢٨. صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، ط/١ مكتبة المعارف، الرياض، بدون ذكر التاريخ.
٢٩. صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، ط/١ مكتبة المعارف، الرياض، بدون ذكر التاريخ.
٣٠. صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، ط/١ مكتبة المعارف، الرياض، بدون ذكر التاريخ.
٣١. صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، ط/١ مكتبة المعارف، الرياض، بدون ذكر التاريخ.
٣٢. صحيح مسلم، الإمام/ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ط/١ دار ابن حزم، بيروت: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
٣٣. صور من سماحة الإسلام، د. عبدالعزيز عبدالرحمن بن علي الربيعه، ط/٢ دون ذكر دار النشر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٣٤. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دون تاريخ ورقم للطبعة، ط/ دار الوطن.
٣٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ط/ بيت الأفكار الدولية، الأردن: ٢٠٠٤م، بدون ذكر رقم الطبعة.
٣٦. فقه الدعوة إلى الله تعالى، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، مجلة الدراسات الدعوية، ط/١ دار القلم، دمشق: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٣٧. الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق د. عدنان درويش، محمد المصري، ط/٢ مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٣٨. لسان العرب، ابن منظور، ط/١، دار عالم الكتب، الرياض: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
٣٩. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الإمام/ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ط/ مؤسسة المعارف، بيروت: ١٤٠٦هـ.
٤٠. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، وساعده ابنه محمد، ط/ وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٤١. محاسن التأويل، الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، ط/٢ دار الفكر، بيروت: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٤٢. مداواة النفوس، الإمام ابن حزم الأندلسي، ط/٢ دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٤٣. المستدرک على الصحيحين، الإمام/ أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، ط/ دار المعرفة، بيروت: بدون ذكر لتاريخ ورقم الطبعة.
٤٤. مسند الإمام/ أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط/٢ مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٤٥. المصنف من صفات الدعاة، عبدالحميد البلالى، ط/١ مكتبة المنار الإسلامية، الكويت: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
٤٦. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ط/ دار المعرفة، بيروت، دون ذكر لرقم وتاريخ الطبعة.
٤٧. مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أبو الفرج بن الجوزي، ط/٢ دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.
٤٨. النهاية في غريب الحديث والأثر، الإمام ابن الأثير، ط/١ دار ابن الجوزي، الرياض: ١٤٢١هـ.

٤٩. هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً، محمود محمد الخزندار، ط/١٠ دار طيبة، الرياض: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٥٠. الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ط/٣ مؤسسة الريان، بيروت: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

الدعوة
وإعجاز غيب المستقبل
المفهوم والعلاقة (دراسة تحليلية)

إعداد

الدكتور/ محمد بن إبراهيم الزهراني
الأستاذ المساعد في قسم الدعوة والاحتساب
بكلية الدعوة والإعلام
في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة:

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في ارتباطها بدلالة عقلية خالدة، دلالة تدفع المدعو بعد انقطاع الوحي إلى التفكير في مصدرها، وإعجاز غيب المستقبل ليس برهاناً مادياً ينقضي في حينه، بل برهان يمتد إلى قيام الساعة، كما أنه آية وبينه على عالمية الدعوة الإسلامية وربانيتها، وفيه آية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، والمدعوون في هذه الأزمنة بحاجة إلى مخاطبتهم بأدلة عقلية تؤكد لهم صدق رسالة الإسلام، من هنا رأى الباحث أهمية توظيف إعجاز غيب المستقبل في الدعوة إلى الله تعالى.

أسباب اختيار الدراسة:

- 1- الحاجة إلى إبراز العلاقة بين الدعوة وإعجاز غيب المستقبل.
- 2- الحاجة إلى تقديم أدلة عقلية عند خطاب المدعوين.
- 3- قوة الأثر الذي يخلقه إعجاز غيب المستقبل في نفوس المدعوين.

أهداف الدراسة:

- 1- تحديد مفهوم الدعوة إلى الله بإعجاز غيب المستقبل.
- 2- إبراز العلاقة بين الدعوة وإعجاز غيب المستقبل.
- 3- الوقوف على أنواع الإعجاز الغيبي الواردة في الكتاب والسنة.

منهج الدراسة:

تعد هذه الدراسة من الدراسات النظرية، لذا سيوظف الباحث المنهج الكيفي لجمع المعلومات المتعلقة بالدراسة، ويتضمن هذا المنهج وضع الأدلة المأخوذة من الوثائق والسجلات بطريقة منطقية، والاعتماد على هذه الأدلة في تكوين النتائج التي تؤسس حقائق جديدة^(١)،

وسيوظف الباحث هذا المنهج في رصد صور إعجاز غيب المستقبل لتحديد مفهومه وتقديم تصور عن العلاقة بينه وبين الدعوة الإسلامية. وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، فذكرت في المقدمة أهمية الدراسة وأسباب اختيارها وأهدافها ومنهجها، ثم المبحث الأول وعنوانت له: بمفهوم الدعوة إلى الله بإعجاز غيب المستقبل، وذكرت فيه مفهوم الدعوة اللغوي والاصطلاحي، ومفهوم الإعجاز مع ذكر مرادفات المعجزة، والفرق بينها وبين بقية الأمور الخارقة للعادة، ثم ربطت بين المصطلحات الثلاثة للخروج بتصور يقودني إلى مفهوم الدعوة إلى الله بإعجاز غيب المستقبل.

وأما المبحث الثاني فعنوانت له: بصور من إعجاز غيب المستقبل في الدعوة الإسلامية، وتضمن صوراً من الكتاب والسنة، فذكرت حوادث حدثت، وحوادث مستقبلية لم تحدث بعد، وأما المبحث الثالث: فعنوانت له: بدلالة إعجاز غيب المستقبل على ربانية الدعوة الإسلامية وعالميتها، وفيه تحليل وربط للعلاقة بين الدعوة وإعجاز غيب المستقبل.

ثم ختمت هذا البحث بذكر أهم نتائجه وما يوصي به الباحث، سائلاً المولى الكريم أن ينفع به، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى إنه سميع مجيب.

المبحث الأول

مفهوم الدعوة إلى الله بإعجاز غيب المستقبل

للقوف على علاقة إعجاز غيب المستقبل بالدعوة إلى الله تعالى يلزمنا بيان مفهوم الدعوة إلى الله بالإعجاز الغيبي. فلدينا مصطلح الدعوة والإعجاز وغيب المستقبل، وإليك بيان مفهومها:

أولاً: مفهوم الدعوة:

تطلق كلمة الدعوة في اللغة على معان عدة، تدور حول الطلب والسؤال والنداء والتجمع والاستمالة^(١)، قال ابن فارس: الدعوة أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك^(٢).

وقد تكون الدعوة دعوة حق أو دعوة باطل، فمن الحق قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾^(٣) ومن دعوة الباطل دعوة الشيطان قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٤).

وأما في الاصطلاح فتطلق الدعوة ويراد بها أحد معان ثلاثة:

(١) انظر: تهذيب اللغة - منصور الأزهري - تحقيق د. عبدالحليم النجار - الدار المصرية للتأليف والترجمة - مادة دعا ١٢٢/٣.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة - أحمد بن فارس - تحقيق د. محمد عوض - در إحياء التراث العربي - بيروت - ط١ - ١٤٢٢ - ٢٣٧، وانظر مقاييس اللغة - أمين قاسم - دار الفكر - بيروت - بدون رقم وتاريخ - ٢٧٩/٢، وانظر: مدخل إلى علم الدعوة - أ.د. عبدالب نواب الدين - دار العاصمة - الرياض - ط١ - ١٤١٣.

(٣) سورة الرعد، من الآية: ١٤.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٦.

- ١- الدين أو الرسالة وعرفها الراوي بأنها «دين الله الذي بعث به الأنبياء جميعاً، تجدد على يد محمد ﷺ خاتم النبيين، كاملاً وافياً لصالح الدين والآخرة»^(١).
- ٢- عملية النشر والبلاغ: وقد عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «إن الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعبد ربه كأنه يراه»^(٢).
- ٣- الفن المستقل بذاته وعرفها الدكتور الخلفي بأنها: «علم يبحث فيه عن الكيفية التي تتم بها إمالة الناس إلى الإسلام وإقناعهم باتباعه على مر الزمان، حسب المنهج الشرعي الصحيح»^(٣).
وهناك فرق بين المعاني الثلاثة، فالأول يُقصد به دين الله وما حواه من تعاليم خوطب بها المدعو، فيقال الدعوة الإسلامية ونعني بها دين الإسلام.

(١) الدعوة الإسلامية. دعوة عالمية. - محمد بن عبدالرحمن الراوي - مكتبة الرشد الرياض - ط ٢ ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م - ٣٩.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - جمع عبدالرحمن بن قاسم - دار عالم الكتب - الرياض - ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م - ١٥٦/١٥.

(٣) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - العدد ٢١ - محرم ١٤١٩ هـ تاريخ الدعوة في عهد النبي ﷺ وفقه الدعوة منه - د. عبدالرحمن بن سليمان الخلفي - ٢٤٢. وانظر: الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها - أحمد غلوش - دار الكتاب المصري - ط ١ - ١٣٩٩ - ١٠.

وأما المعنى الثاني فهو عملية نشر الدعوة الإسلامية بمعنى أن هناك عملية اتصالية بين داع يبلغ الدعوة ومدعو يتلقى الدعوة عبر أساليب ووسائل، وأما المعنى الثالث فهو مزج بين المعنى الأول والثاني، فطالب العلم يتعلم فنون الدعوة الإسلامية في الأقسام العلمية المتخصصة لإيصالها إلى الناس.

وقد أردت من بين هذه المعاني الثلاثة المعنى الثاني وهو عملية النشر والبلاغ.

ثانياً: مفهوم الإعجاز:

الإعجاز في اللغة مصدر أعجز، والعجز نقيض الحزم والتعجيز هو التثييط، والمعجزة واحدة المعجزات، وعجز الإنسان أي ضعفه وعجز عن الأمر أي قصر عنه^(١).

وكلمة العجز عدم القدرة على إتيان الأمر، قال تعالى حكاية عن ابن آدم: ﴿يَتَوَلَّىٰ أَعْرَجٌ بِأَنَّ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْقُرْبِ فَأُورِي سَوْءَ أَخِي﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَسْرُ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٣).

ومنه عجز الخلق عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم قال تعالى: ﴿قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٤). أي عدم قدرتهم عن الإتيان بمثل القرآن الكريم.

(١) انظر لسان العرب - لابن منظور - دار صادر بيروت - ط ١ - بدون تاريخ -

٦٩١/٤.

(٢) سورة المائدة، من الآية: ٣١.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٣١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

وقبل تناول مفهوم مصطلح المعجزة يجدر بنا الإشارة إلى ورود مصطلحات مرادفة لمصطلح المعجزة في غير موضع من القرآن الكريم عند حديثه عن معجزات الأنبياء مع مدعويهم وهي:

١ - الآية: ورد هذا المصطلح في مواضع متفرقة، منها طلب المدعويين

من عيسى عليه السلام دليل صدق نبوته، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِثُ لَئِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَتَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عَيْدًا لِأَوْلَانَا وَإِخْرَانًا وَمَائِدَةً مِنْكَ وَارْتُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾. فقد كان نزول المائدة من السماء آية للمدعويين ومعجزة تطمئن قلوبهم بها، ويكونون بعدها دعاء قومهم، وسمى الله هذا الأمر الخارق للعادة آية، قال الثعلبي: إنما سألوه ليستيقنوا قدرة الله وتسكن قلوبهم ويعلموا صدق دعوة عيسى عليه السلام، وليشهدوا له عند المدعويين من بني إسرائيل حين رجوعه إليهم^(٢).

٢ - البرهان: وصف القرآن الكريم معجزات موسى عليه السلام إبان دعوته لفرعون بالبرهان، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُكْ إِبْرَاهِيمَ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عَيْدًا لِأَوْلَانَا وَإِخْرَانًا وَمَائِدَةً مِنْكَ وَارْتُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾. فقد كان نزول المائدة من السماء آية للمدعويين ومعجزة تطمئن قلوبهم بها، ويكونون بعدها دعاء قومهم، وسمى الله هذا الأمر الخارق للعادة آية، قال الثعلبي: إنما سألوه ليستيقنوا قدرة الله وتسكن قلوبهم ويعلموا صدق دعوة عيسى عليه السلام، وليشهدوا له عند المدعويين من بني إسرائيل حين رجوعه إليهم^(٢).

٢ - البرهان: وصف القرآن الكريم معجزات موسى عليه السلام إبان دعوته لفرعون بالبرهان، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُكْ إِبْرَاهِيمَ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عَيْدًا لِأَوْلَانَا وَإِخْرَانًا وَمَائِدَةً مِنْكَ وَارْتُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾. فقد كان نزول المائدة من السماء آية للمدعويين ومعجزة تطمئن قلوبهم بها، ويكونون بعدها دعاء قومهم، وسمى الله هذا الأمر الخارق للعادة آية، قال الثعلبي: إنما سألوه ليستيقنوا قدرة الله وتسكن قلوبهم ويعلموا صدق دعوة عيسى عليه السلام، وليشهدوا له عند المدعويين من بني إسرائيل حين رجوعه إليهم^(٢).

(١) سورة المائدة، الآيات: ١١٢ - ١١٤.

(٢) انظر: الكشف والبيان في تفسير القرآن - أحمد بن محمد الثعلبي - تحقيق سيد كسروي حسن - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٤م -

أَعْلَمِينَ ﴿٢٠﴾ وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ
يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٢١﴾ أَسْأَلُكَ بِدَعْوَى جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ
غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٢﴾، عزز الله سبحانه
موسى عليه السلام ببراهين كثيرة، منها إدخال يده في جيبه تخرج
بيضاء من غير سوء ولا علة. قال أبو السعود: فكان فرعون
وملأه أحقاء بإرسال موسى عليه السلام إليهم بهاتين المعجزتين
الباهرتين^(٢١).

٣ - البينة: قال تعالى حكاية عن دعوة صالح عليه السلام لقومه: ﴿وَإِلَى
ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ
جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي
أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾، قال ابن جرير: أي
جاءتكم حجة وبرهان على صدق ما أقول، وحقيقة ما أدعو
إليه، فحجتي هذه الناقة التي أخرجها الله من الهضبة دليلاً على
نبوتي وصدق مقالتي، وهي من المعجزات التي لا يقدر على مثلها
أحد إلا الله^(٢٤)، وتلاحظ هنا أن ابن جرير فسر البينة بالمعجزة.

(١) سورة القصص، الآيات: ٢٠ - ٢٢.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - لأبي السعود محمد بن
أحمد العمادي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط٢، ١٤١١هـ - ١٩٩٠ -
١٣/٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

٤ - **السلطان:** قال تعالى حكاية عن حوار دعوي بين رسل ومدعويين يطلبون دليلاً على صدق نبوتهم: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنْتُمْ أَسْطِنُ مُبِينٍ ۝١١﴾ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرِكَ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٣﴾^(١)، قال الخازن في تفسيره الرسل: «وليس لنا مع ما خصنا الله به من النبوة وشرفنا به من الرسالة أن نأتيكم بأية وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا إلا بإذن الله في ذلك»^(٢)، والخازن يقرر هنا أن البرهان والمعجزة مرادفان للسلطان.**

وأما في الاصطلاح فقد عرف العلماء المعجزة بتعريفات عدة أبرزها: «أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة»^(٣). ويرد على هذا التعريف حدوث خوارق للعادة مقرونة بالتحدي سالمة من المعارضة لم تجر على يد نبي^(٤)، فكل معجزة خارقة للعادة وليس كل أمر خارق للعادة معجزة، ويمكن تقسيمها إلى ما يلي:

(١) سورة إبراهيم، من الآيات: ١٠ - ١٢.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل - علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن - ضبطه: عبدالسلام محمد شاهين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ٣/٣١.

(٣) الإتيان في علوم القرآن - عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - مكتبة دار المعارف - الرياض - ط١ - ١٤٠٧ هـ - ٢٢٤/٢، وانظر: مناهل العرفان في علوم القرآن - محمد عبدالعظيم الزرقاني - دار الفكر - ط١ - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م - ١٧.

(٤) انظر: ما أخرج مسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام - رقم الحديث (٣٠٠٥) - ١٢٨٥.

١ - الكرامات: وهي أمور خارقة للعادة تجري على يد عبد صالح من غير الأنبياء، وقد ورد ذكر أمثلة منها في القرآن الكريم فمنها قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُومُ أَنَّى لَئِي هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

قال البيضاوي: «أنه لم يكن يدخل على مريم في محرابها غير زكريا فإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف والعكس، وفي هذا الرزق الذي يأتيها دليل جواز الكرامة للأولياء، فلم يكن معجزة لزكريا لأن الأمر اشتبه عليه بدليل سؤاله لها من أين لك هذا»^(٢).

وحصول الرزق عندها على الوجه المذكور أمر خارق للعادة ظهر على يد من لا يدعي النبوة.

وأما في السنة فمنه ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «كان رجل في بني إسرائيل يقال له جريج الراهب يصلي فجاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ ثم أتته فقالت: اللهم لا تمته حتى تربه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته فقالت امرأة لأهنته فتعرضت له فكلمته فأبى، فأنت راعياً فأمكنته من نفسها، فولدت غلاماً، فقالت هو من جريج فأتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال من أبوك يا غلام؟ فقال: الراعي، قالوا: نبني لك صومعتك من ذهب فقال: لا، إلا من طين»^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٢) تفسير القاضي البيضاوي - حاشية محي الدين شيخ زاده - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م - ٥٤/٣.

(٣) أخرجه البخاري - كتاب المظالم والفضب - باب إذا هدم حائطاً فليبين مثله - مكتبة الرشد - الرياض - ط١ - ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م - رقم الحديث (٢٤٨٢) = الدعوية

ومنه أيضاً ما ثبت في الصحيح أن أسيد بن حضير وعباد بن بشر (رضي الله عنهما) خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرق النور معهم، فمشى كل واحد منهما بنور معه حتى بلغ أهله^(١).

ومثل هذه الخوارق وغيرها تسمى كرامات لأنها جرت على يد عبد صالح من غير الأنبياء وفق ما ذكره البيضاوي وغيره^(٢).

٢ - الاستدراج: وهو أمر خارق للعادة يجري على يد العبد الفاجر يكون موافقاً لمراده، كما سيحدث مع الدجال عندما يأتي ومعه جبال من الخبز ويأمر السماء فتمطر والأرض فتتبت ويأمر كنوز الأرض أن تخرج فتخرج، ففي الحديث الصحيح: «فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتتبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً، وأسبغه ضروعاً، وأمدته خواصر^(٣) ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي

= ٢٢٩. وأخرجه مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تقديم بر الوالدين

على التطوع بالصلاة وغيرها - دار ابن حزم - بيروت - ط ١ - ١٤٢٣هـ -

٢٠٠٢م - رقم الحديث (٢٥٥٠) - ١١١٠.

(١) أخرجه البخاري - كتاب مناقب الأنصار - باب منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشر (رضي الله عنهما) - رقم الأثر (٢٨٠٥) - ٥١٦.

(٢) انظر: المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات - ابن تيمية - تحقيق أحمد العيسوي - دار الصحابة للتراث طنطا - ٢٢، وانظر: كرامات الصحابة - أسعد محمد الطيب - دار ابن حزم - بيروت - ط ١ - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٣) أي فتروح سارحتهم أي ماشيتهم، وذرا أي أطول سناماً، وأسبغه ضروعاً أي لكثرة اللبن، وأمدته خواصر لكثرة امتلائها من الشبع. انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم

بن الحجاج - محي الدين النووي - دار المعرفة - بيروت - ط ٣ - ١٤١٦هـ -

١٩٩٧م - ٢٧٠/١٨.

كنوزك، فتنبعه كنوزها كيغاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعها جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك»^(١).

قال النووي: فإن قيل كيف ظهرت هذه الخوارق للعادة على يد الدجال، فالجواب أنه إنما يدعي الربوبية، ولا دلالة فيه لربوبيته لظهور النقص عليه كالعور وكفصره المكتوب بين عينيه، قال القاضي: هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال، وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدرات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله، واتباع كنوز الأرض وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تثبت فتثبت فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيتته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك^(٢).

وكل الخوارق التي ستأتي مع الدجال هي استدراج لا يدخل ضمن مفهوم المعجزة وإن كان من قبيل الخوارق، وقريب من الاستدراج الإهانة وهي كل أمر خارق للعادة جرى على يد عبد فاجر وقع مخالفاً لمراده، كما حدث مع مدعي النبوة مسيلمة الكذاب عندما دعا إلى الإيمان به رسولاً، وزعم أن المعجزات تجري على يديه فمسح على مريض فمات، وتقل في بئر فغار ماؤها، فكان الأمر الخارق للعادة دليل كذبه وإهانة له^(٣).

(١) أخرجه مسلم - كتاب الفتن وأشراف الساعة - باب ذكر الدجال وصفته وما معه - رقم الحديث (٢٩٣٧) - ١٢٦٠.

(٢) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - النووي - ٢١٣/١٨ و ٢٧٥.

(٣) انظر: مباحث في إعجاز القرآن الكريم - أ.د. مصطفى مسلم - دار القلم - دمشق - ط ٣ - ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ - ٢٠.

كما عرف بعضهم المعجزة بأنها:

«أمر يعجز عنه البشر متفرقين أو مجتمعين، أو هو أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروفة يخلقه الله على يد مدعي النبوة عند دعواه إياها شاهداً على صدقه»^(١).

ويرد على هذا التعريف أن المعجزة خارقة للخلق وليس للبشر فقط، كما يرد عليه تقييده أن الأمر الخارق يحدث مع مدعي النبوة عند دعواه، وهذا يخرج كثيراً من معجزات الأنبياء التي حدثت قبل مبعثهم أو حدثت في غير مقام ادعاء النبوة كتكثير الماء والطعام وغيرها كثير

وقد عرف بعض المعاصرين المعجزة بأنها: «أمر يجريه الله على يد نبيه، أو علم بيديه من قوله، لا يقدر أحد عن الإتيان بمثله في زمانه يكون دليلاً على نبوته لخروجه عن طاقة الخلق»^(٢).

ولعل هذا التعريف أجمع التعاريف وأمنعها وهو المختار لدي.

ثالثاً: مفهوم غيب المستقبل:

الغيب لغة: الغين والباء والياء أصل صحيح يدل على تستر الشيء عن العيون ثم يقاس، الغيب ما غاب مما لا يعلمه إلا الله^(٣). ومعظم آراء علماء اللغة تذكر ما ذكره ابن فارس هنا.

وأما في الاصطلاح فقد تباينت آراء العلماء في مفهوم الغيب، وقد

حكى هذا التباين القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني - ٦٥.

(٢) الإعجاز العملي في السنة النبوية - د. صالح أحمد رضا - مكتبة العبيكان -

الرياض - ط١ - ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م - ٢١.

(٣) معجم مقاييس اللغة - ابن فارس - ٧٧٩.

فقال بعضهم إنه القضاء والقدر، وقال آخرون الغيب هو: كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما لا تهتدي إليه العقول من أشرط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار، وقال آخرون: هو الله سبحانه وتعالى، قال ابن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها^(١)، وبالتأمل فيما تقدم نجد أن جميع التفسيرات السابقة تمثل بعض مظاهر الغيب، لذا ذكر ابن عطية أن الغيب يقع عليها جميعاً، والناظر في كتابات العلماء قديماً وحديثاً يجد أن مرد تباين آرائهم - م في مصطلح الغيب تركيز كثير منهم على التوصيف لا التعريف^(٢).

وقد يكون سبب ذلك مرونة مصطلح الغيب من حيث تقسيماته، فالمصطلح العلمي إذا أصبح ذا أقسام يصعب تعميم مفهوم قسم على

(١) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن - لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي - تحقيق د. عبد الله التركي ومحمد رضوان عرقسوسي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٦ - ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٧م - ٢٥٢/١.

(٢) انظر على سبيل المثال: عالم الغيب في العقيدة الإسلامية - أ. د. محمد سيد السمير - نهضة مصر - ط١ - ٢٠٠٧ - ٩، وانظر: عالم الغيب - محمد خير الدرغ - دار الفكر - دمشق - بدون رقم وتاريخ - ٦، وانظر: عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي - عثمان جمعة ضميرية - مكتبة السوادي - جدة - ط١ - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م - ١٥، وانظر: الإيمان بالغيب - بسام سلامة - مكتبة المنار - الزرقاء الأردن - ط١ - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م - ٥، تجدر الإشارة إلى أن بعض الباحثين يسمي الإعجاز الغيبي الإعجاز التاريخي، وهذا لا يستقيم لأن غيب المستقبل أحد أقسام الإعجاز الغيبي، ومصطلح التاريخ يطلق على أحداث الماضي دون المستقبل، انظر على سبيل المثال: الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم وأثره في الدعوة إلى الله تعالى - د. مصطفى السعيد - شركة أجيالنا ط١ - ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٩ - ٦٦.

بقية الأقسام الأخرى، ولهذا نجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية عندما عرف الغيب لم يعرفه تعريفاً واحداً لإدراكه عدم وجود تعريف اصطلاحي يحيط بجميع أقسام الغيب، بل قسم الغيب إلى مطلق ومقيد، وذلك باعتبار القدر المعلوم من الغيب، فما يقال في مفهوم الغيب المطلق لا ينطبق على المقيد والعكس صحيح.

فقد ذكر عند شرحه لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١)، هذا هو الغيب المطلق عن جميع المخلوقين، والغيب المقيد ما علمه بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الإنس وشهدوه، فإنما هو غيب عن غاب عنه، ليس هو غيباً عن شاهده، والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا، فيكون غيباً مقيداً، أي غيباً عن غاب عنه من المخلوقين لا عن شاهده، ليس غيباً مطلقاً غاب عن المخلوقين قاطبة. وقوله: ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(٢) أي عالم ما غاب عن العباد مطلقاً وما شهدوه فهو سبحانه يعلم ذلك^(٣) كله، وتقسيمه - رحمه الله - للغيب إلى مطلق ومقيد يوضح المعنى الاصطلاحي للغيب، فالغيب ليس أمراً ثابتاً المطلق منه مختص بالله سبحانه وتعالى، وأما المقيد فهو غيب عند قوم ليس غيباً عند آخرين، قال تعالى حكاية عن هلاك قوم نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾^(٤) فسمها

(١) سورة النمل، من الآية: ٦٥.

(٢) سورة الأنعام، من الآية: ٧٣.

(٣) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام - ابن تيمية - ١١٠/١٦.

(٤) سورة هود، الآية: ٤٩.

اللَّهُ سبحانه وتعالى غيباً عن محمد ﷺ وقومه لكنها لم تكن غيباً في شأن نوح عليه السلام وقومه لأنهم شهدوها، ومجمل القول أن الغيب في الاصطلاح يطلق فيراد به أحد معنيين: الأول الغيب المطلق: وهو كل ما استأثر به الله في علمه ولم يعلمه أحد من خلقه، مثل موعد قيام الساعة قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنِيهَا لَوْ قُبِئَ إِلَّا هُوَ نَفَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

ففي الآية الأولى يحصر موعد قيام الساعة على علم الله جل جلاله، ثم يكرر مؤكداً ذلك الحصر على علم العليم الخبير، وفي الآية الثانية ينفي ﷺ عن نفسه علم الغيب، وهذا تأكيد لعظمة الله سبحانه وتعالى وأنه علام الغيوب. والثاني الغيب المقيد: وهو ما أطلعه الله لأحد من خلقه فأدركه بعض وغاب عن بعض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن اسم الغيب من الأمور الإضافية يراد بها ما غاب عنا فلم ندركه، ويراد به ما غاب عنا فلم يدركنا، وذلك لأن الواحد منا إذا غاب عن الآخر مغيباً مطلقاً لم يدرك هذا هذا ولا هذا هذا، والله سبحانه شهيد على العباد رقيب عليهم مهيمن عليهم، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فليس هو

غائباً عنا، وإنما لما لم يره العباد كان غيباً، ولهذا يدخل في الغيب الذي يؤمن به وليس هو بغائب، فإن الغائب اسم فاعل من قولك غاب يغيب فهو غائب واللّه شهيد غير غائب، وأما الغيب فهو مصدر غاب يغيب غيباً وكثيراً ما يوضع المصدر موضع الفاعل كالعدل والصوم والنزور ويوضع المفعول كالخلق والرزق...»^(١).

وهنا يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ملخصاً دقيقاً عن الغيب، إذ فسره بأنه كل ما غاب عنا فلم ندركه، وكل ما غاب عنا فلم يدركنا، وأن اللّه غيب لأننا لم ندركه، ثم استدرك بأن اللّه ﷻ شهيد على العباد رقيب عليهم، فهو غيب عنا لكنه أقرب إلينا من حبل الوريد فسبحانه ﷻ.

كما أن هناك من العلماء من عرف الغيب باعتبار زمانه، فقسّمه إلى غيب ماضٍ وحاضر ومستقبل.

فعرف غيب الماضي بأنه: جميع الأحداث التي مضت وانقضت فلم نشهدها ولم نعلمها.

وغيب الحاضر: كل حدث يقع الآن لم نشهده ولم نعلمه، من ذلك ما يقع في البيوت الآن ويتناجى به الناس.

وغيب مستقبل: وهو كل ما سيحدث في مستقبل الزمان^(٢).

(١) مجموع الفتاوى - ابن تيمية - ٥٢/١٤.

(٢) انظر: الغيب والمستقبل - إلياس بلكا - مؤسسة الناشرين دمشق - ط١ - ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م - ٢٢، وانظر: الغيب وعلاماته دراسة على ضوء القرآن الكريم والسنة الشريفة - د. أمين منتصر - دار الفكر العربي - القاهرة - ط١ - ١٤٢٦هـ - ٢٥.

وبالتأمل في الأقسام السابقة نجد أن إطلاق تلك الأقسام على الغيب بمفهومه الشامل غير دقيق، لأنها تدخل ضمن دائرة الغيب المقيد لا المطلق، والأصوب أن يقال أنها أقسام للغيب المقيد، إذ إن الغيب المطلق لا يعلمه إلا الله جل جلاله.

وينى بعض أهل العلم على هذه الأقسام الثلاثة أقسام الإعجاز الغيبي فقالوا: إعجاز غيب الماضي والحاضر والمستقبل، هذا وإن استقام التقسيم الثلاثي لأزمنة الغيب المقيد فإنه لا يستقيم في شأن الإعجاز الغيبي في الكتاب والسنة، فغيب الماضي والمستقبل وردا في القرآن والسنة وأما غيب الحاضر فلم أجد له دليلاً نقلياً ولا عقلياً من الدعوة الإسلامية، لأن جميع ما أخبر به ﷺ من أمور غيبية كانت أنباء ماضية أو مستقبلية، فمن الأول قصص الأمم السابقة وأحوالهم مع أنبيائهم ودعاتهم، ومن الثاني غلبة الروم وفتح مكة وموت أبي لهب وامراته على الكفر وخروج النار والدجال وأشراط الساعة، إلا أنه يمكننا القول بأن إعجاز غيب الحاضر تحقق في دعوة عيسى عليه السلام عندما كان يخبر المدعوين بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، إذ إن الادخار والأكل من أفعال العادة اليومية، ويعزز هذا ورود الفعلين بصيغة المضارع مجرداً من أدوات المستقبل، قال تعالى حكاية عن معجزة عيسى عليه السلام: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُمْ مِّنْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١).

ونظراً لما عليه قوة أثر الدليل المستقبلي على المدعو، فإنني رأيت التركيز عليه في بحثي هذا، إن إخبار رسولنا ﷺ بكم كبير من

الحوادث الموهلة في غيب الماضي لهو دليل على صدق نبوته فهو النبي الأُمي في البيئة الأُمية، إلا أن أحداث غيب المستقبل تبقى أقوى أثراً في نفس المدعو، وأدعى لاستجابته للدعوة.

وبعد الوقوف على مفهوم الدعوة وإعجاز غيب المستقبل خرج الباحث بتصوير علمي عن مفهوم الدعوة إلى الله تعالى بإعجاز غيب المستقبل من جهة، وتحديد العلاقة بين الدعوة وإعجاز غيب المستقبل من جهة أخرى.

وبناء على ما تقدم يمكن القول بأن الدعوة إلى الله تعالى بإعجاز غيب المستقبل هي: الدعوة إلى الإسلام بما أطلع الله نبيه محمداً ﷺ في الكتاب والسنة من أنباء مستقبلية لم يقدر أحد على الإخبار بمثلها في زمانه ﷺ لخروجها عن طاقة الخلق.

شرح التعريف:

- الدعوة إلى الإسلام. خرج به كل دعوة إلى غير الإسلام.
- بما أطلع الله عليه نبيه محمداً ﷺ : خرج به ما أخبر الله أنبياءه ﷺ من أنباء غيب سوى نبينا محمد ﷺ كإخبار عيسى ﷺ بما يأكلون وما يدخرون، وإخبار الخضر موسى ﷺ بتأويل خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار.
- من أنباء مستقبلية: خرج به كل ما ورد في الكتاب والسنة من أنباء غيب الماضي كإخباره ﷺ بأحوال الأمم السابقة مع أنبيائهم. أو أنباء غيب وردت في غير الكتاب والسنة.
- لم يقدر أحد على الإخبار بمثلها في زمانه ﷺ لخروجها عن طاقة الخلق: خرج به بقية معجزاته ﷺ التي لم تتضمن أنباء غيب مستقبلي، كخروجه ﷺ أمام المشركين ليلة الهجرة ولم يره

أحد، كما خرج به كل أمر خارج عن طاقة الخلق يجري على غير يد الأنبياء ككرامات الأولياء وخوارق الدجال، كما خرج به أقوال الكهنة والسحرة والعرافين إذ إنها ضمن قدرة الخلق فهي علوم تتعلم وليست أموراً خارقة للعادة.

ويتحديد مفهوم الدعوة وإعجاز غيب المستقبل تبرز العلاقة بينهما، فالدعوة تبليغ لدين الله بأساليب شتى وطرائق مختلفة، وإعجاز غيب المستقبل أحد الأساليب الدعوية المؤثرة التي يخاطب به المدعوون، فيخاطب به المدعو المؤمن فيزيده إيماناً، ويخاطب به المدعو غير المسلم فيدله إلى الصراط المستقيم، أو يخلق في نفسه أسئلة تجاه الدعوة الإسلامية تبعثه على التفكير فيها، كما أن نصوص غيب المستقبل في الكتاب والسنة وردت في مواضع مختلفة ومتكاثرة، تحقق منها بعض أخبارها وسيتحقق البعض الآخر، فمن الأول عدم إسلام أبي لهب والوليد بن المغيرة كما أخبر القرآن الكريم، ومن الثاني خروج الدجال والمهدي وقيام الساعة وغيرها.

إن اقتران الدعوة الإسلامية بهذا الكم الكبير من الإخبار الغيبي يخلق في نفوس المدعويين أثراً عميقاً، وقيم حجة عليهم بأن المخبر بها صادق في دعواه، فلم يكن ليأتي بكل تلك الأخبار الغيبية من تلقاء نفسه لخروجها عن قدرة الخلق أجمعين، يقول الرازي عند شرح قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١) فأما الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة، وذلك لأن المنجمين الذين يزعمون استخراج الخبر لا يمكنهم ذلك إلا عن سؤال يتقدم، ثم يستعينون بآلة ويتوصلون بها إلى معرفة أحوال

الكواكب، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيراً، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بألة ولا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى، ثم إنه عليه السلام ختم كلامه بقوله كما في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١) والمعنى أن فيما تقدم معجزة قاهرة قوية دالة على صدق المدعي^(٢).

مجلة (١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.
الدراسات (٢) انظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - دار الكتب
الدعوية العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م - ٨٣/٨.

المبحث الثاني

من صور إعجاز غيب المستقبل في الدعوة الإسلامية

ورد في الكتاب والسنة كثير من أنباء غيب المستقبل، منها ما تحقق ومنها ما سيتحقق، وتشكل تلك النصوص مادة دعوية لا يمكن إحصاؤها في هذا البحث، ولكن سأعرض لبعض أنباء الغيب المستقبلي في الكتاب والسنة، وهي رسالة دعوية تتضمن دقة الإخبار بغيب المستقبل، والمتأمل فيها يوقن أن مصدر الإخبار إلهي، إذ لا يعلم الغيب إلا الله ﷻ، وإليك بعض الصور:

أولاً: من صور إعجاز غيب المستقبل الواردة في القرآن الكريم:

١ - الإخبار بهلاك أبي لهب وامراته على الكفر. قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾^(١)

قال ابن كثير: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ في جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، فلم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطنًا ولا ظاهراً لا مسراً ولا معلناً فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة^(٢)، لقد حارب أبو لهب الدعوة الإسلامية بكل ما أوتي من جهد، بل بلغت عداوته لهذه

(١) سورة المسد، الآيات: ١- ٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم - لإسماعيل بن كثير - مكتبة دار السلام -

الرياض - ط١ - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م - ٦٠٠/٤.

الدعوة مبلغ المترصد لها في كل مناسبة يشهدها، فكان النبي ﷺ يقف على القبيلة فيقول: يا بني فلان إني رسول الله إليكم أمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به، فإذا فرغ من مقالته، قال أبو لهب من خلفه: يا بني فلان هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه^(١)، إن أبرز ما يستوقف المتأمل في المشهد السابق تكذيب أبي لهب لنبينا ﷺ، وفي سورة المسد نزل الإخبار الإلهي بهلاك أبي لهب وامرأته على الكفر، فهل يستطيع رجل يدعي النبوة أن يخاطر بدعوته بخبر كهذا، إن الإخبار اليقيني بهلاك أبي لهب يدل دلالة واضحة على أن من أخبر محمداً ﷺ هو من يعلم السر وأخفى، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، إن وقوف أبي لهب أمام الكعبة وإعلانه لنطق الشهادتين كفيل بيث الاهتزاز تجاه الدعوة الإسلامية، ودفع بعض الناس إلى النظر لهذه الدعوة بعين الشك والريبة، إذ إن تكذيب نبينا محمد ﷺ أعظم أمانى مشركي مكة، ولكن القرآن الكريم يتحدى أولئك القوم، فلم يخبر بمصير أبي لهب وامرأته، بل تعدى ذلك إلى الإخبار بهلاك أبي جهل والوليد بن المغيرة على الكفر، فقال تعالى في شأن الأول ﴿حَدُّوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءٍ

أَجْعِيرُ ﴿١﴾ وقال في شأن الآخر: ﴿سَأُضْلِيهِ سَرًّا﴾ ﴿٢﴾ وكلاهما مات على الكفر.

٢ - الإخبار بانتصار الروم على فارس في أدنى الأرض، قال تعالى:

﴿الْعَمَّ ١﴾ غَلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾

فِي يَضْعَ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾.

لم يكن انتصار الروم على فارس حدثاً عابراً أو عادياً، وإن الحديث عن أقوى دولتين على وجه الأرض يعد فيصلاً مهماً في إعجاز غيب المستقبل، فلم ينحصر التحدي بهذا الإخبار الغيبي على المجتمع المكي أو القرى المحيطة به، وإنما تجاوزه إلى العالمية، وللمدعو أن يتأمل كيف لنبي أمي في بيئة أمية يخبر بأن الروم غلبت في أدنى الأرض، وهم من بعد هذه الغلبة سيفلبون وتكون لهم الصولة والجولة، بل إن الإخبار الإلهي لم يكتف بالحديث عن انتصار الروم على فارس، بل حدد حدوث الحدث في بضع سنين، والسؤال هنا هل يمكن لهذا النبي الأمي أن يخاطر بدعوته فيتنبأ بحدث عالمي من تلقاء نفسه فيضع دعوته عرضة للتصديق والتكذيب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَنَّا بِمُزْمَأٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَسْمِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٤﴾، فالذي أخبره ﷺ هو من

(١) سورة الدخان، الآية: ٤٧.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الروم، الآية: ١ - ٤.

(٤) سورة يونس، الآية: ١٥.

خلق الروم والفرس، وما أخبر به الله جل جلاله حقائق لا مناص منها، فقد وقع الحدث وفق الإخبار الغيبي فغلبت الروم الفرس، قال الرسعني: إنه كان بين فارس والروم حرب، فغلبت فارس الروم، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لكون الروم أهل كتاب، وفرح المشركون بذلك؛ لما بينهم وبين فارس من الاشتراك في الإشراف والاتحاد في التكذيب بالمعاد. وقال كفار قريش لأصحاب محمد ﷺ: لئن قاتلتمونا لنظهرن عليكم كما ظهر إخواننا على إخوانكم، فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا بِرُؤْمِهِمْ فِي آيَاتِ الْكُرْآنِ وَالْأَنْبِيَاءِ...﴾ الآية. فخرج بها أبو بكر الصديق إلى المشركين فقالوا: هذا كلام صاحبكم فقال: الله أنزل هذا، وكانت فارس قد غلبت الروم حتى اتخذوهم شبه العبيد. فقالوا لأبي بكر: نراهنك على أن الروم لا تغلب فارس، وكان الذي راهنه أبي ابن خلف، وقيل: أبو سفيان بن حرب، وذلك قبل تحريم الرهان، فقالوا لأبي بكر: اجعل بيننا وبينك أجلاً تنتهي إليه، فسموا بينهم ست سنين، فلام المسلمون أبا بكر على تسمية الست، وقالوا: هلاً قررتها كما أقرها الله تعالى، لو شاء الله أن يقول ستاً لقال، فمضت الست قبل أن تظهر الروم، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهر الروم على فارس^(١).

(١) انظر: رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز - عز الدين عبدالرزاق بن رزق الله الرسعني الحنبلي - تحقيق - أ.د. / عبدالملك بن دهيش - مكتبة الأسد - مكة المكرمة - ط١ - ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م - ٣/٦.

قال الزجاج: «وهذه من الآيات التي تدل على أن القرآن من عند الله؛ لأنه أنبأ بما سيكون، وهذا لا يعلمه إلا الله عز وجل»^(١).

٣ - الإخبار بتمكين المؤمنين واستخلافهم في الأرض:

قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢).

نشأت الدعوة الإسلامية ضعيفة مضطهدة في المجتمع المكي، فأعرض عنها كثير من سادة قريش وآمن بها بعض مواليهم، فكان المسلمون يسامون سوء العذاب لضعف شوكتهم وقلة عددهم وهوانهم على الناس، وما هجرة الصحابة (رضوان الله عليهم) إلى الحبشة مرتين ثم الأمر بالهجرة إلى المدينة إلا اتقاء شر القوم، وإيجاد بيئة مناسبة تحتضن الدعوة الإسلامية، فكان هجرته ﷺ مع صاحبه ﷺ امتداداً لحالة تسلط المشركين على الدعوة واتباعها، إذ هاجر ﷺ وصاحبه ﷺ خفية اتقاء الطلب، وبعد وصولهما إلى المدينة لم يكن المشركون ليدعوا المسلمين يعبدون ربهم ويدعون الناس إلى توحيد الله، فتريصوا بهم وقعدوا لهم كل مرصد، وفي ظل هذا التهديد والوعيد من مشركي مكة أصاب بعض أهل المدينة الخوف، لا سيما أنهم يدركون ما لمكة من ثقل ديني في نفوس العرب، إلا أن الله ﷻ

(١) معاني القرآن وإعرابه - إبراهيم الزجاج - عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٨هـ

- ١٩٩٨م - ١٧٥/٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

تكفل بحفظ هذه الدعوة فنزل الوعد الإلهي بتمكين المؤمنين وإبدال خوفهم أمناً واستخلافهم في الأرض، وهذا ما تحقق في عهده ﷺ وفي عهد خلفائه من بعده (رضوان الله عليهم)، ليكون هذا الوعد الإلهي شاهداً على مر العصور على مصدر الدعوة الإسلامية.

قال ابن عادل: بلغ أيها الرسول وأطيعوا أيها المؤمنون فقد «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح أن يستخلفهم في الأرض فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين، كما استخلف عليها من قبلهم في زمن داود وسليمان (عليهما السلام) وغيرها، وأن يمكن لهم دينهم، وتمكينه ذلك بأن يؤيدهم بالنصر والإعزاز، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً، بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم، ويأمنوا بذلك شرهم^(١).

قال أبو العالية: مكث النبي ﷺ بعد الوحي بمكة عشر سنين مع أصحابه، وأمروا بالصبر على أذى الكفار، فكانوا يصبحون ويمسون خائفين، ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة، وأمروا بالقتال، وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه، فقال رجل منهم: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع السلاح، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾^(٢). يعني: والله ليستخلفنهم في الأرض ليورثتهم أرض الكفار من العرب والعجم فيجعلهم ملوكها وسكانها^(٣) ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب - عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي - تحقيق

عادل أحمد ومعه آخرون - دار الكتب العلمية - بيروت - ٤٣٦/١٤ - ٤٣٧.

(٢) سورة النور، من الآية: ٥٥.

(٣) انظر: معالم التنزيل - الحسين البغوي - دار طيبة للنشر - ٥٩/٦.

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتينا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتى إليه رجل فشكى إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكى إليه قطع السبل، فقال: «يا عدي هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها: قال: «فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله» قلت فيما بيني وبين نفسي: «فأين من سعروا»^(١) البلاد، «وإن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى». قلت: كسرى بن هرمز، «ولئن طالت بك حياة لترين الرجل من مكة يخرج ملء كفه من فضة، أو ذهب يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله، وليلقين الله أحدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، وليقولن: «ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك» فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا الجنة، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم». قال عدي: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمره، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» - قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله تعالى وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي صلى الله عليه وسلم (يخرج الرجل ملء كفه)^(٢).

والشواهد على تحقق الوعد الإلهي أكثر من أن يحصيها هذا المقام، وكلها تصب في مصب حقيقة واحدة، وتؤكد أن هذا الدين لو لم يكن دين الله الذي ارتضاه للعالمين لوجد فيه المدعوون اختلافاً

(١) سعروا البلاد: أي أوقدوا نيران الفتن، ومنه سميت جهنم سعيراً، انظر شرح الحديث: الأنوار في شمائل النبي المختار - الحسين البغوي - دار الضياء -

بيروت - ط ١ - ١٤٠٩هـ - ١٩٩٨م - ٨٣/١.

كثيراً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(١) وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُتْرَةَ أَوْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢) وتبقى تلك الحقائق آيات بينات لمن أراد أن يتذكر أو كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٤ - الإخبار بدخول المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ

الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَإْمِنِينَ مُحْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ

وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(٣).

تعد هذه الآية الكريمة مرتكزاً مهماً في معالم الدعوة بإعجاز غيب المستقبل، ليس لتضمنها إعجازاً غيبياً وحسب، بل لطبيعة استجابة المدعويين عند تأخر تحقق الخبر، ومجمل تلك الأحداث أن الرسول ﷺ أخبر أصحابه (رضوان الله عليهم) أنهم سيدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ومقصرين وفقاً للرؤيا التي رآها ﷺ في منامه، إلا أنهم حينما وصلوا إلى الحديبية، صالح رسول الله ﷺ مشركي مكة على عدة شروط هي:

١- أن يرجع الرسول ﷺ من عامه، فلا يدخلها إلا بعد عام بسيفوف في أعمادها.

٢- إيقاف الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات.

٣- من أحب أن يدخل في عهد المسلمين أو قريش فله ذلك، ويعد الاعتداء عليه اعتداء على الطرف الموالي له.

(١) سورة النساء، من الآية: ١٢٢.

(٢) سورة النساء، من الآية: ٨٢.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

٤- من هرب من قريش إلى المسلمين يرد إلى قريش، ومن فر من المسلمين إلى قريش لا يرد إلى المسلمين^(١).

لقد أشعلت بنود هذه الاتفاقية غيظ المسلمين، فلم يعجبهم أمران الأول: ما يتعلق بأول بنود هذه الاتفاقية والذي ينص على عدم دخولهم مكة ذلك العام.

والثاني: أن الصحابة شعروا بالضيم والذلة في مضامين تلك الشروط، والذي يهمننا من هذه الحادثة هو تكدر الصحابة (رضوان الله عليهم) من البند الأول، إذ إن إخبار النبي ﷺ لهم بدخول المسجد الحرام بمثابة الحقيقة الواقعة، ورغم أن إخباره ﷺ لهم لم يتضمن عاماً بعينه إلا أنهم عندما تيقنوا عدم دخولهم ذلك العام أخذتهم موجة من التساؤلات والظنون، تمثل ذلك في أمره ﷺ لأصحابه (رضوان الله عليهم) بنحر الهدي بعد فراغه من إبرام الصلح من قريش، وكانت المفاجأة أن لم يقم أحد من الصحابة (رضوان الله عليهم) فدخل ﷺ على أم سلمة (رضي الله عنها) فذكر لها الأمر، فأشارت عليه أن اخرج ولا تكلم منهم أحداً وانحر هديك وادع حالكك، ففعل ﷺ فلما رأى الصحابة (رضوان الله عليهم) ذلك قاموا فنحروا وحلقوا.

إن مرد تأخر استجابة الصحابة (رضوان الله عليهم) لأمره ﷺ يعكس مدى شعورهم بالحزن، واندهاشهم من عدم تحقق ما أخبرهم به ﷺ من دخول المسجد الحرام، ولعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ كان أشدهم حزناً، فعن أبي وائل ؓ قال: جاء عمر بن الخطاب ؓ فقال يا رسول الله: ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال:

(١) انظر: الرحيق المختوم - صفي الرحمن المباركفوري - ط١ - ١٤٢٤هـ -

«بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى» قال: ففيم نعطي الدنيا في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً» فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً، فأتى أبا بكر، فقال يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه أبداً، فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: «نعم» فطابت نفسه ورجع^(١). والمتأمل في حال الصحابة وعمر (رضوان الله عليهم) يجد أن اهتزازاً خالط نفوسهم وهم أصحاب النبي ﷺ وأقرب الناس إليه، فلم يسبق للتاريخ أن رصد تأخر الصحابة (رضوان الله عليهم) لأمره ﷺ، ومرد تأخرهم عدم إدراكهم لحكمة ذلك الصلح، وعدم إحاطتهم بالغيب المستقبلي، إلا أن الذي يعلم السر وأخفى هو من أمر نبيه ﷺ بذلك الصلح قال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(٢)، فإذا كان هذا موقف الصحابة (رضوان الله عليهم) من غيب المستقبل، من حقيقة وقعت فكيف موقف سائر المدعويين، إن اختلاف خبر واحد أخبر به القرآن الكريم أو السنة المطهرة كفيلاً بأن يجعل أعداء الدعوة يشرقون به ويفربون، ولكنه كلام العليم الخبير، قال تعالى: ﴿أَفَلَا

(١) أخرجه مسلم - كتاب الجهاد والسير- باب صلح الحديبية في الحديبية - رقم

الحديث (١٧٨٥) - ٧٩٧.

(٢) سورة الفتح، من الآية: ٢٧.

يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿١١﴾ وهذا يؤكد دقة الأخبار الغيبية الواردة في الكتاب والسنة فقد تحقق الفتح ودخل المسلمون المسجد الحرام، وكان ذلك الصلح بداية طور جديد للمسلمين، إذ دخل الآلاف بعده في الإسلام^(١).

قال العز بن عبد السلام: ﴿الرَّيًّا﴾ كان الرسول ﷺ رأى أنه يدخل مكة على الصفة المذكورة فلما صالح بالحديبية ارتاب المنافقون فقال الرسول ﷺ: فما رأيت في هذا العام ﴿فَعَلِمَ﴾ أن دخولها إلى سنة ولم تعلموه أنتم، أو علم أن بها رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم ﴿ذَلِكَ فَتَحَاقِرِبًا﴾ صلح الحديبية^(٢).

٥ - الإخبار بعدم تمني اليهود الموت:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَهْرَاصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَزَّحٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ كانت اليهود تزعم أن الله تعالى لم يخلق الجنة إلا لإسرائيل وولده، فنزلت هذه الآية. ومن

(١) سورة النساء، من الآية: ٨٢.

(٢) انظر: الرحيق المختوم - صفى الرحمن المباركفوري - ٣٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن - عز الدين عبد السلام - تحقيق د. عبد الله الوهبي -

المحقق - الأحساء - ط١ - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م - ٢٠٩/٢ - ٢١٠.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ٩٤ - ٩٦.

الدليل على علمهم بأن النبي ﷺ صادق، أنهم ما تمنوا الموت، وأكبر الدليل على صدقه أنه أخبر أنهم لا يتمنون به بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ﴾ فما تمناه أحد منهم. والذي قدمته أيديهم: قتل الأنبياء وتكذيبهم، وتبديل التوراة.

والمعنى: ولتجدن اليهود في حال دعائهم إلى تمني الموت أحرص الناس على حياة، وأحرص من الذين أشركوا، ومثله ما جاء في سورة الجمعة، فالقرآن الكريم يتتبع شبههم ويرد على أباطيلهم بحجج عقلية ضمن أنباء غيب مستقبلي قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَمُرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ تُعْرَدُونَ إِنْ عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ وذلك أن اليهود، قالوا: نحن ولد إسرائيل الله، ابن ذبيح الله، ابن خليل الله، ونحن أولى به ﷺ من سائر الناس، وإنما تكون النبوة فينا. فقال الله عز وجل لنبيه (عليه الصلاة والسلام) ﴿قُلْ﴾ لهم إن كنتم ﴿أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ لأن الموت خير لأولياء الله من الدنيا، وذلك أن اليهود علموا أنهم أفسدوا على أنفسهم أمر الآخرة بتكذيبهم محمداً، وكانوا يكرهون الموت، فقيل لهم: لا بد من نزوله (بكم) بقوله تعالى: ﴿فَأِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾^(٢)، وفي مضامين هذا التحدي دعوة لليهود وغيرهم، وفيه آية لمن أراد منهم أن يتذكر بهذا الإخبار الغيبي.

(١) سورة الجمعة، الآيات: ٦، ٧، ٨.

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير - عبدالرحمن بن علي الجوزي - المكتب

الإسلامي - بيروت - ط ٤ - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - ٧٦ - ١٤٣٤.

ثانياً: من صور إعجاز غيب المستقبل الواردة في السنة المطهرة:

أ- تبشير أبي بكر وعمر وعثمان ؓ بالجنة:

عن أبي موسى ؓ قال: كنت مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة فجاء رجل فاستفتح فقال النبي ﷺ افتح له وبشره بالجنة، ففتحت له فإذا أبو بكر، فبشرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله، ثم جاء رجل فاستفتح فقال النبي ﷺ: افتح له وبشره بالجنة، ففتحت له فإذا هو عمر فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله، ثم استفتح رجل فقال لي: افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه فإذا عثمان، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ فحمد الله ثم قال الله المستعان^(١).

في هذا الحديث الشريف بشر ﷺ أبا بكر وعمر وعثمان ؓ بدخول الجنة، وكلهم عاش بعد صدور هذه البشارة سنين فلم يبدلوا تبديلاً، بل استقاموا على الصراط المستقيم حتى أتاهم اليقين، وإذا كان القرآن الكريم أخبرنا بعدم إيمان أبي لهب وامراته وأنهما من أصحاب النار، فالنبي الكريم ﷺ يخبرنا بثبات صحابته الكرام (رضوان الله عليهم) على الإسلام، والبشارة التي تقدم ذكرها لثلاثة من الصحابة ما هي إلى إحدى البشائر التي بشر بها النبي ﷺ أصحابه بالجنة وكلهم ثبت على دينه فكانوا كما أخبر عنهم ﷺ، لأن التبشير بالجنة يقتضي ثبات المبشرين بها حتى مماتهم.

كما أن في الحديث الشريف إخباراً غيبياً ورد في آخر الحديث، إذ بشر النبي الكريم (عليه الصلاة والسلام) عثمان بالجنة على بلوى تصيبه، وقد تحقق ذلك النبأ بظهور الفتنة في عهده ﷺ، إذ عارض شرذمة على قراراته وقويت شوكتهم حتى تسلق بعض المجرمين داره

مجلة

(١) أخرجه البخاري - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ - باب مناقب عمر بن

الخطاب، أبي حفص القرشي العدوي ؓ رقم الحديث (٣٦٩٦) - ٥٠٢. الدراسات

الدعوية

وقتلوه وهو يتلو القرآن الكريم، ويعضد هذا الخبر الغيبي ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صعد النبي صلى الله عليه وسلم أحداً وأبو بكر وعمر عثمان، فرجف بهم فقال: «أثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»^(١)، والسؤال المهم هنا، من أخبر محمداً صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم سيثبتون على الإسلام، ومن أخبره صلى الله عليه وسلم أن عمر وعثمان (رضي الله عنهما) سيقتلان في سبيل الله، إن هذه الأنبياء الغيبية رسالة مؤثرة للمدعو فإن كان مؤمناً ازداد إيمانه، وإن كان غير مسلم دفعته للإسلام.

ب- الإخبار بأن الحسن بن علي (رضي الله عنهما) يصلح بين فئتين من المسلمين:

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^(٢). يروي لنا التاريخ التفاف فئة عظيمة من المسلمين حول الحسن بن علي (رضي الله عنهما) وفئة أخرى حول معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما)، والتقت الفئتان للقتال إلا أن الحسن بن علي (رضي الله عنهما) آثر جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم، فتنازل عن الأمر لمعاوية رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري - كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - باب المناقب - رقم الحديث (٣٦٧٥) - ٥٠٠.

(٢) أخرجه البخاري - كتاب الصلح - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي رضي الله عنه: «ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين» رقم الحديث (٢٧٠٤) -

قال ابن حجر: فلما جرى الصلح بينه وبين معاوية قال له معاوية قم فتكلم، فقام فقال: (الحمد لله الذي هدى بنا أولكم وحقق بنا دماء آخركم، ألا إن أكيس الكيس التقى، وأعجز العجز الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون أحق به مني أو يكون حقي تركته لله، وإصلاح أمة محمد ﷺ وحقق دمائهم). ثم التفت إلى معاوية فقال: ﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمُنْعٌ لِّإِخْوَانِكُمْ﴾^(١). ثم استغفر ونزل عن المنبر، وفي هذا الحدث التاريخي تجلت إحدى دلائل النبوة، وسمي هذا العام عام الجماعة، لاجتماع المسلمين فيه على إمام واحد بعد الفرقة^(٢).

ففي هذا الحديث الشريف نبأ يخبر به النبي ﷺ أمته، بأن صلحاً بين فئتين عظيمتين من المسلمين سيتحقق على يد ابنه الحسن بن علي (رضي الله عنهما)، وتمضي السنون فيأتي أبو بكر وبعد أبي بكر عمر وبعد عمر عثمان وبعد عثمان علي (رضي الله عنهم أجمعين)، وبعد علي يتحقق ذلك النبأ العظيم، فيصلح الحسن بن علي (رضي الله عنهما) بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فسبحان من أنبأ نبيه نبأ المصلح والفريقين المتخاصمين.

(ج) الإخبار بأن الفئة الباغية ستقتل عماراً ﷺ:

عن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ لعمار: (تقتلك الفئة الباغية)^(٣).

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١١١.

(٢) انظر: مختصر سيرة الرسول ﷺ - محمد بن عبد الوهاب - رئاسة إدارة البحوث

العلمية والإفتاء - الرياض - ط٢ - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ - ٣١٧.

(٣) أخرجه مسلم - كتاب الفتن وأشراف الساعة - باب لا تقوم الساعة حتى يمر

الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٢٩١٦ - ١٢٥٢.

الدراسات
الدعوية

قال ابن حجر: تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ أن عماراً تقتله الفئة الباغية، وأجمعوا على أنه قتل مع علي بصفين سنة سبع وثمانين، وله ثلاث وتسعون سنة^(١).

فكان أتباع علي يتبعونه كأنه علم لهم، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي: شهدنا مع علي ﷺ صفين فرأيت عمار بن ياسر ﷺ لا يأخذ من ناحية من نواحيها ولا واد من أوديتها إلا رأيت أصحاب محمد ﷺ يتبعونه كأنه علم لهم^(٢).

قال النووي: هذا الحديث حجة ظاهرة في أن علياً ﷺ كان محقاً مصيباً، والطائفة الأخرى بغاة مجتهدون، فلا إثم عليهم لذلك، وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ من أوجه منها: أن عماراً يموت قتيلاً، وأنه يقتله مسلمون، وأنهم بغاة وأن الصحابة يتقاتلون، وأنهم يكونون فرقتين تبغي إحداهما على الأخرى، وكل هذا وقع مثل فلق الصبح، صلى الله على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى^(٣). وقد حاول جنود معاوية في هذه الواقعة أن يتجنبوا عماراً ما استطاعوا حتى لا تقتله سيوفهم، ولكن نبوءة الرسول قد حان أوانها، فأخذ بعض جنوده يقتلونه فمات عمار.

بهذا القتل عرف الناس أن الفئة الباغية التي قتلت عماراً هي فئة معاوية، لذلك بدأ بعض جنوده يتهيأون للتمرد والانضمام إلى علي

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني - تحقيق خليل مأمون - دار المعرفة - بيروت - ط١ - ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م - ١٣٠٠/٢.

(٢) انظر: موسوعة حياة الصحابة من كتب التراث - محمد سعيد مبيض - مؤسسة الريان - بيروت - ط١ - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م - ٢٥٦٦/٥.

(٣) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - النووي - ٢٤٧/١٨.

منهم عمرو بن العاص، إن ارتباك موقف أتباع معاوية رضي الله عنه يبرز مدى تأثير الإعجاز الغيبي في نفوس الفريقين، فسبحان من أنبأ نبيه صلى الله عليه وسلم بأمر القاتل والمقتول، إنها حقائق لا يملك المدعو إلا التسليم بها، والقبول والإيمان بمصدرها، بل تدفعه إلى البحث عن اقتفاء هذا الطريق القويم^(١).

(د) الإخبار بأن ناراً ستخرج من أرض الحجاز:

روى سعيد بن المسيب أنه قال: أخبرني أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى تخرج النار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى)^(٢).

قال ابن كثير في الشمائل: وقد ذكر أهل التاريخ وغيرهم من الناس، وتواتر وقوع هذا في سنة أربع وخمسين وستمئة، إذ ظهرت يوم الجمعة، واستمرت شهراً وأزيد منه، وتواتر عن أهل المدينة ظهورها شرقي المدينة تلقاء أحد، وأنها ملأت تلك الأودية، وقد سمع أهل المدينة قبل ظهورها بخمسة أيام أصواتاً مزعجة، وزلزلت المدينة بسببها، فلم تزل على حالها ليلاً ونهاراً حتى ظهر يوم الجمعة فانبجست الأرض عن نار عظيمة جداً، صارت مثل الوادي، طوله أربعة فراسخ في عرض أربعة أميال، يسيل الصخر منها حتى يبقى مثل الرصاص المذاب، ورأى الناس ضوءها يمتد إلى تيماء، بحيث كتب الناس على ضوءها بالليل، وكأن في بيت كل منهم مصباحاً، ورأى

(١) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم - عبدالله بن محمد عبدالوهاب - تحقيق عبدالله البسام - مطبعة النهضة الحديثة - ٤٤٤.

(٢) أخرجه مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز - رقم الحديث (٢٩٠٢) - ١٢٤٧.

الناس سناها من مكة، وأما بصرى فقد رأى أعراب بحاضرة بلد بصرى صفحات أعناق إبلمهم في ضوء هذه النار التي ظهرت من أرض الحجاز. عندها لجأ أهل المدينة إلى المسجد النبوي، وتابوا إلى الله وأنابوا مستغفرين مما سلف منهم واعتقوا الغلمان وتصدقوا على فقرائهم ومحاوليهم^(١).

لم يأخذ الإعجاز الغيبي شكل الإخبار عن أشخاص بأعينهم، كتبشير أبي بكر وعمر وعثمان (رضوان الله عليهم)، أو الإخبار بهلاك أبي لهب وامراته، بل تعدى ذلك إلى الإخبار عن تحرك الجماد وزلزال الأرض، وخروج النار لتكون آية دالة على من خلقها وأمرها بالخروج، ورسالة إلى العالمين تؤكد لهم أن من أخبرهم بخروجها رسول الهدى الذي لا ينطق عن الهوى، فأدت تلك النار رسالتها، وفزع الناس إلى ربهم منيبين، فسبحان من أخبر نبيه بدقة هذا الخبر الغيبي، فموعد خروجها قبل قيام الساعة، والمكان أرض الحجاز، والعلامة خروج نار من تلك الأرض، وتأكيداً لذلك كله تضيء النار أعناق الإبل ببصرى، وهذا ما تحقق كما أخبر ﷺ، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢).

(١) انظر: شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه - إسماعيل بن كثير - اعتنى به عبدالقادر الأرنؤوط - مكتبة العبيكان - الرياض - ط ١ - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م - ٦٠٠ - ٦٠١، وانظر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني - دار الريان للتراث - القاهرة - ط ١ - ١٤٠٧هـ -

المبحث الثالث

دلالة الإعجاز الغيبي على ربانية الدعوة وعالميتها

لم يخلق الله الخلق عبثاً، جن وإنس لا يحصيهم إلا الله، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١).

إن المتأمل في أحوال الخلق يجد أن لكل مخلوق بل لكل جزء من مخلوق وظيفته، فلم يكن خلق ذلك الجزء من المخلوق عبثاً، بل لحكمة ووظيفة يؤديها، وإذا كان هذا حال جزء من مخلوق فما ظنك بخلق الله من عهد آدم ﷺ إلى قيام الساعة، أمم تلو أمم أحاط بها خالقها وأمرها بعبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(٣).

فاقترن بكل رسالة آية تبين صدق الداعية، وأنه نبي مرسل من خالقهم، وأن عليه دعوتهم إلى عبادة الله وحده، فلم يكن طريق الأنبياء سهلاً، بل اعترضه إعراض أقوامهم ومجادلتهم في صدق دعوتهم، وطلبهم البرهان المؤيد لدعواهم، فقد لا يستوعب العقل البشري دعوى النبوة، فيتساءل المدعو عند سماع دعوى النبوة أحقاً هذا نبي؟ إذ إن من الشبه التي تنقدح في ذهن بعض المدعويين كيف يكون هذا رسولاً وهو بشر مثلنا، قال تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٣٦.

جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١١﴾ ، وقد عرض القرآن الكريم شيئاً من هذه الشبه على لسان بعض مدعوي الرسل قال تعالى: ﴿الرِّيَّاتِكُمْ بَنُو الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي آفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٢﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُقَفِّرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُوَخِّرَكُمْ إِلَىٰ إِلَهِ آجِلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ نَصُدُّوكمَا كَمَا كَفَرْنَا بِعِبَادَةِ آبَائِنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٣﴾ ، وتلحظ في الآيتين الكريمتين أمرين، أولهما: أن المدعويين هنا داخلهم الشك والريب تجاه دعوة الرسل ﷺ.

وثانيهما: أن المدعويين برروا شكهم بأن رسلهم بشر مثلهم، لهذا طلبوا سلطاناً مبيناً يثبت صدق دعواهم، وأنهم رسل من عند الله، ويقترّب من هذا المشهد الدعوي رد أصحاب القرية على رسلهم، قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٦﴾ .

إذ جعل أصحاب القرية بشرية الرسل مانعاً من تصديقهم، وكذا كان رد المدعويين من قوم نوح ﷺ قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْسِلُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴿١٧﴾ ، وكذلك رد المكذبين من قوم صالح

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٩ - ١٠.

(٣) سورة يس، الآيات: ١٣ - ١٥.

(٤) سورة هود، من الآية: ٢٧.

ﷺ قال تعالى: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾^(١)،
وقال تعالى حكاية عن تكذيب أصحاب مدين لشعيب ﷺ: ﴿ وَمَا أَنْتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكٰذِبِیْنَ ﴾^(٢).

إن هذه الآيات الكريمة وغيرها تصور تكذيب بعض المدعويين
لأنبيائهم ﷺ بزعم أنهم بشر مثلهم، ولم تكن دعوة نبينا محمد ﷺ
بدعاً من الدعوات السابقة، بل قيل له ما قيل لأخوته الأنبياء (عليهم
السلام)، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْسُحُ فِي الْأَسْرَاقِ
لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ تَنْذِيرًا ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ
بَيْنِنَا ﴾^(٤)، ومما تقدم يتضح أن بشرية الرسل ﷺ كانت أحد موانع
استجابة مدعويهم، فالفكرة التي أمام المدعو أن مدعي الرسالة بشر
مثلي، وأنى لي أعلم أنه مرسل من عند الله؟ ودرءاً لمثل هذا المانع أيد
الله أنبياءه بالمعجزات الساطعة والحجج القاطعة، ليعلم المدعوون
صدق دعوتهم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ
الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾^(٥) وفي الحديث الشريف عن أبي
هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله
آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٨٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧.

(٤) سورة ص، من الآية: ٨.

(٥) سورة الحديد، من الآية: ٢٥.

أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(١) والحديث الشريف هنا يقرر أن ما من نبي أرسل إلا أيد الله دعوته بالآيات التي تبين صدق دعواه، ولهذا تلحظ اشتراك جميع الأنبياء ﷺ في اقتران دعوتهم بالمعجزات، إلا أن ثمة أمراً مهماً، وهو أن إرسال أولئك الرسل ﷺ كان مختصاً بقوم ولم تكن دعوتهم موجهة إلى العالمين باستثناء خاتم الأنبياء ﷺ، لهذا نقرأ في القرآن الكريم آيات تتحدث عن إرسال نبي إلى قوم برسالة تخصصهم دون غيرهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾^(٥)، بينما يتحدث القرآن الكريم عن دعوة عالمية بعث بها محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٧).

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾^(٨). في هذه الآية الكريمة وجه

(١) أخرجه البخاري - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب قول النبي ﷺ «بعثت بجوامع الكلم» - رقم الحديث (٧٢٧٤) - ٩٩٩.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ٥٩.

(٣) سورة الأعراف، من الآية: ٦٥.

(٤) سورة الأعراف، من الآية: ٧٣.

(٥) سورة الأعراف، من الآية: ٨٥.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧. مجلة

(٧) سورة الفرقان، الآية: ١. الدراسات

(٨) سورة الأعراف، من الآية: ١٥٨. الدعوية

الخطاب الدعوي للناس جميعاً، وله نظير في دعوة الجن^(١). أيضاً قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾^(٢).

وهذه الآيات الكريمة وغيرها كثير تدل على عالمية الدعوة الإسلامية، فلم يكن خطاب الدعوة الإسلامية مقيداً بزمان أو مكان أو قوم بل هو خطاب موجه إلى العالمين حتى قيام الساعة، كما دلت كثير من الأحاديث الشريفة على عالمية الدعوة الإسلامية، فعن النبي ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الفنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون»^(٣).

وأيضاً قوله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(٤).

وهكذا نرى تكثر النصوص الشرعية الدالة على عالمية الدعوة الإسلامية، وأن خطابها موجه لكل مكلف منذ بعثة نبينا محمد ﷺ. ومن هنا حق للمرء أن يتأمل مشاهد دعوة الأنبياء ﷺ مع أقوامهم، وتحديدًا أولئك المدعوون الذين رأوا أن بشرية الرسل

(١) انظر: عالمية الدعوة إلى الله تعالى - محمد عمر الحاجي - دار المكتبي - دمشق - ط١ - ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م - ٤٥.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.

(٣) أخرجه مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - الباب الأول - رقم الحديث (٥٢٣) - ٢١٦.

(٤) أخرجه مسلم - كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ - إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته - رقم الحديث (١٥٣) - ٨٢.

تصطدم مع من يوحى إليه من السماء ، وأن على رسلهم تقديم بينة وآية تدل على صدق دعوى نبوتهم ، فموسى عليه السلام أدخل يده في جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء ولا علة ، وألقى عصاه أمام سحرة فرعون فإذا هي ثعبان مبين يلقف حبالهم وعصيهم ، وعلى إثر هذه المعجزة آمن السحرة وخرروا سجدواً لله رب العالمين ، وعيسى عليه السلام كان يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ، ويخبر مدعويه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، وقبلهما صالح عليه السلام أخرج لقومه الناقة العظيمة فأمن من آمن وكفر من كفر ، أقول إن المتأمل في تلك المشاهد الدعوية وما صاحبها من معجزات يلحظ أن المدعو نال فرصة الاطلاع على المعجزة التي تمثل البينة والدليل القاطع على صدق دعوى المرسل إليه.

لقد اقتصت تلك المعجزات بزمن معلوم هو مدة بعثة ذلك النبي ، فإذا مات ذهبت معجزاته ، ولنا أن نتساءل هل يستطيع يهودي اليوم يدعو إلى اليهودية أن يلقي عصا فترتد ثعباناً أو يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، وهل يستطيع أحد دعاة التصير أن يحيي الموتى وينبئ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم كما فعل عيسى عليه السلام ، بالتأكيد أن كل الخلق يعجزون عن الإتيان بمعجزات الأنبياء ، وهذه الحقيقة الثابتة أتت لتكيف مع طبيعة دعوات الأنبياء السابقين ، فكانت معجزاتهم عليهم السلام تلائم اختصاص القوم وتلائم ما اشتهر به المدعوون ، ولهذا كانت محدودة الزمان والمكان والمكلفين ، ولكن ماذا عن الدعوة العالمية ، دعوة الإسلام الممتد خطابها منذ فجر الإسلام حتى قيام الساعة ، والدين الذي لا يقبل الله

سواه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(١).

لقد أرسل الله الأنبياء ﷺ إلى أقوامهم خاصة، وأرسل نبينا محمداً ﷺ إلى الناس عامة، فعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الفنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة»^(٢).

إن مقتضى عالمية الدعوة الإسلامية بقاؤها إلى قيام الساعة، وأن تخاطب العالمين جنهم وإنسهم، وقد تقدم معنا أن المعجزات قرائن رسالات الأنبياء، تأتي لتكون ملائمة لطبيعة الرسالة وما اشتهر به المدعوون، ومن هنا كانت معجزات نبينا محمد ﷺ المقترنة برسالاته العالمية مختلفة عن سائر معجزات الأنبياء، فقد أجرى الله على يديه الكثير من المعجزات أمام مدعويه، من انشقاق القمر وإنزال الملائكة في بدر وأحد وتكثير الماء والطعام واللبن وحنين الجذع واهتزاز جبل أحد وإبراء المرضى، فكانت معجزات حسية انقضت في أوانها وأصبحت تروى للمدعوين فيقبلها المسلمون بالإيمان والتصديق، ومثل هذه المعجزات أعني الحسية قد لا تكون دليلاً مؤثراً على صدق

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٢) انظر: القول الأقوم في عموم رسالة سيدنا محمد إلى جميع الأمم - أحمد بن حجر

البنعلي - قطر - ط١ - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م - ١٨.

(٣) أخرجه البخاري - كتاب الصلاة - باب قول النبي ﷺ «جعلت لي الأرض مسجداً

وطهوراً» رقم الحديث (٤٢٨) - ٦٧.

دعوى عالمية الرسالة النبوية لدى غير المسلم، لذا نجد أن طبيعة الرسالة الخالدة اقتضت اقتران معجزة خالدة معها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١). بل تحدى الله سبحانه وتعالى من أعرض من المدعويين بالإتيان بمثل هذا القرآن.

قال تعالى: ﴿ قُلْ لِي أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾^(٢) كما تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٣) فَأَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(٤) ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٥) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا أَنَّهُمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾^(٦).

نزل هذا التحدي في العهد المكي بين ملوك الفصاحة من مدعوي قريش، فلم ولن يقدر أحد على الإتيان بسورة من مثله، كما تكرر هذا التحدي في العهد المدني الذي يضم مدعويين من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٧) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾^(٨).

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٣) سورة هود، الآيات: ١٣ - ١٤.

(٤) سورة يونس، الآيات: ٢٨ - ٢٩.

(٥) سورة البقرة، الآيات: ٢٣ - ٢٤.

لقد عجز المدعوون منذ نزول القرآن الكريم عن الإتيان بمثله، هذا لأن القرآن الكريم أتى ليكون معجزة خالدة وشاملة وباقية إلى يوم القيامة، ولم تكن أوجه الإعجاز القرآني والنبوي تتوقف عند وجه واحد من وجوه الإعجاز، بل تنوعت لتشمل جميع العصور وكل أصناف المدعوين، فإن تساءل مدعو هل من بينة ومن برهان يدل على صدق رسول الإسلام ﷺ؟

يجاب على تساؤله بأن معجزات نبينا محمد ﷺ خاطبت جميع الأزمة والأمكنة والمكلفين إلى قيام الساعة، وإعجاز غيب المستقبل أحد أوجه الإعجاز التي يخاطب بها المدعو على مر العصور، لقد كان ولا زال هناك فئة من الناس يعظمون مدعي الغيب، ويقدمونهم في مجالسهم الاجتماعية، وما تهافت كثير من العوام على الكهنة والعرافين إلا دليل على ذلك، وإن الإخبار بالأمور الغيبية يحمل دلالة قوية في نفوس المدعوين. بل كان الإخبار بالغيب أحد معجزات عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١).

لقد كان ﷺ رجلاً آمياً في بيئة أمية^(٢)، وعندما بعث نبياً إلى العالمين شرع بإخبارهم متيقناً بأمر ستحدث في مستقبل الأيام، ولم يكن ﷺ سوى نبي أمي لا يعلم الغيب قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْغَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران، من الآية: ٤٩.

(٢) انظر: أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة - أ. د. حمد بن ناصر العمار دار إشبيليا

- الرياض - ٣ - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م - ١٠٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

لقد أخبر ﷺ بكم كبير من أنباء غيب المستقبل وتحقق بعضها في عهده ﷺ، وتحقق بعض منها بعده، وسيتحقق كل ما أخبر به ﷺ ولم يستطع أحد من أعداء الدعوة الإسلامية أن يثبت عدم تحقق خبر أخبر به نبينا ﷺ فهو ﷺ لم يأت بشيء من عنده، وإنما أطلعه الله على الغيب، وإن دلالة إعجاز غيب المستقبل في نفوس المدعويين أقوى أثراً من غيب الماضي، فقد يثير المدعو شبهة أن غيب الماضي حدث وانتهى، وقد يكون نبيكم أخذه عن غيره، ولهذه الشبهة شاهد دعوي.

إذ سأل أحد الدعاة البروفسور (الفريد كرونر) أحد أشهر علماء الجيولوجيا في العالم فكان نص السؤال ما يلي: هل كانت بلاد العرب بساتين وأنهاراً؟ فأجاب: نعم، فقال الداعية متى كان هذا؟ قال في العصر الجليدي الذي مر على الأرض. ثم سأله الداعية وهل ستعود بلاد العرب بساتين وأنهاراً؟ قال نعم. فسأله الداعية لماذا؟ فقال: لأن العصر الجليدي قد بدأ، فهذه الثلوج تزحف من القطب المتجمد الشمالي مرة ثانية نحو الجنوب، وهي في طريقها لتقترب من المناطق القريبة من بلاد العرب، فقال له الداعية: لقد أخبرنا نبينا محمد ﷺ قبل ١٤٠٠ عام بما تقوله، ثم ذكر له الحديث الشريف: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»^(١) وسأله الداعية: من أخبر محمداً ﷺ أن بلاد العرب كانت بساتين وأنهاراً؟ فأجاب على الفور: الرومان، فقال له الداعية، إذن أوجه لك سؤالاً آخر: من أخبر محمداً ﷺ بأنها ستعود مروجاً وأنهاراً؟!

(١) أخرجه مسلم - كتاب الزكاة - باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها - رقم الحديث (١٠١٢) - ٤٠٧.

يقول الداعية: لقد كان هذا المدعو يفر إذا أخرج وإذا وجد فرصة، ولكنه إذا وجد الحقيقة يكون شجاعاً ويعلن رأيه بصراحة. فقال البرفسور: إن هذا لا يمكن أن يكون إلا بوحى من أعلى^(١)، وبالتالي في هذا المشهد الدعوى، تجد أمامك إخباريين غيبين.

الأول: أن أرض العرب كانت مروجاً وأنهاراً، والثاني: أن أرض العرب ستعود مروجاً وأنهاراً قبل قيام الساعة.

إن الخبر الأول هو جزء من أنباء غيب كثيرة وردت في الكتاب والسنة تخبرنا عن أحداث موعلة في القدم، ويشير القرآن الكريم في غير موضع منه أن تلك الأنباء الغيبية دليل على أن مصدر الدعوة

رباني، قال تعالى بعد ذكر قصة قوم نوح عليهم السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢)،

وقال تعالى في شأن اختصام القوم في كفالة مريم (عليها السلام):

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَرِيْمٌ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(٣)، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ

بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٤) فسمى القرآن

الكريم هذه الأنباء أنباء غيب تدل المدعو على أن مصدر هذه الدعوة رباني.

(١) انظر: إنه الحق - عبدالمجيد الزندانى - الهيئة العالمية للإعجاز العلمي بمكة

المكرمة - ط١ - ١٤١٧هـ - ٦٧.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

(٤) سورة القصص، الآية: ٤٤.

إلا أن بعض المدعويين كما تقدم في المشهد الدعوي السابق مع البرفسور (الفريد) قد يثير شبهة وهي أن نبينا ﷺ قد تلقى أنباء غيب الماضي من بشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبٍ مُّحِيٓٔ ۗ﴾^(١) لكن ورود الأنباء المستقبلية بكم كبير دون أن يكون بينها اختلاف يجعل المدعو أمام حقيقة واحدة لا مناص منه، وهي أن هذه الدعوة الإسلامية ربانية المصدر، فمن أخبر محمداً ﷺ بأن أرض العرب ستعود مروجاً وأنهاراً إلا اللطيف الخبير، إن المدعو لا يمكنه أمام حقائق غيب المستقبل إلا التسليم بها، فمنهم من يستجيب ومنهم من يعرض لكنه لا يملك إلا أن ينصف هذه الدعوة، كما تقدم مع عالم الجيولوجيا، وإذا سلم المدعو بأن هذه الدعوة ربانية المصدر، عليه أن يعلم أن من أخبر نبينا محمداً ﷺ بتلك الأنباء المستقبلية هو من قال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢) وهو من قال: ﴿إِذْ يَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣) وهو من قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤).

فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية وما تلك الأنباء المستقبلية إلا أحد دلائل ربانية الدعوة الإسلامية وعالميتها، إن التفكير في نبأ غيبي واحد يدفع المدعو إلى تصور عظمة تلك الأخبار الغيبية، فمحمد ﷺ يخبر بصيغة الجزم أن أبا لهب من أصحاب النار، وأنه وامراته لن يؤمنا،

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٣) سورة المائدة، من الآية: ٣.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

ولم يكن هذا الإخبار مختصاً بمآل هذين الاثنين فقط، بل شمل أبا جهل والوليد بن المغيرة. قال تعالى: ﴿حُدُوهُ فَاعْتَبِرْهُ وَإِنَّ سَوْءَ الْحَجِيرِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ ﴿١٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٢٠﴾﴾^(١).

وقال في مآل الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتَ لَهُ مَا لَا مَمْدُودَ ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتَ لَهُ تَمَهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ سَأَرَفْنَاهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَعَّرَ وَفَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِلْأَبْصَارِ نَوَّارٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

سَأَلِيهِ سَرًّا ﴿٢٦﴾﴾^(٢) إنها حقائق ساطعة وحجج قاطعة تعزز كمال هذه الدعوة العظيمة، وأن المعجزات المقترنة بهذه الدعوة جاءت ملائمة لعالميتها وخلودها إلى قيام الساعة، ولتخاطب جميع أصناف المدعوين على مر العصور، وأختم بحثي هذا بكلام نفيس لمناع القطان، حيث يقول: كانت معجزة محمد ﷺ في عصر مشرف على العلم معجزة عقلية تحاج العقل البشري وتتحداه إلى الأبد، وهي معجزة القرآن بعلومه ومعارفه، وأخباره الماضية والمستقبلية، فالعقل الإنساني على تقدمه يعجز عن معارضته لأنه آية كونية لا قبل له بها، فيكون هذا اعترافاً منه بأنه وحي الله إلى رسوله، وأن حاجته إلى الاهتداء به ماسة ليستقيم عوجه وترقى مواهبه، وهكذا كتب الله لمعجزة

الإسلام الخلود، فضعفت القدرة الإنسانية مع تراخي الزمن وتقدم العلم عن معارضتها^(١).

الغاية:

الحمد لله على تيسيره، وحسن ما صرف من أموره، الحمد لله على حسن صنعه، شكرًا على إعطائه ومنعه، وأصلي وأسلم وأبارك على سيد الخلق، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد انتهيت في هذا البحث إلى مفهوم الدعوة إلى الله تعالى بإعجاز غيب المستقبل، وبعض صور إعجاز غيب المستقبل في الدعوة الإسلامية، والعلاقة بين الدعوة وإعجاز غيب المستقبل، ويطيب لي أن أذكر أهم نتائج هذه الدراسة:

- ١- أن مفهوم الإعجاز يطلق ويراد به الأمر الخارق الذي جرى على أيدي الرسل.
- ٢- أن هناك أمورًا خارقة للعادة تجري على يد العبد الصالح أو الفاجر، ولا تدخل ضمن مفهوم المعجزات.
- ٣- أن العلوم التي تُتعلم مثل السحر لا تدخل ضمن الأمور الخارقة للعادة.
- ٤- أنه لا يمكن تعريف الغيب في الاصطلاح بمفهومه الشامل، لتعدد أقسامه. فمفهوم الغيب المطلق لا ينطبق على الغيب المقيد والعكس صحيح.

مجلة الدراسات الدعوية (١) انظر: مباحث في علوم القرآن - مناع القطان - مكتبة المعارف - الرياض - ط١ - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م - ٢٦٤.

- ٥- ورود صور إعجاز غيب الماضي والمستقبل بكثرة في نصوص الكتاب والسنة.
- ٦- ورود غيب الحاضر في دعوة نبي الله عيسى عليه السلام.
- ٧- عدم دقة إطلاق مصطلح الإعجاز التاريخي على الإعجاز الغيبي، إذ أن الأول يشمل فقط غيب الماضي، ولا يتسع لغيب الحاضر والمستقبل.
- ٨- لم يسجل التاريخ منذ فجر الدعوة الإسلامية تناقض غيب مستقبلي ورد في الكتاب أو السنة.
- ٩- يشكل حزن الصحابة (رضوان الله عليهم) إبان صلح الحديبية حدثاً بارزاً ومؤشراً مهماً على قوة دلالة إعجاز غيب المستقبل في نفوس المدعويين.
- ١٠- أن في إعجاز غيب المستقبل دلالة على ربانية الدعوة الإسلامية.
- ١١- أن في إعجاز غيب المستقبل دلالة على عالمية الدعوة الإسلامية.
- وبعد فهذه أبرز نتائج هذا البحث، وتحقيق علي أن أشير إلى أن الدعوة إلى الله بالإعجاز الغيبي يكاد ينعدم وجودها في الميدان الدعوي، فلم أرصد هيئة أو مؤسسة دعوية توظف الإعجاز الغيبي في الدعوة إلى الله تعالى، وياتصالي بالهيئة العالمية للإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي أفادوني أن الإعجاز الغيبي يعد أحد المحاور التي تناقش في مؤتمراتهم الدعوية، ولا يوجد له شعبة أو إدارة مستقلة، ولا يوجد له مؤسسة دعوية مستقلة تعنى بتوظيفه في الدعوة إلى الله تعالى، وفي تصوري أن الدعوة الإسلامية بحاجة إلى توظيف الإعجاز الغيبي مع المدعويين، لاندراجه ضمن الأدلة العقلية التي تدفع

المدعو إلى الإسلام أو التفكير فيه، وإنشاء هيئة مختصة بالإعجاز،
تخدم هذا الهدف النبيل.
وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين.

قائمة المصادر المراجع:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الإلتقان في علوم القرآن - عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - مكتبة دار المعارف - الرياض - ط١ - ١٤٠٧هـ.
- ٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - أبو السعود محمد أحمد العمادي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط٢ - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ٤- أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة - أ.د. حمد بن ناصر العمار - دار إشبيلية - الرياض - ط٣ - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ٥- الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني - تحقيق خليل مأمون - دار المعرفة - بيروت - ط١ - ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- ٦- الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم وأثره في الدعوة إلى الله تعالى - د. مصطفى السعيد - شركة أجيالنا - ط١ - ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ٧- الإعجاز العلمي في السنة النبوية - د. صالح أحمد رضا - مكتبة العبيكان - ط١ - ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ٨- إنه الحق - عبدالمجيد الزنداني - الهيئة العالمية للإعجاز العلمي بمكة المكرمة - ط١ - ١٤١٧هـ.
- ٩- الأنوار في شمائل النبي المختار - الحسين البغوي - دار الضياء - بيروت - ط١ - ١٤٠٩هـ - ١٩٩٨م.
- ١٠- الإيمان بالغيب - بسام سلامة - مكتبة المنار - الزرقاء الأردن - ط١ - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ١١- البحوث الإعلامية - د. محمد الحيزان - الرياض - ط١ - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ١٢- تفسير القاضي - حاشية محي الدين شيخ زاده - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ١٣- تفسير القرآن - عز الدين عبدالسلام - تحقيق د. عبدالله الوهيبي - الناشر المؤلف - الأحساء - ط١ - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- ١٤- تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن كثير - مكتبة دار السلام - الرياض - ط١- ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
- ١٥- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١- ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
- ١٦- تهذيب اللغة - منصور الأزهري - تحقيق عبدالحليم النجار - الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ١٧- جامع البيان في تأويل القرآن - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - دار الكتب العلمية - بيروت - ط٢- ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ١٨- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه - محمد بن إسماعيل البخاري - اعتنى به عبدالسلام علوش - مكتبة الرشد - الرياض - ط١- ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- ١٩- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن - محمد بن أحمد القرطبي - تحقيق د. عبدالله التركي ومحمد رضوان عرقسوسي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢- ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٧ م.
- ٢٠- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها - أحمد غلوش - دار الكتاب المصري - ط١- ١٣٩٩ هـ.
- ٢١- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية - محمد بن عبدالرحمن الراوي - مكتبة الرشد - الرياض - ط٣- ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- ٢٢- الرحيق المختوم - صفي الرحمن المباركفوري - ط١- ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- ٢٣- رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز - عز الدين عبدالرزاق بن رزق الله الرسعني الحنبلي - تحقيق أ. د عبدالملك بن دهيش - مكتبة الأسد - مكة المكرمة - ط١- ١٤١٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- ٢٤- زاد المسير في علم التفسير - عبدالرحمن بن علي الجوزي - المكتب الإسلامي - بيروت - ط٤- ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

- ٢٥- شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه - إسماعيل بن كثير
- اعتنى به عبدالقادر الأرنؤوط - مكتبة العبيكان - الرياض -
ط١- ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- ٢٦- صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج القشيري - دار ابن حزم - بيروت -
ط١- ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ٢٧- عالم الغيب - محمد خير الدرغ - دار الفكر - دمشق.
- ٢٨- عالم الغيب في العقيدة الإسلامية - أ.د محمد سيد السمير - نهضة
مصر - ط١- ٢٠٠٧ م.
- ٢٩- عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي - عثمان جمعة ضميرية -
مكتبة السوادى - جدة - ط١- ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ٣٠- عالمية الدعوة إلى الله تعالى - محمد عمر الحاجي - دار المكتبي -
دمشق - ط١- ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م.
- ٣١- الغيب والمستقبل - إلياس بلكا - مؤسسة الناشرورن - دمشق -
ط١- ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- ٣٢- الغيب وعلاماته - دراسة على ضوء القرآن الكريم والسنة الشريفة -
د. أمين منتصر - دار الفكر العربي - القاهرة - ط١- ١٤٢٦ هـ.
- ٣٣- فتح الباري في شرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني - دار
الريان للتراث - القاهرة - ط١- ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ٣٤- القول الأقوم في عموم رسالة سيدنا محمد إلى جميع الأمم - أحمد بن
حجر البنعلي - قطر - ط١- ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
- ٣٥- كرامات الصحابة - أسعد محمد الطيب - دار ابن حزم - بيروت -
ط١- ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٣٦- الكشف والبيان في تفسير القرآن - أحمد محمد الثعلبي - تحقيق
سيد كسروي حسن - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١- ١٤٢٢ هـ -
٢٠٠٤ م.
- ٣٧- لباب التأويل في معاني التنزيل - علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن
- ضبطه عبدالسلام محمد شاهين - دار الكتب العلمية - بيروت -
ط١- ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

- ٣٨- اللباب في علوم الكتاب - عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي - تحقيق عادل أحمد ومعه آخرون - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٣٩- لسان العرب - ابن منظور - دار صادر بيروت - ط١ - بدون تاريخ.
- ٤٠- مباحث في إعجاز القرآن الكريم - أ.د مصطفى مسلم - دار القلم دمشق - ط٢ - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- ٤١- مباحث في علوم القرآن - مناع القطان - مكتبة المعارف - الرياض - ط١ - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
- ٤٢- مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - العدد ٢١ - محرم ١٤١٩ هـ - تاريخ الدعوة في عهد النبي ﷺ وفقه الدعوة منه - د. عبدالرحمن بن سليمان الخليلي.
- ٤٣- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - جمع عبدالرحمن بن قاسم - دار عالم الكتب - الرياض - ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.
- ٤٤- مختصر سيرة الرسول ﷺ - عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب - مطبعة النهضة الحديثة.
- ٤٥- مختصر سيرة الرسول ﷺ - محمد بن عبد الوهاب - رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء - الرياض - ط٢ - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ٤٦- مدخل إلى علم الدعوة - أ.د عبدالرب نواب الدين - دار العاصمة - الرياض - ط١ - ١٤١٣ هـ.
- ٤٧- معالم التنزيل - الحسين بن مسعود البغوي - دار طيبة للنشر.
- ٤٨- معاني القرآن وإعرابه - إبراهيم الزجاج - عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ٤٩- المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات - ابن تيمية - تحقيق أحمد العيسوي - دار الصحابة للتراث - طنطا.
- ٥٠- معجم مقاييس اللغة - أحمد بن فارس - تحقيق د. محمد عوض - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط١ - ١٤٢٢ هـ.
- ٥١- مناهل العرفان في علوم القرآن - محمد عبدالعظيم الزرقاني - دار الفكر - ط١ - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

- ٥٢- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - محي الدين النووي -
دار المعرفة - بيروت - ط٣ - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٥٣- موسوعة حياة الصحابة من كتب التراث - محمد سعيد مبيض -
مؤسسة الريان - بيروت - ط١ - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

أهمية الأناة وأثرها في الدعوة إلى الله تعالى

إعداد

الدكتور/ حمود بن جابر الحارثي

الأستاذ المساعد في قسم الدعوة و الثقافة الإسلامية

بكلية الدعوة و أصول الدين

في جامعة أم القرى

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،

وبعد:

فإن الدعوة إلى الله تعالى التي يُراد لها النجاح والاستمرارية لا بُد أن تكون مهتدية بالمنهج النبوي، المنهج المستضيء بنور الوحيين الكتاب والسنة، والمترجم عملياً بأقوال الرسول ﷺ وأفعاله وسيرته في دعوته. ومن معالم ذلك المنهج النبوي الأناة، فقد كان ﷺ ذا أناة ورفق وثبت في تعاملاته، وفي بلاغه للوحي، وقد أدبه ربه على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ. وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(١). وكان من نهجه ﷺ ألا يُصدر الأحكام جزافاً، وقد نزل عليه قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلْسِنَتُنَا لَسْنَا بِمُؤْمِنَاتٍ نَبْتَدُوعَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾^(٢). وأثنى ﷺ على من اتصف بالأناة وبين أنها من الصفات التي يحبها الله، فقال ﷺ لأشج عبد القيس ﷺ: "إِنَّ فِيكَ حَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ"^(٣). إن هذه الخلة الحميدة لها من أهم الخلال التي تساعد على نجاح الداعية في دعوته، فهي حريية بأن تُبحث وتدرس دراسة دعوية يُفيد منها الدعاة إلى الله تعالى خاصة في هذا العصر الذي كثرت فيه الفتن، وقد اعتمد أعداء الدعوة على

(١) سورة طه، من الآية: ١١٤.

(٢) سورة النساء، من الآية: ٩٤.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، ١ / ٤٨، رقم ١٧.

وأخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التآني والعجلة ٤ / ١٩٦،

رقم ١٩٣٤.

بعض تصرفات المسلمين الخاطئة وخاصة الدعاة، فجعلوها طريقاً للنيل من الإسلام والدعوة. وهذا يوجب على أهل العلم زيادة الإمعان في دراسة سيرة النبي ﷺ وسنته واستتباط جزئيات المنهج النبوي في الدعوة إلى الله وتقديمها ناصعة للعاملين في الميدان الدعوي في دراسة دعوية تأصيلية، و بعد إطالة النظر في السنة والسيرة وجدت أن الأناة صفة عظيمة اتصف بها النبي ﷺ وحث عليها ومدح المتصفين بها. ومن خلال البحث و الرجوع إلى سجلات الرسائل العلمية و البحوث العلمية المحكمة في أقسام الدعوة في جامعات المملكة العربية السعودية^(١)، تبين لي أنه لم يسبق دراستها دراسة دعوية، فعقدت العزم بعد التوكل على الله تعالى على دراسة ذلك المصطلح الشرعي دراسة دعوية تحت عنوان (أهمية الأناة و أثرها في الدعوة إلى الله تعالى).

وقد اقتضت طبيعة الدراسة تقسيمها إلى مقدمة وخمسة مباحث على النحو الآتي:

المقدمة.

المبحث الأول: تعريف الأناة و أهميتها.

المطلب الأول: معنى الأناة اللغوي و الاصطلاحي

المطلب الثاني: نصوص الكتاب والسنة الدالة على أهمية الأناة.

(١) انظر: سجلات الرسائل العلمية في أقسام الدعوة في جامعات المملكة مع بعض البحوث العلمية المحكمة في المجالات العلمية المحكمة، جمع طلاب الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية للعام الدراسي ١٤٢٨ هـ، و مضاف إليها سجل البحوث المسجلة في مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية، و سجل الرسائل العلمية في جامعة الأزهر.

المطلب الثالث: أقوال العلماء الدالة على أهمية الأناة.

المطلب الرابع: الأناة خلق يمكن اكتسابه.

المبحث الثاني: أثر الأناة على الداعية.

المطلب الأول: الأناة في طلب العلم

المطلب الثاني: الأناة عند إيراد الدليل.

المطلب الثالث: الأناة قبل إصدار الفتوى.

المطلب الرابع: الأناة قبل الحكم على الناس.

المطلب الخامس: عدم استعجال النتيجة قبل أوانها.

المبحث الثالث: أثر الأناة على المدعو.

المطلب الأول: الأناة في اكتشاف حال المدعو.

المطلب الثاني: الأناة في اكتشاف البيئة المحيطة بالمدعو.

المطلب الثالث: الأناة قبل إنكار ما يظن أنه منكر.

المبحث الرابع: أثر الأناة في اختيار موضوع الدعوة

المطلب الأول: الأناة من أسباب تحقق الإحاطة بالموضوع.

المطلب الثاني: الأناة تُحقق إعمال قاعدة درء المفسد مقدم على

جلب المصالح عند طرح الموضوع.

المطلب الثالث: الأناة تُحقق تكوين الرؤية العلمية الصحيحة

للموضوع.

المبحث الخامس: أثر الأناة في وسائل الدعوة و أساليبها.

المطلب الأول: الأناة في اختيار الوسيلة وحسن استخدامها.

المطلب الثاني: الأناة عند اختيار الأسلوب وحسن استخدامه.

الخاتمة.

المراجع.

المبحث الأول تعريف الأناة وأهميتها

المطلب الأول تعريف الأناة:

أولاً: معنى الأناة اللغوي:

للأناة في اللغة العربية عدة معانٍ منها:

تَأْنَى: تَرْفَقُ، يُقَالُ: رَجُلٌ أَنْ: أَي كَثِيرُ التَّرْفُقِ. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّابِغَةِ:
الرَّفُقُ يُمْنٌ وَالْأَنَاةُ سَعَادَةٌ فَاسْتَأْنِ فِي رَفُقٍ تَلَاقٍ نَجَاحًا

تَأْنَى: تَنْظُرُ، وَتَأْنَى فِي الْأَمْرِ: أَي تَنْظُرُ وَاسْتَأْنَى بِهِ: أَي انْتَظِرْ بِهِ.

تَأْنَى: تَأَخَّرَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَطِيبَةِ:

وَإِنِّيْتُ الْعِشَاءَ إِلَى سُهَيْلٍ أَوْ الشُّعْرَى فَطَالَ بِي الْأَنْاءُ

تَأْنَى: أَبْطَأَ. وَمِنْهُ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ "أَنْ رَجُلًا جَاءَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ، فَجَعَلَ يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ:
اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ وَأَنِّيْتُ"^(١). وَيُقَالُ: فَلَانٌ حَيْرُهُ أَنِيٌّ: أَي بَطِيٌّ.

تَأْنَى: تَنْبَتَ، يُقَالُ تَأْنَى فِي الْأَمْرِ أَي تَنْبَتَ مِنْ تَحَقُّقِهِ.

تَأْنَى: تَمَهَّلَ، يُقَالُ: تَمَهَّلَ فِي تَدْبِيرِ الْأُمُورِ: أَي مَبْتَعِدٌ عَنِ الْعَجَلَةِ. وَ
لِذَلِكَ يُوصَفُ الرَّجُلُ الْمُتَأْنِي الْمَتَمَهِّلُ الْمَبْتَعِدُ عَنِ الْعَجَلَةِ بِأَنَّهُ: وَأَسْعَ
الْأَنَاةَ، بَعِيدَ الْأَنَاةِ، طَوِيلَ حَبْلِ الْأَنَاةِ^(٢).

(١) معرفة السنن والآثار، البيهقي، ١٧٢ / ٥، رقم ١٨٠٨. و سنن ابن ماجه، ١ /

٣٥٤، رقم ١١١٥. و صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ٢ / ٥٣، رقم ٩١٦.

(٢) انظر: في هذه المعاني: الصحاح تاج اللغة و صحاح العربية، إسماعيل بن حماد

الجوهرى، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ٨ / ١٥٣. و الصحاح في اللغة،

الجوهرى، ١ / ٢٦ و العين، الخليل بن أحمد، ٢ / ٢٠٥. و المحيط في اللغة،

الصاحب بن عباد، ٢ / ٤٧٨. و المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات،

حامد عبد القادر، محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، ١ / ٣١. و تهذيب

اللغة، لأزهري، ٥ / ٢٢٨. و معجم الفروق اللغوية، العسكري، ص ٥٠. و معجم=

ثانياً: معنى الأناة الاصطلاحي:

من خلال النظر في معاني الأناة عند علماء اللغة، والتفسير، و الحديث، و الألفاظ المرادفة لها كالتثبث و التمهّل، و الألفاظ المضادة لها كالعجلة وهي التقدم بالشئ قبل وقوعه يمكن تحديد معنى الأناة الاصطلاحي بأنها:

التأني والتريص والتثبث وترك الطيش و العجلة وضبط النفس عند الغضب حتى يستبين الصواب^(١).

إن الأناة إنما قصدت للاستظهار والاستبصار والتأمل و النظر في العواقب، و العجلة كثيراً ما تأتي بالعطب، و توقع في الحرج، و حينئذ لا ينفع الندم. و إن تأني الداعية وثبته في التعامل مع النصوص يجعله قادراً على تنزيلها على واقع المدعو مع اختيار الوسائل و الأساليب المناسبة بما يحقق أهداف الدعوة إلى الله وغاياتها. و من هنا تتبين أهمية الأناة في الدعوة إلى الله تعالى.

=مقاييس اللغة، ابن فارس، ١ / ١٤١، ١٤٢. و نجمة الرائد و شرعة الوارد في المترادف والمتوارد، إبراهيم اليازجي، ص ٨٦.

(١) انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي، ٦٠، ١٠٠، ٦٥. و شرح النووي على صحيح مسلم، ١ / ١٨٩. و شرح السنة، البغوي، ١٣ / ١٧٦. وسبل السلام شرح بلوغ المرام، الإمام محمد بن علي بن إسماعيل الصنعاني، ٦ / ٨٠. وفتح القدير، الشوكاني، ٥ / ٦٠. والتلوين والتحرير، ابن عاشور، ٧ / ١٤٥، ١٤٦. و زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ص ٢٨٨٠.

المطلب الثاني نصوص الكتاب والسنة الدالة على أهمية الأناة: أولاً: نصوص الكتاب:

من الآيات المباشرة التي تأمر بالأناة وتتهى عن الاستعجال ما يأتي:

١ - قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا

تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ

عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١﴾ .. و سبب

نزول هذه الآية كما يقول ابن عباس ؓ: " كَانَ رَجُلٌ فِي غَنِيمَةٍ

لَهُ فَالْحَقَّهُ الْمُسْلِمُونَ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غَنِيمَتَهُ

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ إِلَيَّ قَوْلَهُ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تِلْكَ

الْغَنِيمَةُ" (٢). قال القرطبي - رحمه الله - : (هذه الآية نزلت في

قوم من المسلمين مروا في سفرهم برجل معه جمل وغنيمة يبيعهها

فسلم على القوم وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فحمل

عليه أحدهم فقتله. فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ شق عليه فنزلت

الآية، وحمل رسول الله ﷺ ديته إلى أهله ورد عليه غنيماته) (٣).

ومعنى تبيينوا: أي تثبتوا من صحة الأمر، وتأنوا حتى يتبين لكم

الثابت من الأمر الذي لا يتبدل ولا يحتمل نقيض ما بدأكم. ولذلك قرأها حمزة، والكسائي: فتثبتوا (٤).

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً، ٤ / ١٦٧٧، رقم ٥٢٢٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥ / ٣٢٦.

(٤) انظر: المرجع السابق، ٥ / ٣٢٧. و الدر المنثور، السيوطي، ٢ / ٤٠٢، و ٤٠٣.

التحرير والتوير، ابن عاشور، ٥ / ١٦٧.

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ

رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(١). مما قاله العلماء في معنى الآية ما يأتي:

الأول: لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله.

الثاني: لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبريل من إبلاغه، لأنه كان

يعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبريل من إبلاغه خوف نسيانه.

الثالث: معناه لا تقرئه أصحابك، ولا تعجل في تأديته إليهم، ولا تمله

عليهم حتى يتبين لك معانيه^(٢). ففي ذلك دليل على ما كان

يتصف به النبي ﷺ من الجد في أمر الدين والبلاغ والحرص على

هداية الناس فأدبه ربه كما في هذه الآية بأداب البلاغ، وأمره

بالتأني لما يترتب على التأني من تأكيد العلم، ومن ثم حسن

البلاغ. ومثل هذه الآية آية سورة القيامة التي ستأتي برقم ٤.

٣- قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَ كُرُفَاتُ بَنِي فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا

بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَادِمِينَ﴾^(٣).

قرأها الجمهور: تبينوا، والتبين: تطلب البيان وهو ظهور الأمر،

وقرأها حمزة والكسائي وخلف: فتثبتوا، والتثبت: التحري

وتطلب الثبات وهو الصدق. وقال تعالى في آخر الآية: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا

بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَادِمِينَ﴾: أي تصيبونهم بخطأ، فتصيبوا

على ما فعلتم تادمين: على العجلة وترك التأني^(٤).

(١) سورة طه، من الآية: ١١٤.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البيهقي، ٥ / ٢٩٧. والنكت والعيون، أبو الحسن الماوردي،

٤٢٩ / ٣.

و تفسير الفخر الرازي، الفخر الرازي، ١ / ٣١٠٢.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦ / ٣١٢. والتحرير والتوير، ابن عاشور،

٢٦٦ / ٢٣١.

٤- قول الله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِن عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١١). كان الرسول ﷺ يعجل بذكر القرآن إذا نزل عليه من حبه له، و حلاوته في لسانه، فنهي عن ذلك حتى يجتمع، لأن بعضه مرتبط ببعض (٢).

٥- قول الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ (١٣). و المَكْتُ: الأناة واللَّبْتُ والانتظار، والمَكِيْتُ: الرزِين الذي لا يَعَجَلُ في أمره (٤).

٦- قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥). قال الإمام الشوكاني - رحمه الله - : (أي لو انتظروا خروجك ولم يعجلوا بالمناداة لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم لما في ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ ورعاية جانبه الشريف، والعمل بما يستحقه من التعظيم والتجليل) (٦).

ثانياً: نصوص السنة:

١- عن عبد الله بن عباس ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْأَشْجِّ، أَشْجَّ عَبْدُ الْقَيْسِ: إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْعِلْمُ وَالْأَنَاةُ (٧).

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١٦، ١٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٩ / ١٠٦.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥ / ٤٥٦.

(٥) سورة الحجرات، الآية: ٥.

(٦) فتح القدير، الشوكاني، ٥ / ٦٠.

(٧) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، ١ / ٤٨، رقم ١٧.

و أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التائي والعجلة، ٤ / ١٩٦

وفي رواية: " **إِنَّ فِيكَ لَخَصَلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْجِلْمُ وَالنَّانَاءُ**" (١).

٢- عن زارع وكان في وفد عبد القيس قال: لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحنا فنقبل يد النبي ﷺ ورجله قال وانتظر المُنذرُ الأشج حَتَّى أَتَى عَيْبَتَهُ فَلَيْسَ ثَوْبِيهِ ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: **إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْجِلْمُ وَالنَّانَاءُ**. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا. قَالَ: **بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا**. قَالَ: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ** (٢).

وفي مسند الإمام أحمد - رحمه الله - قَالَ ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: **إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجِلْمُ وَالنَّانَاءُ** (٣).

سبب مقولة النبي ﷺ لأشج عبد القيس:

وسبب قول النبي ﷺ ذلك له ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبي ﷺ وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه ثم أقبل إلى النبي ﷺ فقرر به النبي ﷺ وأجلسه إلى جانبه. ثم قال لهم النبي ﷺ: "تبايعون على أنفسكم وقومكم؟ فقال القوم: نعم. فقال الأشج: يا رسول الله إنك لم تزاوِل الرجل عن شيء أشد عليه من دينه، تبايعك على أنفسنا ونرسل من يدعوهم فمن اتبعنا كان منا ومن أبى قاتلناه. قال: صدقت إن فيك خصلتين... الحديث. ويتبين أنه ﷺ إنما قال ذلك للأشج لما ظهر له منه من رفقِهِ و تمهله وتَرُك عجلته (٤). وفعل الأشج ﷺ من شعار العقلاء.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، ١ / ٤٨، رقم ١٨.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في قبلة الرجل، ٤ / ٥٢٥، رقم ٤٥٤٨. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ٢ / ٢٨٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، باقي مسند المكثرين، باب مسند أبي سعيد الخدري،

٢٢ / ٢، رقم ١١١٩١، قال الأرئوط: رجاله ثقات وهو عند مسلم.

(٤) انظر: المفهم، القرطبي، ١ / ٩٣، ٩٤. و شرح النووي على صحيح مسلم، ١ / ١٨٩.

٣ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " الْأُنَاةُ مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ " (١).

٤ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " التَّائِي مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ " (٢).

الأناة عاقبتها حميدة ولا يترتب عليها إلا الخير فهي من الله تعالى. أما العجلة فلا تأتي بخير فهي وإن كانت بعلم الله وقدرته إلا أن سببها من الشيطان. ولذلك قال العلماء في قوله ﷺ: " والعجلة من الشيطان ": أي هو الحامل عليها بوسوسته لأن العجلة تمنع من التثبت والنظر في العواقب وذلك يوقع في المعاطب وذلك من كيد الشيطان ووسوسته (٣).

٥ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ الطَّلَاقُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَسُنَّتَيْنِ مِنْ خِلاَفَةِ عُمَرَ طَلَّاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةٌ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرِ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنْاءٌ فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ (٤).

أي: قد كان لهم في الطلاق مهلة، وسعة وبقية استمتاع بانتظار الرجعة (٥). فهذه الأناة جعلتهم يتساهلون في مسألة الطلاق ويفعلهم هذا استعجلوا وحرموا مهلة الرجعة، وبما أنهم لم يتأنوا عند إيقاع الطلاق فإن هذه العجلة أوجبت عليهم إمضاء الطلاق عليهم.

(١) أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التائي والعجلة، رقم ١٩٣٥. وحسنه الألباني في صحيح الجامع بلفظ " التائي... " كما في الحديث الذي بعده، ٢٨٧ / ١، رقم ٣٠١١.

(٢) صحيح الجامع، الألباني، ٢٨٧ / ١، رقم ٣٠١١.

(٣) انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي، ١ / ١٣٠، ١٣٦.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، رقم ١٤٧٢. والإمام أحمد،

مسند بني هاشم، باب بداية مسن عبد الله بن عباس، ١ / ٣١٤، رقم ٢٧٢٧.

(٥) انظر: المفهم، القرطبي، ١٣ / ٨٣. و عون المعبود، العظيم آبادي، ٦ / ١٩٨.

٦ - قال النبي ﷺ: " السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة"^(١).

٧ - قال النبي ﷺ: " التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة"^(٢).
 التؤدة: التثبث وترك الاستعجال والتوقف عن السرعة المذمومة. و
 أمور الدنيا والوسائل يتأني الإنسان ويتروى فيها، وأما بالنسبة لأمر
 الآخرة وخاصة العبادات المحضة فلا يتأني فيها، بل يقدم ويسارع،
 فلا بد فيها من منافسة ومسابقة، ولا بد فيها من الجد والاجتهاد، ولا
 بد فيها من اغتنام الفرص وعدم التساهل، بخلاف أمور الدنيا
 فالإنسان يتأني، وقد يكون في التأني الخير الكثير، بخلاف العجلة
 فإنه قد يترتب عليها شيء من الضرر، فالتأني والتروي في أمور الدنيا
 لا شك أنه خير للإنسان"^(٣).

(١) أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التأني والعجلة، ٤ / ٣٦٦،
 رقم ٢٠١٠. وصححه الألباني في صحيح الترمذي، ٢ / ١٩٥، وصحيح الجامع
 الصغير، ١ / ٢٨٧، رقم ٢٠١٠.

(٢) صحيح الجامع الصغير، الألباني، ١ / ٢٨٧، رقم ٢٠٠٩.

(٣) انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي، ١ / ٦، ٢٢٦. وشرح سنن أبي
 داود، عبد المحسن العباد، ١ / ٢.

المطلب الثالث أقوال العلماء الدالة على أهمية الأناة:

كان السلف الصالح يستحبون الأناة، ويحثون عليها، ومن أقوالهم فيها ما يأتي:

- ١ - أَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه سَأَلَ ابْنَهُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رضي الله عنه عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ أَمْرِ الْمُرُوءَةِ، - ومما سأله عنه - ، قَالَ: يَا بَنِيَّ فَمَا الْحَزْمُ؟ قَالَ: طُولُ الْأُنَاةِ، وَالرَّفْقُ بِالْوُلَاةِ^(١).
- ٢ - قَالَ عمرو بن العاص رضي الله عنه: لا يزال المرء يجتني من ثمرة العجلة الندامة ثم العجلة المذمومة هي ما كان في غير طاعة ومع عدم التثبت وعدم خوف الفوت^(٢).
- ٣ - قَالَ مجاهد وقتادة في قول الله تعالى: ﴿لَا تَحْرُوكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٣): معناه لا تقرئه أصحابك، ولا تمله عليهم حتى يتبين لك معانيه^(٤).
- ٤ - عن قبيصة بن جابر الأسدي قال: ألا أخبركم عن صحتي، ثم قال: وصحبت معاوية فما رأيت أحداً أكثر حلاً منه، ولا أكرم ولا أبعد أناة منه^(٥).

(١) المعجم الكبير، الطبراني، ٢ / ١٠٥، ١٠٦، رقم ٢٦٨٨، قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه عبد الله بن مسلم بن هرمز قال أبو حاتم يكتب حديثه وليس بالقوي، وبقية رجاله ثقات. (انظر: مجمع الزوائد، الهيثمي، ٤ / ١٢٢).

(٢) انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي، ١ / ١٦، ١٣٠.

(٣) سورة القيامة، الآية: ١٦.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥ / ٢٩٧.

(٥) التاريخ الكبير، البخاري، ٧ / ٧٩، رقم ٧٨٥.

- ٥ - ورد أن معاوية رضي الله عنه قال يوماً وعنده الأحنف: ما يعدل الأناة شيئاً. فقال الأحنف: إلا في ثلاث: تبادر بالعمل الصالح أجلك، وتعجل إخراج ميتك، وتتكح كفاء أيمك^(١).
- ٦ - قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - روي أن عمرو بن العاص رضي الله عنه كتب إلى معاوية رضي الله عنه يعاتبه في التأني، فكتب إليه معاوية رضي الله عنه أما بعد: فإن الفهم في الخير زيادة رشد وإن الرشيد من رشد عن العجلة، وإن الجانب من خاب عن الأناة، وإن المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيباً، وإن العجل مخطئ أو كاد أن يكون مخطئاً^(٢).
- ٧ - قال ابن القيم - رحمه الله - : إذا انحرفت عن خلق الأناة والرفق انحرفت إما إلى عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة، والرفق والأناة بينهما^(٣).

(١) فيض القدير، المناوي، ٩ / ٨٨.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي، غير محقق، ٢ / ١٨٦.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، ٢ / ٢١٠.

المطلب الرابع الأناة خلق يمكن اكتسابه:

الأناة خلق كبقية الأخلاق الإنسانية قد يُجبل عليها الإنسان منذ ولادته فتكون خلقاً ملازماً له وهبه الله إياه، وقد يولد الإنسان ويكبر وهو لا يتحلى بهذا الخلق، فيُدرّب نفسه ويُمربّها بالأفعال و الأسباب التي تُستجلب بها الأناة. والدليل على إمكانية اكتسابها قول أشج عبد القيس رضي الله عنه للرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا. قَالَ صلى الله عليه وسلم: بَلْ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا. قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ^(١). فلو أنه لا يمكن اكتسابها لبيّنه صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس عندما قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا. كما أنه قد ورد أيضاً في السنة ما يدل على أنها تُكتسب، فعن معاوية رضي الله عنه قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما يخشى الله من عباده العلماء"^(٢). لذلك ينبغي لطالب العلم والداعية على وجه الخصوص أن يتحرّى ويحرص ويجاهد نفسه على الحصول على خلق الأناة حتى يُنعم الله تعالى عليه بها، وهذا متحقق لا محالة إذا صدق العبد في ذلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في قبلة الرجل، ٤ / ٥٢٥، رقم ٤٥٤٨.

وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ٣ / ٢٨٢.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٥ / ٢٧٠، رقم ٢٦٢. قال ابن حجر: بعد أن

ذكر هذا الحديث بلفظه إسناده حسن أورده ابن أبي عاصم و الطبراني. (انظر:

فتح الباري، ابن حجر، (١ / ٢٩٤)، وحسنه الألباني بلفظ "إنما العلم بالتعلم وإنما

الحلم بالتعلم ومن يتجر الخير يُعطه ومن يتق الشر يوقه" (انظر: سلسلة الأحاديث

المصححة، الألباني، (١ / ٢٢٠).

" إن تصدق الله يصدقك " (١)، وأطال العمل و الصبر في طلبها، مع عدم الاستعجال، و مصاحبة أهل الخير والصلاح، فإن الناس مجبولون على اقتداء بعضهم ببعض، والتضرع إلى الله تعالى بأن يمنَّ عليه بهذه النعمة فقد كان من دعاء النبي ﷺ: "اللَّهُمَّ كَمَا حَسَنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي" (٢).

(١) أخرجه النسائي، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهداء، ٣ / ٢٢٣. وصححه

الألباني في صحيح سنن النسائي، ٢ / ٤٣.

(٢) أورده السيوطي في الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، ١ / ٢٣٠، رقم

٢٥١٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ١ / ١١٦، رقم ١٣٠٧.

المبحث الثاني أثر الأناة على الداعية

إننا في عصر السرعة الذي يستدعي من المرء إنجاز أعماله بسرعة، ومع أهمية المبادرة والتعايش مع الواقع إلا أنه لا بد من التأني والتروي مع الجد في الإنجاز والتوسط في تنفيذ العمل بتأن يأتي بالمطلوب ولا يضيع الوقت ويؤخره، هذا في حق المسلم، ويزداد أهمية في حق الداعية الذي يجب عليه أن يحسب الحساب لكل خطوة في طلبه للعلم، وفي فتواه، وفي حكمه بين الناس وعليهم، ولا يستعجل النتائج.

إن الموقف الدعوي يتطلب من الداعية إلى الله أن يكون على مستوى من الجد والسرعة في تطبيق الدعوة بعد اكتشاف طبيعة الموقف وتحديد كيفية التعامل معه، وهذا يتطلب توفر عدة أمور في شخصية الداعية تؤهله لسرعة تحديد المشكلة الدعوية وتحديد الكيفية المناسبة لعلاجها ليسلم من اتخاذ القرارات المتسارعة التي قد تؤدي إلى فقدان التوازن في التعامل مع الموضوع، فتسبق العجلة التأني، وتأخذ العاطفة أكثر من حقها الطبيعي فيتأثر الداعية في شخصه ويؤثر على المنهج الصحيح الذي كان ينبغي أن يسلكه. وسيحدد هذا المبحث في المطالب الآتية إن شاء الله كيفية تحقيق الداعية الأناة و الأثر الذي ينتج عنها على أدائه.

المطلب الأول الأناة في طلب العلم:

العلم هو زاد الداعية، والحصول على العلم يحتاج إلى أناة وصبر، ففي الحديث " أَنْ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ مَوَاقِيَتِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: اشْهَدْ مَعَنَا الصَّلَاةَ. فَأَمَرَ بِأَلَّا فَاذْنَ بِغَلَسِ فَصَلَّى الصُّبْحَ حِينَ طَلَعَ الْفَجْرُ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالظُّهْرِ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ عَنْ بَطْنِ السَّمَاءِ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْعَصْرِ وَالشَّمْسُ مُرْتَفِعَةٌ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْمَغْرِبِ حِينَ وَجَبَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْعِشَاءِ حِينَ وَقَعَ الشَّفَقُ. ثُمَّ أَمَرَهُ الْغَدَ فَنَوَّرَ بِالصُّبْحِ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالظُّهْرِ فَأَبْرَدَ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْعَصْرِ وَالشَّمْسُ بَيضاءُ نَقِيَّةٌ لَمْ تُخَالِطْهَا صُفْرَةٌ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْمَغْرِبِ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الشَّفَقُ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْعِشَاءِ عِنْدَ ذَهَابِ ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ بَعْضِهِ - شَكَّ حَرَمِيٌّ - فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: أَيُّنَ السَّائِلُ؟ مَا بَيْنَ مَا رَأَيْتَ وَقَتٌ" (١). إن الرجل أتى يطلب علماً وهو السؤال عن وقت الصلاة، ولو أجابه النبي ﷺ نظرياً لكفاه ذلك، ولكنه تأنى في الإجابة ليُري الرجل إجابة السؤال عملياً بفعل الرسول ﷺ مع صحابته ﷺ، وليُعلمه الأناة في طلب العلم، ولا شك أن نتيجة هذا التعليم أثبتت للعلم، وأوقع في نفس السائل. وهذا الذي ينبغي أن يحرص عليه الداعية فيتأنى في طلبه للعلم حتى يتحقق له حظٌّ وافرٌ منه ويتأدب بآداب طلب العلم وتطبيقه العملي. يقول الشنقيطي: (ينبغي على طالب العلم ألا يستعجل في طلب العلم، لأن الاستعجال يعتبر من آفات العلم في هذا الزمان، فقد كان السلف يعتنون بطول الزمان في طلب العلم، فكلما طال زمان طالب العلم كلما أحبه الله، وهىأه لمرتبة عظيمة في الإسلام، وكلما استعجل طالب العلم فظهر للناس ظهر على قصور، فقد تفقه عبد الله بن وهب

- وهو إمام من أئمة الحديث والفقہ - على يدي الإمام مالك -
رحمه الله تعالى - أكثر من عشرين سنة، وذكر عن الإمام مالك
رحمه الله أنه لما قرئ عليه الموطأ فيما يقرب من عام قال: كتاب
ألفته في أكثر من عشرين سنة، تقرؤونه في عام! ما أقل ما تفقهون
أي: ما أقل ما يكون لكم من الفقہ..^(١). وقال بكر أبو زيد -
رحمه الله - : (تحل بالثبات والتثبت، لا سيما في الملمات والمهمات،
ومنه الصبر والثبات في التلقي، وطى الساعات في الطلب على
الأشياخ، فإن من ثبت نبت)^(٢).

المطلب الثاني الأناة عند إيراد الدليل:

يجب على طالب العلم الداعية أن يتأنى و يتثبت من الدليل في أمور أهمها ثلاثة:

الأول: صحة الدليل إذا كان من السنة: فإن من الذب عن السنة تمييز صحيحها من سقيمها، وقد كفى السلف من علماء الحديث الخلف مؤنة البحث والتحري فعُتِنُوا بدراسة الأسانيد، ودونوا كتب الرجال والسير والتاريخ والجرح والتعديل التي تميز رواة الحديث وتحدد مراتبهم في الجرح والتعديل، ثم ألفت المؤلفات التي تبين درجة الحديث بحكم المعبرين من أهل الحديث. قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: (الإِسْنَادُ مِنَ الدِّينِ وَكَوَلَا الإِسْنَادُ لِقَالَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ)^(١)، وقال ابن سيرين: (إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم)^(٢) وبذلك يتحقق عدم الكذب على الرسول ﷺ فقد قال: " مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعِدَهُ مِنَ النَّارِ " ^(٣). إضافة إلى ذلك فإنه يجب التأنى و التثبت من صحة نسبة الأخبار إلى أصحابها وخاصة أقوال العلماء، لأن أقوالهم بمثابة الفتوى.

الثاني: تفسيره و معرفة معناه: فإن كان من القرآن فبمعرفة سبب النزول والناسخ والمنسوخ و المطلق والمقيد، لأن ذلك يعين على فهم الآية على وجه صحيح، فأولى الأقوال بتفسير الآية عند الاختلاف ما وافق سبب النزول الصحيح الصريح في السببية. فمعرفة السبب يُعين على فهم الآية، ويدفع الإشكال عنها، ويكشف الغموض الذي يكتنف

(١) صحيح مسلم، المقدمة، باب الإسناد من الدين، ١ / ١٢.

(٢) المرجع السابق، ١ / ١٢.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، ١ / ٢٣، رقم ١٠٩.

تفسيرها. ومثال ذلك اختلاف المفسرين في تفسير قول الله تعالى:

﴿وَلَيْسَ الرِّبَّانَ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾^(١) على أقوال:

١ - المراد بالبيوت المنازل المعروفة والإتيان هو المجيء إليها ودخولها.

٢ - المراد النساء، أي أمرنا بإتيانهن من القبل لا من الدبر.

٣ - أنها مثل يفيد أمر الناس أن يأتوا الأمور من وجوهها.

وأصح هذه الأقوال الأول، لما صح في سبب نزول هذه الآية أنه " كانت الأنصار إذا حجوا فرجعوا لم يدخلوا البيوت إلا من ظهورها فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه غير بذلك فنزلت هذه الآية"^{(٢) (٣)}.

ومن السنة ما ورد أن النبي ﷺ " نهى عن الإقعاء في الصلاة"^(٤)، وورد أن النبي ﷺ وصفه بإقعاء الكلب قال ﷺ: " يا علي! لا تقع إقعاء الكلب"^(٥).

و كما ورد في حديث آخر أنه سنة فقد صح عن طاوس أنه قال: " قُلْنَا لِابْنِ عَبَّاسٍ فِي الإِقْعَاءِ عَلَى الْقَدَمَيْنِ فَقَالَ هِيَ السُّنَّةُ. فَقُلْنَا لَهُ إِنَّا لَنَرَاهُ جَفَاءً بِالرَّجْلِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ بَلْ هِيَ سُنَّةُ نَبِيِّكَ ﷺ"^(٦).

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٨٩.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى و أتوا البيوت، ٢ / ٦٣٩، رقم ٨٥٠.

(٣) انظر: القول المبين في قواعد الترجيح بين المفسرين، فهد بن عبد الله الحزمي، ص ١٧، ١٨. و مع الشاطبي في مباحث في علوم القرآن، شائع الأسمرى، ص ٢٥.

(٤) المستدرک على الصحيحين، الحاكم، ١ / ٣٦٨، رقم ١٠٠٥، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وقال الذهبي في تعليقه على المستدرک على شرط البخاري.

(٥) أخرجه ابن ماجه، ١ / ٢٨٨. وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ٣ / ٢٢.

(٦) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب جواز الإقعاء على العقبين، ٢ / ٧٠، رقم ١٢٢٦.

وفي مثل هذا قد يقع الداعية في الحرج الشديد عندما ينهى عن الإقعاء مستدلاً بحديث النهي وهو لا يعرف معنى الإقعاء أولاً، ولا يعرف الأحاديث الواردة في المسألة و أقوال العلماء فيها ثانياً. إذاً يجب أن يُعرف معنى الإقعاء في العموم و إقعاء الكلب في الخصوص من كتب اللغة و أقوال العلماء.

أما الإقعاء فهو: أن يضع إليته على عقبه ويقعد مستوفزاً غير مطمئن إلى الأرض. و أما إقعاء الكلب والسبع فهو: أن يلصق إليته بالأرض وينتصب على ساقيه^(١).

قال الألباني - رحمه الله - : (ومما ينبغي أن يُعلم أن هناك سنة أخرى في هذا الموطن وهي سنة الإقعاء، وهو أن ينتصب على عقبه وصدور قدميه. وقد ذهب بعض أهل العلم إلى هذا الحديث من أصحاب النبي ﷺ منهم العبادلة الثلاثة عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ﷺ. وبالجملة فالإقعاء بين السجدين سنة، فينبغي الإتيان بها، كما كان رسول الله ﷺ يفعل. وأما أحاديث النهي عن الإقعاء فلا يجوز التمسك بها لمعارضة هذه السنة لأمر ثلاثة: أولاً: أنها كلها ضعيفة معلولة.

ثانياً: أنها إن صحت أو صح ما اجتمعت عليه فإنها تنص على النهي عن إقعاء كإقعاء الكلب، وهو شئ آخر غير الإقعاء المسنون. وهو أن يضع إليته على عقبه ويقعد مستوفزاً غير مطمئن إلى الأرض، وكذلك إقعاء الكلب والسبع أن يقعدا على ما أخيرهما وينصبا أفخاذهما.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ص ٨٥٥٥. و تهذيب اللغة، الأزهري، ١ / ٢١٦. و
النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، ٤ / ١٣٤. و غريب الحديث، ابن الجوزي،
الدراسات
الدعوية ١١١ / ٢.

ثالثاً: أنها تحمل على الإقعاء في المكان الذي لم يشرع فيه هذا الإقعاء المسنون، كالتشهد الأول والثاني، وهذا مما يفعله بعض الجهال فهذا منهي عنه قطعاً لأنه خلاف سنة الافتراش في الأول، والتورك في الثاني. والله أعلم^(١).

الثالث: إنزال الدليل منزله الصحيح وتطبيقه على موضع الاستدلال: ولا يتحقق ذلك إلا بتصور موضع الاستدلال تصوراً تاماً صحيحاً، ولذلك قال العلماء: الحكم على الشيء فرع عن تصوره، و أرادوا بذلك معرفة المسألة المراد بحثها والواقع المحيط بها، لأنه لا يستطيع الإنسان أن يتصور شيئاً لم يطلع على جميع ملابساته وجوانبه، ومن ثم كيف يستطيع أن يأتي بالحكم الملائم والمناسب له^(٢).

(١) إرواء الغليل، محمد ناصر الدين الألباني، ٢ / ٢٢، ٢٣.

(٢) انظر: الأصول من علم الأصول، محمد العثيمين، ص ٨٠. سؤال وجواب حول فقه

الواقع، محمد ناصر الدين الألباني، ص ١٠. وفقه الاستشارة، ناصر العمر، ص

٥٠. وفقه النوازل، محمد حسين الجيزاني، ١ / ٣٩، ٤٠.

المطلب الثالث الأناة قبل إصدار الفتوى:

كان المعلم الأول ﷺ قدوة الدعاة الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه لا يفتى في كثير من المسائل حتى يأتيه الجواب من ربه، مع أنه لا ينطق عن الهوى، وما يقوله وحي يوحى، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلِيلَةِ﴾^(١). قال العلماء: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسْأَلُ فَلَا يُجِيبُ، حَتَّى يَنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ^(٢). وفي الحديث " أن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَرِضْتُ مَرَضًا فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي وَأَبُو بَكْرٍ وَهُمَا مَاشِيَانِ فَوَجَدَانِي أُغْمِي عَلَيَّ فَتَوَضَّأَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ صَبَّ وَضُوءَهُ عَلَيَّ فَأَقَمْتُ فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي؟ كَيْفَ أَقْضِي فِي مَالِي؟ فَلَمْ يُجِبْنِي بِشَيْءٍ حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾"^(٣).

ومن الأمثلة على ذلك من سير السلف ما ذكره الذهبي أن السراج البلقيني الشافعي - رحمه الله - كان من أهل الفتوى في زمانه، وكان يكتب إليه من أقطار الأرض البعيدة وكان موقفاً فيها يجلس للكتابة عليها من بعد صلاة العصر إلى الغروب إلى أن صار يضرب به المثل في العلم ولا تركز النفس إلا إلى فتواه، وكان لا يأنف من تأخير الفتوى عنده إذا أشكل عليه منها شيء إلى أن يحقق أمرها من مراجعة الكتب وما ذاك إلا لسعة علمه، ولأن الفقيه عليه التروي وبذل الجهد في فتاويه ليصيب الحق في المسائل^(٤).

(١) سورة النساء، من الآية: ١٧٦.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي، ٢ / ٤٨٢. والجامع لأحكام القرآن، القرطبي،

٢٨ / ٦.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الفرائض، باب عيادة المغمى عليه، ٥ / ٢١٢٩، رقم ٥٢٢٧.

(٤) ذيل تذكرة الحفاظ، الذهبي، ص ٢١٠، ٢١١.

فواجب الداعية إن أراد أن يفتي أن يتأني ليعرف حال السائل ألا يكون متعنّياً، أو متتبعاً الرخص، أو من الذين يضربون آراء العلماء بعضها ببعض، أو غير ذلك من المقاصد السيئة، فمثل هؤلاء لا يُفتون، و أن لا يترتب على الفتوى ما هو أكثر منها ضرراً، فإن ترتب عليها ذلك وجب الإمساك عنها، دفعاً لأشد المفسدتين بأخفهما^(١).

المطلب الرابع الأناة قبل الحكم على الناس:

ورد في القرآن الكريم تأديب رباني لنبي من أنبياء الله داود عليه السلام، فيه بيان لأهمية الأناة قبل الحكم على الناس، وذلك في قصة داود عليه السلام عندما اختبره الله تعالى بإرسال ملكين في صورة رجلين متخاصمين يحتكمان إليه فاستعجل عليه السلام في إصدار الحكم على أحدهما قبل سماع جواب المدعى عليه قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا بِالْمِحْرَابِ ۝١١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝١٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَيْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝١٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى تَجَاوُهُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝١٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ۝١٥﴾^(١)، كأن داود عليه السلام قضى على إثر سماعه لهذه المظلمة الجائرة والتي عُرضت عليه في صورة مثيرة لأحد الخصمين من قبل أن يسمع من الآخر، فلم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً، ولم يسمع له حجة. و القاضي يجب عليه ألا يُستثار، وعليه ألا يتعجل، و ألا يسير مع الانفعال الأول، ويجب عليه التريث والتثبت والتبين، وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً^(٢).

(١) سورة ص، الآية: ٢١ - ٢٥.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي، ٧ / ٢٤. وتفسير الفخر الرازي، محمد الرازي، ١ / ٢٨٠.

و مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ٢٦ / ١٦٩. وقد قال الكثير من المفسرين: أن داود عليه السلام لم يستعجل ويحكم إلا بعدما سمع اعتراف الثاني أو سكوته لكونه نبي معصوم، أو أنه على تقدير: إن كان حقاً ما تقول. والصحيح أن الأنبياء =

ولكن داود عليه السلام سرعان ماتتبه، و أدركته طبيعته التي وهبه الله إياها كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ إِذْ أَوْدَىٰ الْأَيْدِيَّاتُ وَأَوَّابٌ﴾^(١) فاستغفر ربه كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَوَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾^(٢). و لذلك جاء التعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس فيقول تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٣).

و إذا كان هذا في أمر من أمور الدنيا فإن أمر الدين أعظم و أهم، والحكم على المسلمين بالفسق أو الفجور أو النفاق أو الكفر أمر خطير حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ورد أنه خرج لزيارة بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة من أكابر الصحابة فلما جلسوا " قال رجلٌ منهم: ما فعل مالكٌ لنا أراه؟ فقال رجلٌ منهم: ذاك مُنافِقٌ لنا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: لا تَقُلْ ذَاكَ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ لَنَا إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ. فقال اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ أَمَّا نَحْنُ فَوَ اللَّهُ لَأَنْتَ بِنَايَ وَدُهُ وَلَا حَدِيثَهُ إِلَّا إِلَى الْمُنَافِقِينَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَنَا إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ " ^(٤). فإطلاق

=معصومون في البلاغ وكبائر الذنوب، أما أحداث= قصة حكم داود عليه السلام فهي قصة تربية وتشريع يقوم بها الأنبياء بتوجيه رباني وليس فيها ما يناه في نبوة داود عليه السلام وعصمته. و الله تعالى أعلم.

(١) سورة ص، من الآية: ١٧.

(٢) سورة ص، من الآية: ٢٤.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب صلاة النوافل جماعة، ٢ / ٦٠، رقم ١١٨٦.

العنان لمثل هذه الأحكام ينضرو ولا يبشرو، ويورث الحقد والكرهية والفرقة، وكل ذلك ليس من الدعوة إلى الله في شيء، وقد حث الإسلام على كل ما يؤدي إلى تواد المسلمين وتحابهم واجتماعهم، ونهى عن كل ما يؤدي إلى تباغضهم وتفرقهم. قال سفيان بن حسين: (ذكرت رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية، فنظر في وجهي وقال: أغزوت الروم؟ قلت: لا! قال: السند والهند والترك؟ قلت: لا. قال: أفسلم منك الروم والسند والهند والترك ولم يسلم منك أخوك المسلم؟ قال: فلم أعد بعدها)^(١).

المطلب الخامس عدم استعجال النتيجة قبل أوانها:

إن استعجال النتائج قبل أوانها آفة من آفات الدعوة إلى الله، وقد أمر الله نبيه ﷺ بالبلاغ، وأن يكل النتيجة إلى الله، كما جاء في القرآن، أن الرسول ﷺ عندما استبطأ النصر هو والمؤمنون، واستعجلوا تحقق النتيجة كما حكا الله عنهم في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلاَ إِنَّا نَصُرُ اللَّهَ وَقَرِيبٌ﴾^(١)، بين الله لنبيه أن واجبه البلاغ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(٢)، وأمره بالصبر على الأذى والاستمرار في الدعوة فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا تُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا يُرْجِعُونَ﴾^(٣). يقول ابن عاشور - رحمه الله - : (أمر الله النبي ﷺ بالصبر على ما يلاقيه منهم، إذ الأمر بالصبر مفرغ على ما اقتضاه قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾^(٤)، فلما حصل الوعد بالانتصاف من مكذبي النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، أعقب بقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا تُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾^(٥) فإن مناسبة الأمر بالصبر عقب ذلك أن يكون تعريضاً بالانتصار له ولذلك فرغ على الأمر بالصبر الشرط المراد بين أن يريه بعض ما توعدهم الله به وبين أن لا يراه، فإن جواب الشرط حاصل على كلتا الحالتين وهو

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢١٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٠.

(٣) سورة غافر، الآية: ٧٧.

(٤) سورة غافر، من الآية: ٤.

(٥) سورة غافر، من الآية: ٧٧.

مضمون في قوله: ﴿فَالْيَايُرْجَعُونَ﴾ أي أنهم غير مفلتين من العقاب، فلا شك أن يرى النبي ﷺ أحد الأمرين عذابهم في الدنيا أو الدنيا والآخرة^(١).

و النبي ﷺ إمام الدعاة وقدوتهم في أقواله و أفعاله ومنهج دعوته، فقد أمره الله أن يستمسك بالوحي فإنه هو الصراط المستقيم و بموجب الالتزام به سيُسألون يوم القيامة، أما نتيجة الدعوة والنصر على المعارضين فإن الله قد تكفل بها وهي متحققة عاجلاً أو آجلاً، قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢) فِيمَا نَذِهَنَّا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ^(٣) أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ^(٤) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٥) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ^(٦)، إن تربية الوحي للنبي ﷺ كما في الآيات السابقة جعلته يقول لأصحابه ﷺ " وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ " ذمّاً للاستعجال، ففي الحديث يقول حَبَابُ بْنُ الْأَرْتِّ ﷺ: " شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكُعْبَةِ قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيْمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لِيُتَمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّأْكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الدُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ " ^(٧).

(١) التحرير والتوير، ابن عاشور، ٢٤ / ٢٠٨.

(٢) سورة الزخرف، الآيات: ٤٠ - ٤٤.

فيجب على الداعية المبادرة وحسن التخطيط و الاستعداد، ولا بد أن يصاحب ذلك التأني والتروي قبل الإعداد و أثناء التطبيق، والتأني المطلوب ليس هو الذي يضيع الوقت ويؤخره، فعليه الأناة في كل خطوة ولا يستعجل النتائج قبل أوانها.

المبحث الثالث

أثر الأناة على المدعو

المدعو هو حجر الزاوية في الدعوة، وهو هدف الدعوة و غايتها، و لا يتحقق الهدف و الغاية إلا إذا عُرف حال المدعو وطبيعته، وبناءً على هذه المعرفة بحال المدعو يعامل الخلق بحسب منازلهم ومناصبهم كل بما يلائم مكانته في الدين و العلم والشرف، فالكبير له التوقير والاحترام، والصغير يعامل بالرحمة والرفق، والنظير يعامله بما يحب أن يعامله به، و الملوك وأرباب الرئاسة بالكلام اللين المناسب لمراتبهم، و العلماء من حقهم التوقير والإجلال، والتواضع لهم، وإظهار الافتقار والحاجة إلى علمهم النافع، وكثرة الدعاء لهم، خصوصاً وقت تعليمهم وفتاواهم، والأغنياء تعودوا على المراكب الحسنة والمفارش الجميلة و الغذاء الوافر فلهم حق المراعاة في هذه الجوانب، وهكذا...، وتكوين هذه الصورة عن المدعو يحتاج إلى أناة الداعية وتثبته قبل البدء في تطبيق برنامجه الدعوي. وهذا ما تبينه المطالب الآتية بإذن الله تعالى.

المطلب الأول الأناة في اكتشاف حال المدعو:

إن من الحكمة أن يتأنى الداعية حتى يُكوّن لديه إلمامة بحال المدعو الذي سيوجه له دعوته فهل هو من كبراء الناس ووجهائهم أم من عامتهم؟ أهو من علمائهم أم من جهالهم؟ من أغنيائهم أم من فقرائهم؟ ثم ما هي الصفات الذاتية التي يُعرف بها؟ أهو كريم أم بخيل؟ أهو حليم أم غضوب؟ أهو شجاع أم جبان؟ أهو جرئي أم حيي؟ وهكذا... قال الإمام مسلم - رحمه الله - : (فلا يُقصر بالرجل العالي القدر عن درجته، ولا يُرفع متضع القدر في العلم فوق منزلته، ويعطى كل ذي حق فيه حقه، وينزل منزلته، وقد ذُكر عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم)^(١). وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجايف عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط"^(٢). قال المناوي - رحمه الله - : (أي احفظوا حرمة كل واحد على قدره، وعاملوه بما يلائم حاله في عمر ودين وعلم وشرف، فلا تسووا بين الخادم والمخدوم، والرئيس والمرؤوس، فإنه يورث عداوة وحقدًا في النفوس، وقد عد العسكري هذا الحديث من الأمثال والحكم وقال: (هذا مما أدب به المصطفى صلى الله عليه وسلم أمته من إيفاء الناس حقوقهم من تعظيم العلماء والأولياء، وإكرام ذي الشيبة، وإجلال الكبير وما أشبهه. فإن الإكرام غذاء الأدمي، والتارك لتدبير الله تعالى في خلقه لا يستقيم حاله، وقد دبر الله تعالى الأحوال لعباده غنى وفقراً، وعزاً وذللاً، ورفعة وضعة، ليبلوكم أيكم أشكر

مجلة

الدراسات

الدعوية

(١) صحيح مسلم، المقدمة، ١ / ٦.

(٢) صحيح الأدب المفرد، الألباني، باب إجلال الكبير، ص ١٤٨.

فالعامل عن الله يعاشر أهل دنياه على ما دبر الله لهم، فإذا لم ينزله المنزلة التي أنزله الله ولم يخالفه بخلق حسن فقد استهان به وجفاه وترك موافقة الله في تدبيره، فإذا سويت بين شريف ووضيع، أو غني وفقير في مجلس أو عطية، كان ما أفسدت أكثر مما أصلحت، فالغني إذا أقصيت مجلسه أو أحقرت هديته يحقد عليك لما أن الله تعالى لم يعود ذلك، وإذا عاملت الولاية بمعاملة الرعية فقد عرضت نفسك للبلاء^(١). وفي تقدير الصفات الذاتية جاء في الحديث " أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني قال: لا تغضب. فردد مراراً قال: لا تغضب"^(٢). قال ابن حجر - رحمه الله - : (لعل السائل كان غضوباً وكان النبي ﷺ يأمر كل أحد بما هو أولى به، فلهذا اقتصر في وصيته له على ترك الغضب)^(٣)، فأناة النبي ﷺ جعلته يكتشف حال المدعو من كثرة تكرار السؤال، فرأى أن الرجل غضوبٌ فكان المناسب لحاله الوصية بترك الغضب، كما أن صفة الغضب لا بد أن يقابلها تأنٍ وهدوء حتى يسكن هذا الغضب.

(١) فيض القدير، المناوي، ١١ / ١٤٦.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٥ / ٢٢٦٧، رقم ٥٧٦٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ٤ / ٣٥٩، ٣٦٠.

المطلب الثاني الأناة في اكتشاف البيئة المحيطة بالمدعو

من المؤكد أن الفرد يتأثر بالبيئة المحيطة به، أو التي ينشأ فيها، ومما يؤكد ذلك قول الرسول ﷺ: " مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفُطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ " (١).

ولذلك ينبغي للداعية أن يُكوّن تصوراً عن بيئة المدعو أهي بيئة مثقفة أم عادية؟ أهي بيئة حاضرة أم بادية؟ أهي بيئة غنية أم فقيرة؟ محافظة على مبادئها أم متأثرة بغيرها؟ متعلمة أم جاهلة؟ منفتحة أم منغلقة؟ كل ذلك لما للبيئة من تأثير في المدعويين سلباً وإيجاباً يُحتم على الداعية أن يُكيّف منهجه ووسيلته و أسلوبه وفق طبيعة هذه البيئة، وهذا يحتاج إلى التأنّي حتى يجمع ما يمكن جمعه من معلومات بالسؤال أو الخبرة أو الفراسة وما شابه ذلك. وشاهد ذلك من السنة قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ؓ عندما أرسله إلى اليمن: " إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ " (٢). إن هذا القول يؤكد أنه ينبغي على الداعية أن يعرف من يدعو ولذلك قال النبي ﷺ لمعاذ ؓ: إنك تأتي قوماً أهل كتاب. قال العلماء: أخبره بذلك لأمرين: أولها: ليكون بصيراً بأحوال من يدعو، وثانيها: أن يكون مستعداً لهم، متهيئاً لمناظرتهم. وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من معرفة بأحوال الناس، إما بالوحي، أو بالعلم والتجربة. وفيه أنهم أهل علم سابق و مخاطبة العالم ليست كمخاطبة الجاهل، وفيه كيفية الدعوة إلى الإسلام باعتبار أصناف الخلق في الاعتقادات (٣).

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ٤ / ٢٠٤٧، رقم ٢٦٥٨.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، ١ / ٢٧، رقم ١٣٠.

(٣) انظر: إيقاظ الأفهام في شرح عمدة الأحكام، سليمان محمد اللهميد، ٣ / ٧٥. و

المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، ١ / ٩٦. وعمدة القاري، العيني، ١٢ / ١٨٤.

المطلب الثالث الأناة قبل إنكار ما يظن أنه منكر:

إذا نمت إلى علم الداعية منكر في فرد أو جماعة فليتأن حتى يتأكد من صحة الخبر، حتى لا يُتَّهم بريء، وينهى عن أمر ليس له وجود، فيقع في الحرج، ويُتهم بالعجلة، ويفقد ثقة الناس، وقبل ذلك يُساعد في إشاعة الفاحشة التي نهى الله عنها، أو يُشغل الناس بعضهم ببعض، وكل ذلك ليس من آداب الإسلام والدعوة في شيء.

وفي سيرة النبي ﷺ أروع أمثلة التأنى والتثبت من الأخطاء والمنكرات التي يُخبر بها قبل أن يُنكرها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره المفسرون: (أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلي بني المصطلق مصدقاً، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القوم تلقوه تعظيماً لله تعالى ولرسوله فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم، فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي، ولكن الرسول الله ﷺ لم يتسرع في الأمر وتأنى، وإذا بهم يأتون رسول الله ﷺ وقالوا: سمعنا برسولك، فخرجنا نلتقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله تعالى، فبدا له في الرجوع، فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك بغضب. وفي رواية ذكرها القرطبي: أنه بعث خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونهم فلما جاؤوا أخبروا خالداً أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، ثم قدموا للنبي ﷺ بصدقاتهم، فنزل قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِِنْ جَاءَ كُرْفَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَجْهَلَتِهِمْ فَنُصِصُوا عَلَيْهِمْ وَمَا فَعَلْتُمْ بِهِمْ شَيْئًا﴾ (١) (٢).

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٢) انظر: أسباب نزول الآيات، الواحدي، ٣٦١/١. والجامع لأحكام القرآن، مجلة القرطبي، ٣١١/١٦. والآحاد والمثاني، أحمد الشيباني، ٣٠٩/٤. وتفسير القرآن، الدراسات ابن كثير، ٢٩/٦، وقال: إنه روي من عدة طرق أحسنها ما رواه الإمام أحمد = الدعوية

إن قول الوليد بن عقبة بن أبي معيط: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي، يدل على أنهم ارتكبوا أمراً استحقوا عليه القتال، فإن منع الزكاة ردة، وإرادة قتل رسول الله ﷺ منكر عظيم، ولكن الرسول الله ﷺ لم يتسرع في الأمر وتأنى وتثبت و كما ورد في الرواية التي ذكرها القرطبي أنه بعث خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل. إن هذا دليل على أنه يجب الأناة قبل إنكار ما يظن أنه منكر.

= والمعجم الكبير، الطبراني، ١٣ / ٥. وصحح الألباني الخبر في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٩ / ١٦، وقال: (وهذا إسناد صحيح، وقال السيوطي: سنده جيد).

مجلة
الدراسات
الدعوية

المبحث الرابع

أثر الأناة في اختيار موضوع الدعوة

يعتبر كل أمر أو قضية أو مسألة يساهم الداعية في بيانها بالحث عليها أو النهي عنها، مما يحفظ ضروريات الدين ومقاصده، و يراعي أولويات الدين و ثوابته، و يبرز خصائص الدعوة و مميزاتها فهي موضوع دعوة. ولأهمية هذا الأمر فإنه يحتاج إلى الأناة قبل طرح الموضوع أو إثارته، بمعرفة المسائل أهي من الثابت و الأولويات، أم من الفروع؟ أهي من المحكمات أم من المتشابهات؟ وما المصالح المترتبة عليها وما المفسد التي تحدث بسبب طرحها؟ مع استحضار قاعدة ارتكاب أخف الضررين بدفع أعلاهما، وكيفية إبراز خصائص الدعوة و مقاصدها من خلال هذا الموضوع. ومن المؤكد أنه لا تتحقق هذه الأمور إلا بالتأني و الثبوت وهذا ما تبينه المطالب الآتية:

المطلب الأول الأناة من أسباب تحقق الإحاطة بالموضوع:

إن الإحاطة بالموضوع من جميع أطرافه بالقراءة الشمولية، أو من خلال الخبرة، أو السؤال تتطلب التآني من الداعية، وهذا التآني يحقق صدق استشراف الفوائد الناتجة عن الموضوع المطروح. وهذا الجانب له أصل تطبيقي في سنة النبي ﷺ، تقول عائشة ؓ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: اهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ. فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ: اهْجُهُمْ فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرْضِ. فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ حَسَّانُ: قَدْ أَنْ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الْأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنْبِهِ ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأُفْرِيئَهُمْ بِلِسَانِي فَرِي الْأَدِيمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأُتَعَجَلَ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَسَابِهَا وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا حَتَّى يُلْخِصَ لَكَ نَسَبِي. فَأَتَاهُ حَسَّانُ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ لَحِصَ لِي نَسَبِكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَسْأَلَنَّ مِنْهُمْ كَمَا تُسْأَلُ الشَّعْرَةَ مِنَ الْعَجِينِ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِحَسَّانَ: إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ لَأُيْزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَقَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى.

قَالَ حَسَّانُ:

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْجَزَاءُ^(١)

عندما رأى النبي ﷺ الحماس المتدفق من حسان ؓ في قوله: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأُفْرِيئَهُمْ بِلِسَانِي فَرِي الْأَدِيمِ. خشي أن يوقعه هذا الحماس في محذور الوقعية في نسب النبي ﷺ بدون قصد. فأمره

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة ؓ، باب فضائل حسان بن ثابت ؓ، ٤ /

بالأناة المرادة في قوله ﷺ: لَا تَعْجَلْ. وليس هذا فقط وإنما دلل على من يعينه حتى يحيط بالموضوع من جميع جوانبه، صاحب المعرفة والخبرة الصديق ﷺ فقال له: فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا حَتَّى يُلْخِصَ لَكَ نَسَبِي. فذهب إلى أبي بكر ﷺ و تعلم منه أنساب قريش ونسب النبي ﷺ، فكانت نتيجة هذه الأناة والتوجيه أن عاد حَسَّانُ ﷺ من عند أبي بكر ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ لَخِّصَ لِي نَسَبَكَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَسْأَلَنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةَ مِنَ الْعَجِينِ، وكانت القصيدة العظيمة التي كانت أوقع من النبل على قريش. كل ذلك نتيجة الأناة والتوجيه النبوي الكريم لحسان ﷺ حتى أحاط بالموضوع وكون تصوراً كاملاً عنه.

المطلب الثاني الأناة تحقق أعمال قاعدة درء المفسد وجلب المصالح عند طرح الموضوع:

إن الاستعجال وعدم التأني من أهم العوامل التي تمنع الداعية من النظر والتأمل في عواقب الأمور، لذا يجب النظر إلى المصالح والمفاسد قبل الشروع في العمل وفق قاعدة درء المفسد مقدم على جلب المصالح^(١)، لأن ذلك أصل نبوي عمل به النبي ﷺ في مواضع وحوادث كثيرة، منها أن النبي ﷺ كان يرى في مكة أشد المنكرات وأعظم المحرمات ولم يسع إلى تغييرها خوفاً من زيادة المنكر عملاً بقاعدة درء المفسد مقدم على جلب المصالح. وفي حال القوة عمل النبي ﷺ بهذه القاعدة فقد دخل مكة منتصراً وأراد هدم الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم الخليل عليه السلام ولكنه لم يفعل ذلك مع قوته وإمكانيته حينها درءاً للمفسدة التي من الممكن أن تقع بعد ذلك.

أما الصورة التطبيقية للأناة لتحقيق أعمال القاعدة الجليلة درء المفسد مقدم على جلب المصالح فهي تظهر في هذا الحديث "عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ أَقْرَى رِجَالًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَبَيْنَمَا أَنَا فِي مَنْزِلِهِ بِمَنَى وَهُوَ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي آخِرِ حَجَّةٍ حَجَّهَا إِذْ رَجَعَ إِلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَالَ: لَوْ رَأَيْتَ رَجُلًا أَتَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ لَكَ فِي فُلَانٍ يَقُولُ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ لَقَدْ بَايَعْتُ فُلَانًا، فَوَ اللَّهُ مَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا فُلْتَهُ^(٢) فَتَمَّتْ. فَغَضِبَ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ: إِنِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَقَائِمُ الْعَشِيَّةِ فِي النَّاسِ

(١) انظر تفصيل القول في هذه القاعدة و أدلتها في: الوجيز في أصول الفقه، د. محمد

صدقي البورنو، ص ٢٦٥.

(٢) فلتته: فجأة من غير تردد ولا تدبر، وهي كلمة تقال فيما يُندم عليه. (انظر: تاج

العروس، الزبيدي، ص ١١٣٩. و الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، ٣ / ١٣٩).

فَمَحَدَّرَهُمْ هَوْلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْصِبُوهُمْ أُمُورَهُمْ^(١)، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا تَفْعَلُ، فَإِنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ رَعَاعَ النَّاسِ^(٢) وَغَوْغَاءَهُمْ^(٣)، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَغْلِبُونَ عَلَى قُرْبِكَ حِينَ تَقُومُ فِي النَّاسِ، وَأَنَا أَحْشَى أَنْ تَقُومَ فَتَقُولَ مَقَالَةً يُطِيرُهَا عَنْكَ كُلُّ مُطِيرٍ^(٤)، وَأَنْ لَا يَعُوهَا وَأَنْ لَا يَضَعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا، فَأَمَهَلُ حَتَّى تَقْدِمَ الْمَدِينَةَ فَإِنَّهَا دَارُ الْهَجْرَةِ وَالسُّنَّةِ فَتَخْلُصَ بِأَهْلِ الْفِقْهِ وَأَشْرَافِ النَّاسِ فَتَقُولَ مَا قُلْتَ مُتَمَكِّنًا، فَيَعِي أَهْلُ الْعِلْمِ مَقَالَاتِكَ وَيَضَعُونَهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا. فَقَالَ عُمَرُ: أَمَا وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَأَقُومَنَّ بِذَلِكَ أَوَّلَ مَقَامٍ أَقُومُهُ بِالْمَدِينَةِ". وفي رواية "فَقَالَ عُمَرُ لَأَقُومَنَّ الْعَشِيَّةَ فَأَحَدَّرَ هَوْلَاءِ الرَّهْطِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْصِبُوهُمْ قُلْتُ لِمَا تَفْعَلُ فَإِنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ رَعَاعَ النَّاسِ يَغْلِبُونَ عَلَى مَجْلِسِكَ فَأَخَافُ أَنْ لَا يُنْزِلُوهَا عَلَيَّ وَجْهَهَا فَيُطِيرُ بِهَا كُلُّ مُطِيرٍ فَأَمَهَلُ حَتَّى تَقْدِمَ الْمَدِينَةَ دَارَ الْهَجْرَةِ وَدَارَ السُّنَّةِ فَتَخْلُصَ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فَيَحْفَظُوا

(١) يغصبوهم أمورهم: يثبون على أمر الأمة وولايتهم بغير عهد و لا مشاورة. (انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٢ / ١٨٠).

(٢) رَعَاعُ النَّاسِ: الرعاع الأحداث، و رعا ع الناس جهالهم و سقَاطهم و سفلتهم ومن لا عقول لهم. (انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٨ / ١٢٨. و الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، ٢ / ٦٦).

(٣) الغوغاء: صغار الجراد عندما يبدأ الطيران، و يطلق على السفلة المسرعين إلى الشر. (انظر: تهذيب اللغة، الأزهرى، ٣ / ١٠٨. و غريب الحديث، الحربي، ١ / ٢٢٥).

(٤) يُطِيرُهَا عَنْكَ كُلُّ مُطِيرٍ: يحملونها على غير وجهها و لا يعرفون المراد بها. (انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٢ / ١٨١).

مَقَالَتِكَ وَيُنزِلُوهَا عَلَيَّ وَجْهَهَا فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَقُومَنَّ بِهِ فِي أَوَّلِ مَقَامٍ أَقُومُهُ
بِالْمَدِينَةِ^(١).

لقد سمع عمر بن الخطاب ؓ كلمة أغضبته وهي قول الرجل: يَا
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ لَكَ فِي فَلَانٍ يَقُولُ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ لَقَدْ بَايَعْتُ فَلَانًا
فَوَاللَّهِ مَا كَانَتْ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا فَلْتَةً فَتَمَّتْ. وهذا أمر خطير، و
جُرْأَةٌ مِنْ سَفَهَاءِ خَاضُوا فِي أَمْرِ الْأُمَّةِ الَّذِي لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْعُلَمَاءِ
الْمُسْلِمِينَ وَخَاصَتِهِمْ، وَقَدْ حُجَّ فِي خِلَافَةِ الْخَلِيفَةِ الْأَوَّلِ أَبِي بَكْرٍ
الصِّدِّيقِ ؓ وَهَذَا مَوْضُوعٌ لَا بَدَلَ لَهُ مِنْ بَيَانٍ. لِذَلِكَ يَقُولُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
بْنُ عَوْفٍ ؓ: فَغَضِبَ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ إِنِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَتَقَائِمُ الْعَشِيَّةَ فِي
النَّاسِ فَمُحَذَّرُهُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْصِبُوهُمْ أُمُورَهُمْ. وَهَذَا جَاءَ
التَّانِي لِدَرْءِ الْمَفْسُودَةِ فَالْحَجَّ يَجْمَعُ عَامَةَ النَّاسِ وَرِعَاعَهُمْ، وَالمَوْضُوعُ
جِدُّ خَطِيرٍ، فَلَرُبَّمَا يَحْمِلُونَ الْكَلَامَ عَلَى غَيْرِ مَحْمَلِهِ، وَيَخُوضُونَ فِي
أَمْرٍ لَا يَجُوزُ الْخُوضُ فِيهِ، فَتَقَعُ مَفْسُودَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ تُؤَدِّي إِلَى تَفْرُقِهِمْ.
فَتَدْخُلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ؓ وَأَشَارَ بِتَأْجِيلِ الْحَدِيثِ فِي هَذِهِ
السَّأَلَةِ حَتَّى يَعُودَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ: لَأَتَفَعَّلُ فَإِنَّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ رِعَاعَ
النَّاسِ يَغْلِبُونَ عَلَيَّ مَجْلِسِكَ فَأَخَافُ أَنْ لَا يُنْزِلُوهَا عَلَيَّ وَجْهَهَا فَيُطِيرُ بِهَا
كُلَّ مُطِيرٍ فَأَمْهَلُ حَتَّى تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ دَارَ الْهَجْرَةِ وَدَارَ السُّنَّةِ فَتَخْلُصَ
بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالنَّاصِرِ فَيَحْفَظُوا مَقَالَتَكَ
وَيُنْزِلُوهَا عَلَيَّ وَجْهَهَا. وَالرَّوَايَةُ الْأُخْرَى: فَأَمْهَلُ حَتَّى تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ فَإِنَّهَا
دَارُ الْهَجْرَةِ وَالسُّنَّةِ فَتَخْلُصَ بِأَهْلِ الْفِقْهِ وَأَشْرَافِ النَّاسِ فَتَقُولَ مَا قُلْتَ
مَتَمَكَّنًا فَيَعِي أَهْلُ الْعِلْمِ مَقَالَتَكَ وَيَضْعُوبُهَا عَلَيَّ مَوَاضِعُهَا. فَاسْتَجَابَ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، ٦ /
٢٥٠٢، رقم ٦٨٢٠، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما ذكر النبي ﷺ
وحض على اتفاق أهل العلم وما اجتمع عليه الحرمان مكة والمدينة..، رقم ٧٢٢٣.

عمر رضي الله عنه لهذا الرأي الحكيم درءاً للمفسدة، فقال: وَاللَّهِ لَأَقُومَنَّ بِهِ فِي أَوَّلِ مَقَامٍ أَقُومُهُ بِالْمَدِينَةِ. قال ابن حجر - رحمه الله - : (فيه التبيهة على أن العلم لا يودع عند غير أهله، ولا يحدث به إلا من يعقله، ولا يحدث القليل الفهم بما لا يحتمله)^(١). وَقَالَ عَلِيُّ رضي الله عنه: (حَدُّتُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)^(٢).

إن الدعوة بحاجة إلى أناة وفقه وفهم وحكمة كأناة وفقه وفهم وحكمة ابن الخطاب و ابن عوف رضي الله عنهما، إنها بحاجة إلى مراعاة القواعد الدعوية و التربوية التي تقتضي أن لا يعرض على الناس أكثر مما لا تحتمله عقولهم. فكم أصيبت الدعوة في عصرنا من أدواء بسبب العجلة وعدم الفهم وعدم الفقه في درء المفسد. وكم أثيرت من فتنة و وقعت من خصومات وحدثت من فرقة بسبب تدخل الغوغاء و حدثاء الأسنان و الرعاع للخوض في الأمور المهمة التي لو كانت في عهد عمر رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر.

(١) فتح الباري، ابن حجر، ١٢ / ١٩٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا، ١ / ٢٧، رقم ١٢٧.

المطلب الثالث الأناة تحقق تكوين الرؤية العلمية الصحيحة للموضوع:

ذكر ابن شهاب الزهري - رحمه الله - وغيره قصة جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه فقال: (لما أسرع في قتل قراء القرآن يوم اليمامة قتل معهم يومئذ أربعمائة رجل، لقي زيد بن ثابت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: إن هذا القرآن هو الجامع لديننا فإن ذهب القرآن ذهب ديننا وقد عزمت على أن أجمع القرآن في كتاب فقال له: انتظر حتى نسأل أبا بكر. فمضيا إلى أبي بكر رضي الله عنه فأخبراه بذلك، فقال: لا تعجل حتى أشاور المسلمين. ثم قام خطيباً في الناس فأخبرهم بذلك فقالوا: أصبت فجمعوا القرآن وأمر أبو بكر رضي الله عنه منادياً فنادى في الناس: من كان عنده من القرآن شيء فليجيء به. قالت حفصة: إذا انتهيتم إلى هذه الآية فأخبروني ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(١)، فلما بلغوا إليها قالت: اكتبوا والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر. فقال لها عمر: ألك بهذا بينة؟ قالت: لا. قال: فوالله لا ندخل في القرآن ما تشهد به امرأة بلا إقامة بينة)^(٢).

إن قصة جمع القرآن بدأت فكرة من عمر رضي الله عنه فعرضها على زيد بن ثابت رضي الله عنه، وزيد رأى عرضها على أبي بكر رضي الله عنه، وإن لم تكن الحكمة و الأناة في أبي بكر ففي من تكون! قال: لا تعجل حتى أشاور المسلمين. والمسلمون هم أهل المدينة دار الهجرة والسنة أهل الفقه وأشرف الناس. قال: ثم قام خطيباً في الناس فأخبرهم بذلك فقالوا: أصبت. وفي رواية البخاري أن عمر رضي الله عنه راجع أبا بكر رضي الله عنه

(١) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٨.

(٢) الدر المنثور، السيوطي، ١ / ٧٢٢، ٧٢٣. وأصل القصة في صحيح البخاري، في

مواضع متكررة برقم ٤٦٧٩، ٤٩٨٦، ٧١٩١.

كثيراً حتى رأى رأي عمر، وراجعا زيد بن ثابت ؓ حتى رأى رأيهما. يقول أبو بكر ؓ: (فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك. ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ قال هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ؓ)^(١).

إن هذه الأناة و الثبات التي صاحبت موضوع جمع القرآن الذي بدأ فكرة، وتطور حتى تكونت رؤية علمية صحيحة لدى الجميع، أنتجت حكماً جماعياً قدره الله ليكون سبباً من أسباب حفظ القرآن الكريم الذي تعهد الله تعالى بحفظه كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مَعْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(٢) قال العيني - رحمه الله - : (لما انقضى نزول القرآن ب وفاة النبي ﷺ ألهم الله الخلفاء الراشدين لجمع القرآن وفاءً لوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية فكان ابتداء ذلك على يد الصديق ؓ بمشورة عمر ؓ)^(٣).

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ٤ / ١٩٠٧، رقم ٤٩٨٦.

(٢) سورة الحجر، ٩.

(٣) عمدة القاري، العيني، ١٦ / ١٩٧.

المبحث الخامس

أثر الأناة في وسائل الدعوة وأساليبها

إذا أراد الداعية أن يوافق أمر الرسول ﷺ وسنته ومنهجه في الدعوة إلى الله تعالى، فلا بد أن يكون على دليل واضح لا لبس في الحق معه، وبيان وحجة واضحة غير عمياء، ولا يكون على ذلك إلا من تحقق فيه قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾^(١). قال ابن كثير - رحمه الله - : (فالدعوة إلى الله يجب أن تكون على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي)^(٢).

قال ابن عثيمين - رحمه الله - : (البصيرة في الدعوة في ثلاثة أمور:

١. أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه وذلك بالعلم لا بالجهل.
٢. أن يكون على بصيرة في حال المدعو، فلا بد من معرفة حال المدعو بالطريقة و الكيفية التي تناسبه، و تكون أكثر فائدة له، و تأثيراً فيه.
٣. أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة)^(٣).

فإذا وُجد الداعية ذو البصيرة والفهم و الفقه المنضبط بالنصوص الشرعية و المعرفة بالأهم فالمهم، و ذو البصيرة التي تُمكنه من معرفة حال المدعو وبيئته، و تُحدد الموضوع المناسب له، يجيء دور الوسيلة و الأسلوب الذي يمكن من خلالهما إيصال الدعوة. و الأناة في اختيار الوسيلة المناسبة و الأسلوب المناسب لا شك أنها من البصيرة، و من الأهمية بمكان. وهذا ما تبينه المطالب الآتية بإذن الله تعالى.

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٠٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢ / ٤٩٦.

(٣) زاد الداعية إلى الله، ابن عثيمين، ص ٧.

المطلب الأول الأناة في اختيار الوسيلة وحسن استخدامها:

كل ما يتوصل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة أو كل أداة تُثقل من خلالها الدعوة إلى الله تعتبر وسيلة دعوية يمكن استخدامها بشرط أن تكون منضبطة شرعاً. وفي ذلك إعمال لقاعدة الوسائل لها أحكام المقاصد^(١). فالوسائل أوعية الأساليب تحملها وتوصلها إلى المدعويين^(٢).

ومن الوسائل الدعوية ما هو قديم جديد لا يُستغنى عنه أبداً كالخطابة وحلقات العلم بالمساجد وغيرها، وهذا الزمن مليء بالوسائل المتعددة والمتطورة التي لم تكن معروفة من قبل والتي يمكن الاستفادة منها في الدعوة إلى الله بما يوافق الأصول والمقاصد الشرعية، كالقنوات الفضائية وشبكة المعلومات العالمية وغيرها. وتعد الفضائيات سلاحاً ذا حدين، وقد ظهرت قنوات فضائية تقدم الإسلام بصورة حديثة طيبة، وكانت بديلاً جيداً للقنوات المشبوهة، وأعطت انطباعاً ودليلاً محسوساً على أهمية استخدام هذه الفضائيات. ولكثرة الوسائل الدعوية سأحدث عن أثر الأناة في وسيلتين من وسائل الدعوة:

الأولى: وسيلة القول: وهي أهم الوسائل لأن القول أساس البيان كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيَلْسَنَ قَوْمِهِ لِئَلْبَيِّنَ لَهُمْ ﴾^(٣)، وأدب الله تعالى نبيه ﷺ ألا يعجل بذكر القرآن حتى يجتمع لأن

(١) انظر: قواعد الأحكام، العزبن عبد السلام، ١ / ٤٦. وإعلام الموقعين، ابن القيم، ٢ / ١٤٧.

(٢) انظر: فقه الدعوة إلى الله، د / سعيد بن وهف القحطاني، ٢ / ١١١٨.

(٣) سورة إبراهيم، من الآية: ٤.

بعضه مرتبط ببعض فقال: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ، وَفَرَأَانَهُ (١)، و جاء التوجيه النبوي الذي يدل على التآني قبل الكلام وتمحيصه فإن كان خيراً تكلم به، وإن كان غير ذلك صمت و امتنع عن الكلام فقال ﷺ: " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ " (٢).

وتأني سليمان عليه السلام عندما نقل له الهدهد خبر سباً، فلم يحكم عليه بصدق أو كذب حتى يأتيه جواب الكتاب كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٧) أَذْهَبَ يَكْتَنِي هَكَذَا فَأَلْفَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَوْلَ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٣).

وهكذا يكون الداعية الواثق المتآني قوله حق، وكلامه صدق، ينتقيه انتقاء خالص الذهب من غشاء المعادن، ويمثل هذه الانتقائية يسلم عرض الداعية، وتصفو دعوته من غبش الخلط، ويستمر بقاؤها، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيدُهْبٌ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْتَغِ النَّاسُ فِيمَتَكُ فِي الْأَرْضِ﴾ (٤).

الثانية: المخيمات الدعوية: تختلف مسميات الكثير من المناشط الدعوية الحديثة والتي يقوم عليها الدعاة، وتعود المجتمع على ظهورها في الأعياد أو المناسبات الفصلية المتكررة، ولا مشاحة في التسمية، وما يعني في هذا البحث هو بيان أثر الأناة في هذه

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١٦ - ١٧.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ٥ /

٢٢٤٠، رقم ٥٦٧٢.

(٣) سورة النمل، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٤) سورة الرعد، من الآية: ١٧.

المنشط، الذي يتيح للدعاة القائمين عليها التآني في الإعداد واختيار المكان والزمان والوسائل والأساليب المناسبة لهذه المنشط.

وعند تأمل منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله نجد أن الله جل وعلا أعطى موسى عليه السلام العصا لتكون دليلاً حسيماً باهراً فكانت وسيلة دعوية استخدمها موسى عليه السلام ليبرهن بها على صدق دعوته، وكان للأناة أثر واضح في تحقيق نتائج إيجابية عند استخدام هذه الوسيلة، فلم يستخدمها لأول وهلة، ففي سرد القصة القرآنية لذلك أنه لم يعجل في تحديد موعد استخدامها، وتحري المكان والزمان والكيفية المناسبة لاستخدام دليله ووسيلته الدعوية الباهرة. أما المكان فهو المكان البارز الذي اعتاد الناس إقامة احتفالاتهم فيه، و أما الزمان فهو يوم الزينة، ووقت العرض بالتحديد هو الضحى، قال تعالى: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾^(١)، قيل: يوم الزينة هو يوم النيروز، وقيل: يوم سوق لهم. وحشر الناس في وقت الضحى، نهاراً جهاراً، ليكون أبلغ في إظهار الحجة وإدحاض الباطل، بكونه على رؤوس الأشهاد^(٢).

ثم يتأني عليه السلام مرة أخرى ولم يعجل، فبعد الاجتماع في المكان والزمان المحددين دار الحوار بينه وبين السحرة لمن تكون له بداية الإلقاء، وتركوا له الخيار ليبدأ هو ولكنه تأنى وترك لهم البدء بإلقاء عصيهم وحبالهم، قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ خُنُوعًا الْمَلْفِينِ ﴾^(٣) قَالَ أَلْقُوا^(٤). وكما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى

(١) سورة طه، الآية: ٥٩.

(٢) انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، الإدريسي، ١١ / ٤٣٠.

(٣) سورة الأعراف، من الآيات: ١١٥، ١١٦.

أَقْرَأَ مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿١﴾. قال ابن كثير - رحمه الله - : (قال ألقوا أنتم أولاً قبلي، والحكمة في هذا - والله أعلم - ليري الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بهرجتهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد طلبهم له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس)^(١).

إن قبول الدعوة ونجاح خطتها و استمرارها مرهون بموافقتها لمنهج الأنبياء، وفي هذا المنهج جميع متطلبات الدعوة وحلول مشكلاتها قديمة كانت أو معاصرة. فيجب على الداعية الرجوع إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، وتأمل منهج الأنبياء فسيجد مبتغاه، ويعتمد على ركن شديد من منهج الأنبياء، وتطمئن نفسه، ويزداد إقداماً وحماساً منضبطاً بإذن الله تعالى.

المطلب الثاني الأناة عند اختيار الأسلوب وحسن استخدامه:

كل طريقة مقنعة مؤثرة في المدعو بما يناسب حاله فهي من أساليب الدعوة. ولا شك أن الأسلوب فن يوفق الله الداعية لاستخدامه، بما لا يعارض النصوص الشرعية، مقتدياً بالرسول ﷺ باتباع الدليل الصحيح بالأسلوب الأمثل اللائق بالدعوة إلى الله. وهي تتنوع وتتعدد بما يغطي متطلبات الدعوة في كل زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَاتِي أَي أَحْسَنَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١). وأطلق الرسول ﷺ البلاغ ولم يحدده بأسلوب معين فقال ﷺ: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"^(٢).

وسأتحدث عن أثر الأناة في أساليب الدعوة في أسلوبين فقط:

الأول: الأناة تُساعد على استخدام أسلوب اللين:

أمر الله بأسلوب اللين في غير ما موضع من القرآن ومن ذلك قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٣). ومما يساعد على استخدام أسلوب اللين الأناة، فهذا موسى عليه السلام عندما أمر من ربه بالذهاب إلى فرعون لم يتعجل بالذهاب وإنما طلب من ربه أن يُعينه بأخيه ليتمكننا سويماً من مخاطبة فرعون خطاباً لينا كما أمرهم ربهم، قال تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾^(٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي^(٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي^(٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي^(٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي^(٨) وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي^(٩)

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٣ / ١٢٧٥، ٣٢٧٤.

(٣) سورة طه، الآية: ٤٤.

هَذَرُونَ أَخِي (٢٠) أَشَدَّ بِهِمْ آزَرِي (٢١) وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي (٢٢) كَيْ سَجَحَكَ كَثِيرًا (٢٣) وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا (٢٤)
 إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٢٥) قَالَ قَدْ أُوْتَيْتَ سُؤْلَكَ بِمُوسَى ﴿١﴾

وفي سيرة رسولنا ﷺ أروع صور الأناة كما في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد، يقول أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: "بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَهْ مَهْ (٢). قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تُزْرِمُوهُ (٣) دَعُوهُ. فَتَرَكَوهُ حَتَّى بَالَ. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ. أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ" (٤).

إن تأني النبي ﷺ ورده الصحابة ﷺ ألا يستعجلوا الرجل، أظهرت نتيجة هذا الأسلوب على الرجل، ففي رواية للحديث "فقال الأعرابي بعد أن فقهه: بأبي أنت وأمي. فلم يؤنب ولم يسب. فقال: أن هذا المسجد لا يبال فيه. وإنما بني لذكر الله وللصلاة. ثم أمر بسجل من ماء فأفرغ على بوله" (٥).

(١) سورة طه، الآيات: ٢٤ - ٢٦.

(٢) مه مه: كلمة زجر، تقال في الأفراد والنتحية. (انظر: إكمال المعلم، القاضي عياض، ٢ / ٦٠. ومشارك الأنوار، القاضي عياض (١ / ١٠٢).

(٣) لا تُزْرِمُوهُ: لا تقطعوا عليه بوله، والإزمام القطع، وزم البول: انقطع، وإذا انقطع قد يضر. (انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١ / ٢٨٠. وإكمال المعلم، القاضي عياض، ٢ / ٥٨).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول من النجاسات، ١ / ١٦٣، رقم ٦٨٧.

(٥) أخرجه ابن ماجه، كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول كيف تُغسل، ١ / ١٧٦، رقم ٥٢٩. وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ١ / ٨٧.

إن اللين من أهم أساليب الدعوة، و الأناة تحقق تطبيق هذا الأسلوب، والعجلة ضد الأناة ويستحيل أن يأتي اللين معها، فيقال: فلان تأنى في اتخاذ القرار. فالأناة ممدوحة، و مقابلها العجلة مذمومة، والعجلة تؤدي إلى التقدم فيما لا ينبغي التقدم فيه، فيقال دائماً في القرارات الخاطئة: فلان تعجل في اتخاذ القرار.

الثاني: الأناة تساعد على نجاح أسلوب الحوار:

يعتبر أسلوب الحوار من أهم أساليب الدعوة وخاصة في هذا العصر الذي تداخلت فيه الثقافات، و استطاعت التقنية الحديثة أن تجعل العالم بأسره كأنه قرية واحدة، فيإمكان الداعية محاورة المدعو سواءً كان مسلماً أو كافراً وهو في بيته عبر الشبكة العنكبوتية الإنترنت وبدون عناء سفر أو استعداد للقاء. و مع أهمية هذا الأسلوب إلا أن له من الخطورة مثل ماله من الأهمية وخاصة محاورة الكفار و أتباع الفرق المنحرفة و أهل الأهواء، مما يتطلب أن يكون المحاور على مستوى من العلم و الحصانة الفكرية و الأناة وعدم الاستعجال، مع إجادة فنون هذا الأسلوب. فقد كان أسلوب النبي ﷺ في محاورة النصارى يختلف عن أسلوب محاورته لمشركي العرب، و محاورته للشباب تختلف عن محاورته للكهل، و محاورته لأهل الحضر تختلف عن محاورته للأعراب وهكذا⁽¹⁾...

ومن الأمثلة على ذلك محاورة النبي ﷺ للأعرابي ففي الحديث: " أَنْ أَعْرَابِيًّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي وَكَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ وَإِنِّي

أُنكِرْتُهُ^(١). فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ: حُمْرٌ. قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْزَقٍ؟^(٢) قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا. قَالَ: فَأَتَى ثُرَى ذَلِكَ جَاءَهَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عِرْقٌ نَزَعَهَا. قَالَ: وَلَعَلُّ هَذَا عِرْقٌ نَزَعَهُ. وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُ فِي الْإِنْتِفَاءِ مِنْهُ^(٣). من سؤال الأعرابي أنه أتى مغضباً شاكاً في زوجته وفي صحة نسب الولد إليه، فقد أورد ابن حجر رواية ابن أبي ذئب " أن الأعرابي صرخ بالنبي ﷺ^(٤)، فاجتمع فيه جفاء الأعراب و الغضب ووسوسة الشيطان، فقابله النبي ﷺ بأناة وهدوء، وحوار هادئ بمثال حسي من بيئته، حتى امتص غضبه، وفتّر حديثه، و سكّن انفعاله، قبل أن يخبره بالحكم وهو ثبات نسب الولد إليه.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، و أشكره على آلائه و توفيقه وتيسيره لي كتابة هذا البحث، و الذي أرجو أن يحقق الله لي منه ثواب الآخرة قبل ثواب الدنيا، ويجعله لي عنده ذخراً. فقد بذلت فيه جهدي بعد توكلي على الله تعالى ولا أدعي فيه الكمال فهو جهد بشري يعتريه الخطأ و التقصير، و لكني أحسب أن ما لا يدرك كله

(١) أنكرته: استغريت أن يكون مني لأن لونه يخالف لوني. (انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٩ / ٤٤٣. عون المعبود، العظيم آبادي، ٦ / ٢٤٩).

(٢) أوزق: الذي فيه سواد ليس بحالك يميل للغبرة، ومنه قيل للحمامة ورقاء. (انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ١٠ / ١٣٣. و تحفة الأحوذى، المباركفوري، ٦ / ٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل ميبين قد بين الله حكمهما ليفهم السائل، ٦ / ٢٦٦٧، رقم ٦٨٨٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر، ٩ / ٤٤٣.

لا يترك جلّه. وما كان فيه من صواب فهو بتوفيق الله تعالى وتسديده، وما كان من خطأ فهو مني ومن الشيطان، وأرجو من الله العفو والغفران.

وقد ظهر لي بعد البحث نتائج أهمها:

- ١ - أن الأناة خلة عظيمة وهبة ربانية ومن وهبه الله إياها فهي من خير الخلال.
- ٢ - أنه يجب على الداعية أن يتحلّى بالأناة، ويسعى لاكتسابها بالطرق والأساليب الممكنة كالتعلم والتفقه وكثرة ملازمة العلماء والحكماء، ومصاحبة الأخيار.
- ٣ - أن الأناة من أهم وسائل إصابة المنهج النبوي في الدعوة إلى الله. وسلامة الدعوة إلى الله تعالى وتوفيقها موقوف على إصابة المنهج النبوي.
- ٤ - أن الدعوة إلى الله تعالى في هذا العصر أحوج ما يكونون إلى الأناة والثبات، لكبح جماح مثيري الفتن والشبهات، والمتربصين بالدعوة والدعاة من الذين يصطادون في المياه العكرة، الذين يهتمون بالدعاة بالاستعجال، وعدم الفهم، والاعتماد على الظنون والأدلة الظنية، وسوء الظن في المجتمع.
- ٥ - أن المنهج الدعوي المتكامل القائم على الداعية ومحتوى الدعوة والموجهة لهم الدعوة وهم المدعوون وأدوات تنفيذ ذلك المحتوى من الوسائل والأساليب بأشد الحاجة إلى أن تكون الأناة واقعاً مطبقاً في ذلك المنهج لما تحققه من الموافقة و مراعاة للأحوال و الظروف ودرء المفاصد و جلب المصالح.

٦ - أن التأصيل العلمي لمفردات المنهج الدعوي المعتمد على القرآن الكريم وصحيح السنة وفهم نصوص الاستدلال وحُسن إنزالها منزلها الصحيح وذلك بتصوير موضع الاستدلال تصوراً تاماً صحيحاً، وفهم الواقع المحيط به وتطبيقه على موضع الاستدلال يحتاج إلى الأناة والتثبت لفهم النصوص فهماً علمياً واقعياً.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد و على آله وصحبه وسلم

قائمة المصادر والمراجع:

- ١ - إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة، بيروت، بدون معلومات أخرى.
- ٢ - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت ط ٢، ١٤٠٥ هـ.
- ٣ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٨٨ هـ.
- ٤ - إيقاظ الأفهام في شرح عمدة الأحكام، سليمان بن محمد اللهميد، نشر مكتبة مشكاة الإسلامية الإلكترونية.
- ٥ - أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١.
- ٦ - أسباب النزول، أبي الحسن علي الواحدي النيسابوري، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٣٨٨ هـ، بدون ذكر رقم الطبعة.
- ٧ - الأحاد والمثاني، ابن أبي عاصم، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الدراية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤١١ هـ.
- ٨ - الأصول من علم الأصول، العلامة محمد بن صالح العثيمين، نشر مؤسسة الشيخ محمد صالح العثيمين الخيرية.
- ٩ - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن محمد بن المهدي الحسني الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٣ هـ.
- ١٠ - البداية و النهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحوم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٤٠٨ هـ.
- ١١ - التاريخ الكبير، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦ م.
- ١٢ - التحرير و التوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط ١، ١٤٨٤ هـ.

- ١٣ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى، أبو العلى محمد عبد الرحمن المباركفورى، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٣، ١٤٠٧ هـ.
- ١٤ - تفسير الماوردى المسمى النكت والعيون، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى البصرى، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون معلومات أخرى.
- ١٥ - تفسير غريب ما في الصحيحين، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الحميدى، تحقيق الدكتور: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة، القاهرة، ط ١، ١٤١٥ هـ.
- ١٦ - تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط ١، ٢٠٠١ م.
- ١٧ - التيسير بشرح الجامع الصغير، الإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوى، مكتبة الإمام الشافعى، الرياض، ط ٣، ١٤٠٨ هـ.
- ١٨ - الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخارى الجعفى، تحقيق: د/ مصطفى البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧ هـ.
- ١٩ - الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، دار عالم الكتب، الرياض، ط ١، ١٤٢٣ هـ.
- ٢٠ - الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣ م، بدون ذكر رقم طبعة.
- ٢١ - ذيل طبقات الحفاظ للذهبي، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطى تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بدون معلومات أخرى.
- ٢٢ - زاد الداعية إلى الله، محمد بن صالح العثيمين، طبع ونشر، مؤسسة الشيخ محمد الصالح العثيمين الخيرية، ط ١، ١٤٢٤ هـ.
- ٢٣ - زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، بدون معلومات أخرى.

- ٢٤ - سبل السلام شرح بلوغ المرام، الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، بدون معلومات أخرى.
- ٢٥ - سؤال وجواب حول فقه الواقع، محمد ناصر الدين الألباني، دار الجلالين للنشر والتوزيع، الرياض.
- ٢٦ - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، و مكتبة المعارف، الرياض، ط ٣، ١٤٠٦ هـ.
- ٢٧ - شرح السنة، الإمام الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، المكتبة الإسلامي، دمشق و بيروت، ط ٢، ١٤٠٣ هـ.
- ٢٨ - شرح زاد المستقنع، د. محمد بن محمد المختار الشنقيطي، مذكرة مطبوعة مفرغة من تسجيل شرح الشيخ.
- ٢٩ - شرح النووي على صحيح مسلم، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ هـ.
- ٣٠ - صحيح الأدب المفرد، محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، الجبيل، ط ١، ١٤١٤ هـ.
- ٣١ - الصحاح تاج اللغة، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧ هـ.
- ٣٢ - صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٦ هـ.
- ٣٣ - صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامي بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ.
- ٣٤ - صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤١٩ هـ.
- ٣٥ - صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامي بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ.

- ٣٦ - صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ.
- ٣٧ - صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، توزيع دار الكتب العلمية، بيروت، بدون ذكر رقم طبعة.
- ٣٨ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون ذكر رقم طبعة ولا تاريخ.
- ٣٩ - عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥م.
- ٤٠ - العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د/ مهدي المخزومي و د/ إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بدون ذكر مكان ورقم طبعة ولا تاريخ.
- ٤١ - غريب الحديث، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٣٩٧هـ.
- ٤٢ - غريب الحديث، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، تحقيق: الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٥هـ.
- ٤٣ - غريب الحديث، أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم، نشر جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ، بدون ذكر رقم طبعة.
- ٤٤ - غريب الحديث، القاسم بن سلام الهروي أبو عبيد، تحقيق: د. محمد عبد المنعم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٣٩٦هـ.
- ٤٥ - غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق، تحقيق: د. سليمان إبراهيم محمد العايد، نشر جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٠٥هـ.

- ٤٦ - الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط ٢، بدون ذكر تاريخ.
- ٤٧ - الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٣ هـ.
- ٤٨ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، بدون ذكر رقم طبعة و لا تاريخ.
- ٤٩ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر، بيروت، بدون معلومات أخرى.
- ٥٠ - فقه الدعوة في صحيح البخاري دراسة دعوية من أول كتاب الوصايا إلى نهاية كتاب الجزية والموادعة، الدكتور/ سعيد بن علي بن وهف القحطاني، طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢١ هـ.
- ٥١ - فقه الاستشارة، د. ناصر بن سليمان العمر، نشر مكتبة صيد الفوائد الإلكترونية.
- ٥٢ - فقه النوازل، دراسة تأصيلية تطبيقية، د/ محمد بن حسين الجيزاني، دار ابن الجوزي، الدمام، ط ١، ١٤٢٦ هـ.
- ٥٣ - فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ١، ١٣٥٦ هـ.
- ٥٤ - القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون ذكر رقم طبعة و لا تاريخ.
- ٥٥ - قرة العينين في أطراف الصحيحين، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر بيروت، نشر المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ، بدون ذكر رقم الطبعة.

- ٥٦ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أبي محمد عز الدين السلمي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون ذكر معلومات أخرى.
- ٥٧ - القول المبين في قواعد الترجيح بين المفسرين، فهد بن عبد الله الحزمي، مختصر رسالة دكتوراه غير منشورة، نشر موقع صيد الفوائد الإلكترونية.
- ٥٨ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون ذكر معلومات أخرى.
- ٥٩ - لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، دار صادر، بيروت، الأولى، بدون تاريخ.
- ٦٠ - لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: دائرة المعارف النظامية - الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ٣، ١٤٠٦ هـ.
- ٦١ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، سنة ١٤١٦ هـ، بدون رقم طبعة.
- ٦٢ - المجموعة العلمية، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤١٦ هـ.
- ٦٣ - المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، بدون ذكر معلومات.
- ٦٤ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣ هـ.
- ٦٥ - مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي بن سلطان محمد القاري، تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢ هـ.

- ٦٦ - المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ.
- ٦٧ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٢٠هـ.
- ٦٨ - مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي، المكتبة العتيقة ودار التراث، بدون ذكر مكان و لا رقم و لا تاريخ الطبعة.
- ٦٩ - مع الشاطبي في مباحث من علوم القرآن و تفسيره، دشايع بن عبده بن شايع الأسمرى، مجلة الجامعة الإسلامية.
- ٧٠ - معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر و عثمان جمعة ضميرية و سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ٤، ١٤١٧هـ.
- ٧١ - معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، بدون ذكر معلومات.
- ٧٢ - معجم مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤٢٠هـ.
- ٧٣ - المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى و أحمد الزيات و حامد عبد القادر و محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة للنشر، بدون تاريخ.
- ٧٤ - معرفة السنن و الآثار، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي، تحقيق د. عبد المعطي أمين قلعجي، دار الوفاء، مصر، ١٤١٢هـ.
- ٧٥ - المعلم بفوائد مسلم، الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٢م.
- ٧٦ - مفاتيح الغيب من القرآن الكريم، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بدون معلومات أخرى

- ٧٧ - المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم، الإمام أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق محي الدين ديب مستو وآخرين، دار ابن كثير، و دار الكلم الطيب، دمشق وبيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ.
- ٧٨ - نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، إبراهيم اليازجي، بدون ذكر معلومات.
- ٧٩ - الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، د. محمد صدقي بن أحمد البورنو، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٥، ١٤١٩ هـ.

الهدية وأثرها في الدعوة إلى الله

إعداد

الدكتورة/ الجوهرة بنت صالح بن حمود الطريفي

الأستاذ المساعد في قسم الدعوة والاحتساب

بكلية الدعوة والإعلام

في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة:

إن الحمد لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونَنَّ إِلَّا وَانْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^{(٣) (٤)}.

أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى قد جعل لنا هذا الدين شرعة ومنهاجاً، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾^(٥) قال الطبري^(٦): (قد جعلنا

(١) سورة النساء، الآية: ١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآيات: ٧٠ - ٧١.

(٤) خطبة الحاجة التي كان يعلمها رسول الله ﷺ أصحابه أخرجها أبو داود في كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح حديث رقم (٢١١٨) ج ٢ ص ٥٩١، طبع دار الدعوة دار سحنون - الثانية - ١٤١٣هـ واللفظ له؛ وأخرجها الترمذي في كتاب النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح حديث رقم (١١٠٥) ج ٣، ص ٤١٣، طبع دار الدعوة - دار سحنون الثانية ١٤١٣هـ، والحديث صححه الألباني (انظر: صحيح سنن أبي داود لمحمد ناصر الدين الألباني كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح حديث رقم (١٨٦٠) - (٢١١٨) ج ٢، ص ٣٩٩، طبع مكتب التربية العربي لدول الخليج - الأولى - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

(٥) سورة المائدة، من الآية: ٤٨.

مجلة

(٦) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب التصانيف، ولد سنة أربع وعشرين وثمانين، وله الكتاب المشهور في أخبار الأمم وتاريخهم، وله كتاب جامع البيان = الدراسة الدعوية

الكتاب الذي أنزلنا إلى نبينا محمد ﷺ أيها الناس لكلكم: أي لكل من دخل في الإسلام وأقر بمحمد ﷺ، أنه له نبي شرعة ومنهاجاً^(١).

وقال ابن كثير^(٢): (أي جعلناه يعني القرآن شرعة ومنهاجاً، أي سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة، وسنة، أي طريقاً ومسلكاً واضحاً بيناً)^(٣).

وقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ مؤيداً بالقرآن ليرسم لنا الطريق، أرسله أسوة حسنة، وأمرنا أن نتبعه قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾^(٤).

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَذِهِ﴾ الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاج إلى طاعته وترك معصيته ﴿سَبِيلِي﴾ وطريقي ودعوتي ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ وحده لا

= عن تأويل آي القرآن في التفسير، توفي سنة عشر وثلاث مائة (انظر: سير أعلام النبلاء للإمام محمد بن أحمد الذهبي ج ١٤، ص ٢٦٧، طبع مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر بن جرير الطبري ج ٦، ص ٢٧٠، طبع دار الفكر ١٤٠٥هـ.

(٢) الحافظ عماد الدين إسماعيل عمر بن كثير، ولد سنة سبعمائة، له تصانيف عديدة صحب شيخ الإسلام بن تيمية، توفي سنة سبعمائة وأربع وسبعين هجرية (انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ج ٢، ص ٢٣٠، ضبع المكتب التجاري - بيروت - بدون تاريخ).

(٣) تفسير القرآن العظيم للحافظ إسماعيل بن كثير، ج ٢، ص ٦٢، طبع مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ١٤١٣هـ - ١٩٨٩م).

(٤) سورة يوسف، من الآية: ١٠٨.

مجلة
الدراسات
الدعوية

شريك له ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بذلك ويقين علم مني به ﴿أَنَاو﴾ ويدعو الله على بصيرة أيضاً ﴿مَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وصدقني، وآمن بي^(١).
 والمتأمل في سيرة النبي ﷺ في دعوته يرى نجاحات باهرة تحققت في سنوات تعد في مقياس الزمن قصيرة، لأنه يسير وفق وحي إلهي يوجهه ويرعاه، ويصوبه سبحانه وتعالى، والدعاة وإن كانوا مأمورين بالتأسي به في دعوته يحتاجون إلى معرفة سيرته في دعوته وثمراتها لتحقيق أفضل النتائج والمتبع في سيرته ﷺ، يرى أنه استخدم الوسائل المتاحة في زمانه، ومن هذه الوسائل الهدية، التي اخترت أن أبحث فيها لبيان مشروعية الهدية، وحكمها، واستخدام النبي ﷺ لها كوسيلة دعوية ومدى تأثيرها على المدعو والدعوة، وذلك بالتأصيل الشرعي من كتاب الله وسنة النبي ﷺ لمعرفة آثارها على المدعو والدعوة، ومن ثم استخلاص النتائج والعبر لتطبيق ذلك في واقع الدعوة اليوم. هذا وقد سرت في البحث على النحو التالي:

المقدمة: وفيها أهمية البحث وسبب اختياره.

المبحث الأول: الهدية تعريفها وأهميتها.

المبحث الثاني: مشروعية الهدية وحكمها.

المبحث الثالث: الهدية وسيلة دعوية.

المبحث الرابع: أثر الهدية في الدعوة إلى الله.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، ج ١٢، ص ٨٠؛ وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج ٢، ص ٤٧٧.

هذا وأسأل الله أن يبارك في الجهد وأن يوفقنا للدعوة إليه والسير
وفق منهج الله وسنة النبي ﷺ .
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء
 والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

الهدية: تعريفها وأهميتها

تعريف الهدية لغة واصطلاحاً:

الهدية لغة:

الهدية ما أُنْحَضَتْ به يقال أهديتُ له وإليه وفي التنزيل العزيز ﴿وَإِنِّي

مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾^(١).

والتهادي: أن يُهدي بعضهم إلى بعض، والجمع هدايا وهداوي

وامرأة مهداةٌ بالمد إذا كانت تهدي لجاراتها وإذا كانت كثيرة

الإهداء، وكذلك الرجل مهداةٌ إذا كان من عادته أن يُهدي^(٢).

ويدخل في معنى الهدية، الهبة والعطية، والهبة في اللغة: العطية

الخالية عن الأعواض والأغراض^(٣).

(١) سورة النمل، من الآية: ٣٥.

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور الأفريقي مادة (هدي) ج ٦، ص ٢٢٠، طبع دار صادر

بيروت، الأولى ١٩٩٧م؛ تاج العروس من جواهر القاموس لمحّب الدين محمد مرتضى

الزبيدي مادة (هدى) ج ٢٠ ص ٢٢٩ طبع دار الفكر ١٤١٤هـ؛ القاموس المحيط لمجد

الدين الفيروزآبادي ص ١٧٣٥، طبع مؤسسة الرسالة - الثانية ١٤٠٧هـ.

(٣) انظر: المرجع السابق، مادة (وهب) ج ٦، ص ٤٩٥.

والهبة في الاصطلاح: تملك العين بلا عوض^(١).

الفرق بين الهدية والهبة:

قال ابن حجر^(٢) في التفریق بین الهبة والهدية: (تطلق الهبة بالمعنى الأخص على ما لا يقصد له بدل، وعليه ينطبق قول من عرف الهبة بأنها تملك بلا عوض، والهدية هي ما يكرم به الموهوب له)^(٣).
وقال ابن قدامة^(٤) في معنى الهبة والعطية والهدية: (وجملة ذلك أن الهبة والصدقة والهدية والعطية معانيها متقاربة، وكلها تملك بغير عوض)^(٥).

(١) انظر: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار لمحمد بن علي الشوكاني، ج ٦، ص ٩٩، نشر إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالملكة العربية السعودية: التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني، ص ٣١٩، تحقيق إبراهيم الأبياري، طبع دار الريان للتراث.

(٢) أحمد بن علي بن محمد، الشهير بابن حجر نسبة إلى آل حجر، ولد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، انتهى إليه علم معرفة الرجال وعلل الأحاديث توفي سنة ثنتين وخمسين وثمانمائة (انظر: شذرات الذهب لابن العماد، ج ٧، ص ٢٧٠).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني بتحقيق محمد فؤاد وعبد الباقي - محب الدين الخطيب، قصي محب الدين الخطيب، ج ٥، ص ٢٢٣، طبع دار الريان للتراث - الثانية ١٤١٦هـ - ١٩٨٨م.

(٤) الإمام موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، صاحب المغني، ولد سنة إحدى وأربعين وخمسائة وتوفي سنة عشرين وستمائة (انظر، سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ١٦٥).

(٥) المغني لموفق الدين عبدالله بن أحمد بن قدامة، تحقيق الدكتور عبدالله التركي والدكتور عبدالفتاح الحلوي، ج ٨، ص ٢٣٩، طبع دار هجر - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٤٠٨هـ.

وقال في تحديد معنى الهدية: (فالظاهر أن من أعطى شيئاً ينوي به التقرب إلى الله تعالى للمحتاج فهو صدقة. ومن دفع إلى إنسان شيئاً للتقرب إليه، والمحبة له، فهو هدية)^(١).

الهدية اصطلاحاً:

(هي دفع عين إلى شخص معين لحصول الألفة والثواب من غير طلب ولا شرط)^(٢).

قال مؤلف الهدية بين الحلال والحرام عند شرحه للتعريف: (ولفظ من "غير طلب" يخرج الهدية أو الرشوة التي تطلب لغرض مقابل لها ولفظ "ولا شرط" أي ولا شرط إعانة لأن الرشوة تعطى بشرط الإعانة.....)^(٣).

أهمية الهدية:

الإسلام دين يدعو إلى المحبة والألفة والأخوة فالنبي ﷺ يقول: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)^(٤) ويقول ﷺ: (مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)^(٥) ودعا إلى ترك ما يضاد هذه المعاني من

(١) المرجع السابق، ج ٨، ص ٢٤٠.

(٢) الهدية بين الحلال والحرام لأحمد بن أحمد الطويل، ص ١٠، مطابع دار طيبة - الرياض - الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

(٣) المرجع السابق، ص ١١.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً ج ٧، ص ٨٠. ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم حديث رقم (٦٥) - (٢٥٨٥)، ج ٣، ص ١٩٩٩ واللفظ للبخاري.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس بالبهائم، ج ٧، ص ٧٧، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم حديث رقم (٦٦) - (٢٥٨٦)، ج ٣، ص ١٩٩٩، واللفظ للبخاري.

كره وتباعد وتباغض فالنبي ﷺ يقول: (ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا ولا تدابروا^(١))، وكونوا عباد الله إخواناً^{(٢)(٣)}.

ولتأصيل هذه المعاني الجليلة وترك ما يضادها فقد دعا إلى الوسائل التي تتحقق بها هذه المعاني، بالدعوة إلى الإحسان إلى الناس، فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، ومن هذه الوسائل التي تتحقق بها معاني الأخوة والتحاب والتواد الهدية، حيث جاءت النصوص التي فيها الحث على التهادي، ويرر هذا الحث بأنها جالبة للمحبة، ومذهبة للشحناء كقوله ﷺ: (تهادوا تحابوا وتذهب الشحناء)^(٤) وبأنها مذهبة لوحر الصدر كقوله ﷺ: (تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر)^{(٥)(٦)} أي حقه وغله وغبه.

- (١) (لا تدابروا): التدابر: المعادة وقيل المقاطعة؛ لأن كل واحد يولي صاحبه دبره (انظر: شرح النووي لصحيح مسلم للإمام النووي، تحقيق عصام الصباطي. حازم محمد، عماد عامر طبع دار أبي حيان، ج ٨ ص ٣٥٨).
- (٢) (وكونوا عباد الله إخواناً): أي تعاملوا وتعاشروا معاملة الإخوة، ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير ونحو ذلك، مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال (انظر: المرجع السابق، ج ٨، ص ٣٥٨).
- (٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم التعاسد والتباغض والتدابير حديث رقم (٢٢٣) (٢٥٥٩)، ج ٣، ص ١٩٨٢.
- (٤) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب حسن الخلق باب في المهاجرة ج ٢، ص ٩٠٨، طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية ١٤١٣هـ. وقال ابن عبد البر: هذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها (انظر: الموطأ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج ٢، ص ٩٠٨).
- (٥) (وحر الصدر): أي غشه ووساوسه وقيل الحقد والغيظ وقيل العداوة، وقيل أشد الغضب (انظر: تحفة الأحوذى لأبي العلى محمد عبد الرحمن المباركفوري، ص ١٧٣٨ طبع بيت الأفكار الدولية).

- (٦) أخرجه الإمام أحمد، ج ٢، ص ٤٠٥ طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية ١٤١٣هـ؛ والترمذي في كتاب الولاء والهبة. باب حث النبي ﷺ على التهادي حديث =

والإسلام يدعو إلى تحاب الناس وتآخيهم وتعاضدهم، من أجل الرقي بالمجتمع المسلم، ليكون مجتمعاً فاضلاً مترابطاً، كما فعل النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة وحينما شرع في بناء الدولة الإسلامية، كانت من أساسيات بناء هذه الدولة ومجتمعها أن شرعت المؤاخاة إذ شرعت في السنة الأولى من الهجرة^(١).

وكان من أسباب هذه المؤاخاة أنه لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة لم يكن بأيدي معظمهم شيء، لأنهم تركوا أموالهم خلفهم، وقد أعطى الأنصار المهاجرين كل ما يستطيعون من فضل، فأراد الرسول ﷺ أن يوجد تشريعاً يعالج للمهاجرين أوضاعهم الاقتصادية، ويشعرهم بأنهم ليسوا عالة على إخوانهم الأنصار لذا شرعت المؤاخاة^(٢) والنبي ﷺ يتعهد أصحابه بالتعليم والتربية وتزكية النفس، ويؤدبهم بأداب الود والإخاء والبدل والعطاء. قال عبدالله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل^(٣) الناس إليه.. فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: أيها الناس: أفشوا

=رقم (٢١٣٠)، ج ٤، ص ٤٤١. وقال السخاوي (وهو حديث جيد) انظر: (المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للشيخ محمد عبدالرحمن السخاوي ص ١٩٨ حديث رقم (٣٥٢) تحقيق محمد عثمان الخشت. طبع دار الكتاب العربي - الثانية ١٤١٤هـ).

(١) انظر السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية - للدكتور مهدي رزق الله أحمد ص ٣٠٢ طبع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الطبعة الأولى ١٤١٢هـ؛ الرحيق المختوم لـ صفي الرحمن المباركفوري ص ٢١٨، طبع دار الوفاء - مصر - الرابعة ١٤٠٨هـ.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٠٠ - ٣٠٢.

(٣) (انجفل الناس): أي ذهبوا مسرعين إليه (انظر: لسان العرب لابن منظور مادة (جفل)

ج ١ ص ٤٣٦.

السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام^(١)، فالمواساة بالمال عن طريق الهدية والهبة هي مطلب شرعي تتحقق به مطالب الإسلام بإشاعة معاني الأخوة، والبذل والعطاء. وقد كانت الهدية إحدى وسائل تبليغ دين الله عز وجل، فالدعوة إلى هذا الدين مع عظمته، وصدقه ووضوحه، وموافقته للفترة لا بد أن يكون القالب الذي يدعى به إليه بالإحسان إلى الناس، إحسان قولي وفعلي، ومن الإحسان الفعلي الهدية التي لها من الفضائل ما جعل البخاري في صحيحه ييؤب كتاباً سماه (كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها)^(٢) وكذلك الترمذي^(٣) بؤب باباً من كتاب الولاء والهبة سماه (باب في حث النبي ﷺ على الهدية)^(٤). وقد حفلت كتب السنة والسير بالأحاديث التي فيها حض قولي أو فعلي على التهادي من أجل نشر دين الله عز وجل وتبليغه للبشر.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب (٤٢) حديث رقم ٢٤٨٥ ج٤ ص ٦٥٢ واللفظ له، وابن ماجة في كتاب الأطعمة باب إطعام الطعام حيث (٣٢٥١) ج٢ ص ١٠٨٣، وقال الترمذي حديث صحيح.

(٢) صحيح البخاري ج ٣، ص ١٢٨٠.

(٣) محمد بن عيسى بن سورة السلمى الترمذي، مصنف الجامع وكتاب العلل، وغير ذلك ولد سنة عشر ومئتين، ومات سنة تسع وسبعين ومئتين (انظر: سير أعلام النبلاء، ج ١٣، ص ٢٧٠).

(٤) سنن الترمذي عيسى محمد بن عيسى من سورة ج ٤، ص ٤٤١، طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية ١٤١٣هـ.

المبحث الثاني مشروعية الهدية وحكمها

مشروعية الهدية:

لقد جاء الشرع المطهر في الحث على التهادي وقد جاءت الأدلة حاضرة على ذلك منها ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: (تهادوا^(١)) فإن الهدية تذهب وحر الصدر ولا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن^(٢) شاة^(٣).

قال في تحفة الأحوذى: (وفي الحديث الحض على التهادي ولو باليسير لما فيه من استجلاب المودة، وإذهاب الشحناء، ولما فيه من التعاون على أمر المعيشة، والهدية وإن كانت يسيرة فهي أدل على المودة، وأسقط للمؤنة، وأسهل على المهدي لأطراح التكلف والكثير قد لا يتيسر كل وقت، والمواصلة تكون كالكثير)^(٤).

وقال ﷺ: (تصافحوا يذهب الغل، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء)^(٥).
وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: (يا نساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن^(٦) شاة^(٧)).

(١) (تهادوا) بفتح الدال من التهادي بمعنى المهاداة، أي ليعطي الهدية ويرسلها بعضكم لبعض (انظر: تحفة الأحوذى، ج ٢، ص ١٧٢٨).

(٢) تقدم تخريجه ص ١٠.

(٣) تحفة الأحوذى، ج ٢، ص ١٧٢٨.

(٤) تقدم تخريجه ص ١٠.

(٥) (فرسن): بكسر الفاء والمهملة بينهما راء ساكنة وآخره نون هو عظم قليل اللحم (انظر: فتح الباري، ج ٥، ص ٢٢٤).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب البيعة، باب (١) ج ٣، ص ١٢٨، ومسلم في كتاب

الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بالقليل ولا تمتع من القليل لاحتقاره حديث

رقم (٩٠) (١٠٣٠)، ج ١، ص ٧١٤.

قال ابن حجر: (وأشير بذلك إلى المبالغة في إهداء الشيء اليسير وقبوله)^(١).

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها)^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لو دعيت إلى ذراع أو كراع)^(٣) لأجبت ولو أهدى إلي ذراعاً لقبلت^(٤).

قال ابن حجر: (أشار عليه الصلاة والسلام بالكراع والفرسن إلى الحض على قبول الهدية ولو قلت لثلاثا يمتنع الباعث من الهدية لاحتقار الشيء، فحض على ذلك لما فيه من التآلف)^(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (قلت يا رسول الله إن لي جاريتين فألى أيهما أهدى قال: إلى أقربهما منك باباً)^(٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أتى بطعام سأل عنه أهديه أم صدقة فإن قيل صدقة قال لأصحابه كلوا ولم يأكل، فإن قيل هدية ضرب بيده ﷺ فأكل معهم)^(٧).

(١) فتح الباري، ج ٥، ص ٢٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الهبة، باب المكافأة على الهدية، ج ٣، ص ١٢٣.

(٣) (ذراع أو كراع): خص الذراع والكراع بالذكر ليجمع بين الحقير والخطير لأن الذراع كانت أحب إليه من غيرها والكراع لا قيمة له (انظر: فتح الباري، ج ٥، ص ٢٣٦).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الهبة، باب القليل من الهبة، ج ٢، ص ١٢٩.

(٥) انظر فتح الباري، ج ٥، ص ٢٣٦.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الهبة، باب فمن يبدأ الهدية، ج ٣، ص ١٢٣.

(٧) أخرجه البخاري في كتاب الهبة، باب قبول الهدية، ج ٣، ص ١٣١.

وعن خالد بن عدي الجهني^(١) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه)^(٢).

قال الشوكاني^(٣): (قوله في حديث خالد فليقبله فيه الأمر بقبول الهدية والهبة ونحوهما من الأخ في الدين لأخيه، والنهي عن الرد لما في ذلك من جلب الوحشة، وتناثر الخواطر فإن التهادي من الأسباب المؤثرة للمحبة)^(٤).

حكم الهدية:

الهدية مندوب إليها فهي سنة غير واجبة^(٥).

قال ابن قدامة: (ومن دفع إلى إنسان شيئاً للتقرب إليه والمحبة له، فهو هدية، وجميع ذلك مندوب ومحثوث عليه فإن النبي ﷺ قال: (تهادوا تحابوا) فما ورد في فضلها أكثر من أن يمكننا حصره)^(٦).

(١) خالد بن عدي الجهني يعد من أهل المدينة، وكان ينزل الأشعر روى حديثه أحمد وابن أبي شيبة والحرث وأبو يعلى والطبراني (انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، ج ١، ص ٤٠٩).

(٢) أخرجه أحمد، ج ٤، ص ٢٢١. والحديث إسناده صحيح. (انظر: الموسوعة الحديثية - مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٢٩، ص ٤٥٦، رقم الحديث (١٧٩٣٦) أشرف على تحقيق هذا المسند الشيخ شعيب الأرنؤوط طبع مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤١٩هـ).

(٣) محمد بن الشوكاني ثم الصنعاني ولد سنة ١١٧٣هـ له مصنفات عديدة منها شرح المنتقى، ونيل الأوطار، توفي سنة ١٢٥٠هـ (انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني، ج ٢، ص ٢١٤).

(٤) نيل الأوطار، ج ٦، ص ١٠٠.

(٥) انظر: المغني لابن قدامة، ج ٨، ص ٢٤٠؛ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ج ١٣، ص ١٩٩، طبع دار الكتاب العربي - القاهرة - ١٣٨٧هـ.

(٦) المغني لابن قدامة، ج ٨، ص ٢٤٠.

وقال القرطبي: (الهدية مندوب إليها، وهي مما تورث المحبة وتذهب العداوة)^(١).

وهذا في الهدية المطلقة غير المقيدة بشرط ولم يكن ثمة غرض للمهدي سوى إكرام المهدي إليه ولا تأخذ حكم الرشوة^(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج ١٣، ص ١٩٩.

(٢) انظر: الهدية بين الحلال والحرام لأحمد بن أحمد الطويل، ص ١١. وانظر: حكم بنال الهدية مقابل الشفاعة د/ وليد الحمدان، ص ٧٧، بحث محكم نشر في مجلة العدل التي تصدر عن وزارة العدل بالملكة العربية السعودية، العدد الخامس والثلاثون.

المبحث الثالث

الهدية وسيلة دعوية

لاشك أن المرید تبليغ هذا الدين، ودعوة الناس إلى الالتزام بشرع الله عز وجل لا بد أن يسلك سبيل النبي ﷺ حيث أمرنا المولى تبارك وتعالى بالتأسي به في سائر أحواله قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١).

قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله)^(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُرُّ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣).

والتأمل في سيرته ﷺ يرى أنه استخدم أنجح الوسائل والأساليب، والتي حققت بفضل الله تبارك وتعالى نجاحاً جعل أفئدة الناس تقبل على دين الله تعالى، وتلتزم به، ومن هذه الوسائل الهدية فقد تواترت النصوص الدالة على استخدام هذه الوسيلة، من ذلك ما جاء عن أم كلثوم بنت أم سلمة^(٤) رضي الله عنها قالت: (لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة قال لها: إني قد أهديت إلى النجاشي حلةً وأواقي من مسك ولا أرى النجاشي إلا قدمات، ولا أرى إلا هديتي مردودة عليّ. فإن ردت عليّ فهي لك...)^(٥).

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج ٣، ص ٤٥٧.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٤) أم كلثوم بنت أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومية ربيبة رسول الله ﷺ (انظر:

الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص ٤٩٠).

وفي صحيح البخاري: (أهدى ملكُ أيلة^(١) للنبي ﷺ بغلة بيضاء وكساه بُرداً وكتب له بيحرم^(٢))^(٣).

وعن بلال ؓ قال: (... فقال لي رسول الله ﷺ: "أبشر فقد جاءك الله بقضائك" ثم قال: "ألم تر الركائب المناخات الأربع" فقلت: بلى. فقال: "إن لك ركابهن وما عليهن فإن عليهن كسوة وطعاماً أهداهن إليّ عظيم فذك" فاقبضهن واقض دينك"^(٤)).

ومنه ما جاء عن أنس ؓ قال: (ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه قال فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين^(٥)

= وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح. (انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ج ٨، ص ٢٨٩، = طبع دار الريان للتراث - دار الكتاب العربي والحديث حسنه الإمام ابن حجر في الفتح. (انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - ج ٥، ص ٢٦٢، طبع دار الريان للتراث، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.

(١) أيلة: مدينة بين الفسطاط ومكة على ساحل البحر تعد في بلاد الشام. (انظر: معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي ج ١، ص ٢٩٢ طبع دار صادر، بيروت - الطبعة الثانية ١٩٩٥م، وانظر: فتح الباري ج ٥، ص ٢٧٢).

(٢) بيحرم: أي بيلدهم. (انظر: فتح الباري ج ٥، ص ٢٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الهبة باب قبول الهدية من المشركين، ج ٣، ص ١٤١.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء باب في الإمام يقبل هدايا المشركين حديث رقم (٣٠٥٥)، ج ٢، ص ٤٤١، والحديث صححه الألباني (انظر: صحيح سنن أبي داود، ج ٢، ص ٥٩٠) حديث رقم (٢٦٢٨) ((٣٠٥٥)).

(٥) غنماً بين جبلين) أي كثيرة كأنها تملأ بين جبلين (انظر: شرح النووي لصحيح مسلم، ج ٨، ص ٨١).

فرجع إلى قومه فقال: يا قوم! أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء لا يخشى الفاقة^(١).

وفي رواية أخرى للحديث عن مسلم فقال أنس: (إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا. فما يُسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها)^(٢).

قال النووي عند شرحه للحديث (فما يلبث بعد إسلامه إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه والمراد أنه يظهر الإسلام أولاً للدنيا، لا بقصد صحيح بقلبه، ثم من بركة النبي ﷺ ونور الإسلام لم يلبث إلا قليلاً حتى ينشرح صدره بحقيقة الإيمان، ويتمكن من قلبه فيكون حينئذ أحب إليه من الدنيا وما فيها)^(٣).

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً - وسعدٌ جالس - فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليّ فقلت يا رسول الله مالك عن فلان فو الله إنني لأراه مؤمناً فقال: أو مسلماً فسكت قليلاً ثم غلبنني ما أعلم منه فعدت لمقاتلي فقلت مالك عن فلان فو الله إنني لأراه مؤمناً فقال: أو مسلماً فسكت قليلاً ثم غلبنني ما أعلم منه فعدت لمقاتلي وعاد رسول الله ﷺ ثم قال: يا سعد إنني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله في النار^(٤).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا وكثرة عطائه حديث (٥٧) (٢٢١٢)، ج ٢، ص ١٨٠٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه، حديث رقم (٥٨) (٢٢١٢)، ج ٢، ص ١٨٠٦.

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم للإمام النووي، ج ٨، ص ٨٢.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة ج ١، ص ١٢.

قال ابن حجر: (... ومحصل القصة أن النبي ﷺ كان يوسع العطاء لمن أظهر الإسلام تألفاً، فلما أعطى الرهط وهم من المؤلفرة وترك جعيلاً^(١) وهو من المهاجرين مع أن الجميع سألوه، خاطبه سعد في أمره لأنه كان يرى أن جعيلاً أحق منهم لما اختبره منه دونهم، ولهذا راجع فيه أكثر من مرة، فأرشده النبي ﷺ إلى أمرين أحدهما: إعلامه بالحكمة في إعطاء أولئك وحرمان جعيل مع كونه أحب إليه ممن أعطى، لأنه لو ترك إعطاء المؤلف لم يؤمن ارتداده فيكون من أهل النار^(٢).

وعن عكرمة^(٣) (أن النبي ﷺ أهدى إلى أبي سفيان بن حرب تمر عجوة)^(٤).

ومما يدل أيضاً على قبول النبي ﷺ الهدايا ما جاء في البخاري عن أنس ﷺ (أن أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ)^(٥).
وعن أنس بن مالك ﷺ: (أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها...)^(٦).

(١) جعيل بن سراقة الضمري أتى عليه النبي ﷺ ووكله إلى إيمانه (انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ١، ص ٢٢٩، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي، ج ١، ص ٢٢٧، طبع مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ).

(٢) فتح الباري، ج ١، ص ١٠١.

(٣) عكرمة بن أبي جهل عمر بن هشام القرشي المخزومي أسلم عام الفتح خرج إلى قتال أهل الردة ثم كان من قادة المجاهدين في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما استشهد في أجنادين (انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٢، ص ٤٩٦).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج ٢ ص ١٧٩.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الهبة قبول الهدية من المشركين ج ٣، ص ١٤١.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الهبة باب قبول الهدية من المشركين ج ٣ ص ١٤١.

فقد كان ﷺ يهدي ويُهدى إليه فيقبل.

وقد وقع خلاف بين العلماء حول قبول هدية المشركين وممن ناقش هذه المسألة ابن حجر في فتح الباري والشوكاني في نيل الأوطار وغيرهم وقد قال ابن حجر عند شرحه لأحاديث باب قبول الهدية من المشركين من كتاب الهبة في صحيح البخاري: (قوله "باب قبول الهدية من المشركين" أي جواز ذلك، وكأنه أشار إلى ضعف الحديث الوارد في رد هدية المشرك، وهو ما أخرجه موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك ورجال من أهل العلم أن عامر بن مالك الذي يدعى ملاعب الأسنة^(١) قدم على رسول الله ﷺ وهو مشرك فأهدى له، فقال: إنني لا أقبل هدية مشرك" الحديث رجاله ثقات، إلا أنه مرسل وقد وصله بعضهم عن الزهري^(٢) ولا يصح... وفي الباب حديث عياض بن حماد قال: (أهديت للنبي ﷺ ناقة فقال: أسلمت؟ قلت: لا. قال: إنني نهيت عن زيد^(٣) المشركين"^(٤))

(١) عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب معروف بملاعب الأسنة.. له صحبة (انظر:

الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٢، ص ٢٥٨).

(٢) الزهري محمد بن مسلم بن عبيد الله من بني زهرة الإمام العلم، حافظ زمانه ولد سنة ست وخمسين، وتوفي سنة أربع وعشرين ومائة (انظر سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٣٢٦).

(٣) (زيد المشركين): هو الرفد والعطاء. وقال الترمذي يعني هداياهم (انظر: تحفة الأحوذى ج ١، ص ١٤٣٧).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء باب في الإمام يقبل هدايا المشركين حديث رقم (٣٠٥٧) ج ٣ ص ٤٤٢، والترمذي في كتاب السير باب كراهية هدايا المشركين حديث رقم (١٥٧٧) ج ٤ ص ١٤٠ وقال في تحفة الأحوذى (حسن صحيح) صححه الترمذي وابن خزيمة (انظر تحفة الأحوذى، ج ١، ص ١٤٣٧).

وأورد المصنف عدة أحاديث دالة على الجواز جمع بينها الطبري بأن الامتناع فيما أهدي له خاصة، والقبول فيما أهدي للمسلمين، وفيه نظر، وأن من جملة أدلة الجواز ما وقعت الهدية فيه له خاصة، وجمع غيره بأن الامتناع في حق من يريد بهديته التودد والموالة، والقبول في حق من يرجى بذلك تأنيسه وتأليفه على الإسلام، وهذا أقوى من الأول^(١).

وقد ضعف ابن حجر قول من قال بأن القبول يحمل على من كان من أهل الكتاب، والرد على من كان من أهل الأوثان، وكذلك قول من قال بأن القبول من خصائصه عليه السلام، وغيره من الأمراء يمتنع ذلك له، وقول من أدعى نسخ المنع بأحاديث القبول ومن عكس ذلك فقال إن النسخ لا يثبت بالاحتمال ولا التخصيص^(٢).

أما القرطبي فقال بعد أن ذكر خلاف العلماء (المعنى فيها: أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده... وهذا أحسن تأويل للعلماء في هذا فإنه جمع بين الأحاديث، وقيل غير هذا)^(٣).
أما في تحفة الأحوذى فقال بعد استعراض أقوال العلماء: (ولا يبعد أن يقال إن الأصل هو عدم جواز قبول هدايا المشركين، لكن إذا كانت في قبول هداياهم مصلحة عامة أو خاصة فيجوز قبولها، والله تعالى أعلم)^(٤).

(١) فتح الباري لابن حجر، ج ٥، ص ٢٧٣.

(٢) انظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ٥، ص ٢٧٣، وانظر نيل الأوطار

للشوكاني، ج ٦، ص ١٠٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج ١٣، ص ١٩٩.

(٤) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي، ج ١، ص ١٤٢٨.

ومحصل ما انتهى إليه العلماء أن القبول يكون في حق من رجي بذلك تأنيسه وتأليفه على الإسلام، وإذا كانت هناك مصلحة عامة أو خاصة للدعوة إلى الدين والتأليف عليه، وعدم القبول إذا كان لغير هذا الغرض، كأن يكون لأجل التودد والموالة، أو من يريد بهديته الظهور على المسلمين واحتلال بلدانهم.

ومن خلال الأحاديث التي سبق ذكرها تبين أن النبي ﷺ كان يستخدم الهدية في الدعوة إلى الله عز وجل فما سئل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه كما في حديث أنس^(١).

المبحث الرابع أثر الهدية في الدعوة إلى الله

لقد مر ذكر عدد من الأدلة التي تبين الأصل الشرعي للهدية وأنه كان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها، وما ذلك إلا لما للهدية من أثر كبير على النفوس بإزالة الضغائن والأحقاد، والتقرب للآخر بالمودة والزلقى، ومن فضلها أن البخاري بوب في كتابه كتاباً بعنوانه (كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها).

وقد تبين في الأحاديث التي فيها الحض على التهادي آثار الهدية كما في الحديث الذي أخرجه مالك في الموطأ وسبق ذكره حيث ذكر من آثارها التحاب وذهاب الشحناء بقوله: (تهادوا تحابوا وتذهب الشحناء)^(١).

وقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد والترمذي: "تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر"^(٢) حيث إن من آثارها أنها تذهب وحر الصدر أي حقه وغيضه، وقيل العداوة وقيل أشد الغضب، وكل هذه المعاني تعد آثاراً جليلة للهدية.

قال القرطبي: (الهدية مندوب إليها وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة... ومن فضل الهدية مع اتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس وتكسب المهدي والمهدي إليه رثة في اللقاء والجلوس)^(٣).

ومما يدل على أثر الهدية على النفوس ما جاء في قوله تعالى في سورة النمل عن ملكة اليمن حينما أرسلت هدية إلى سليمان عليه

(١) تقدم تخريجه ص ١٠.

(٢) تقدم تخريجه ص ١٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج ١٣، ص ١٩٩.

السلام لما أرسل إليها بكتاب يدعوها فيه إلى الإسلام حيث قال سبحانه: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّهُ لَنِ كَذِبٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٠﴾ أَلَا تَعْلَمُوْا عَلَىٰ وَتُوفِي مُسْلِمِينَ ﴿٢١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُوْا ﴿٢٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةٍ وَأُولُوْا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ لِلَّهِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُوْنَ ﴿٢٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾

قال القرطبي في تفسير ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ هذا من حسن نظرها وتديبها، أي إني أجرب هذا الرجل بهدية... ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أي: منتظرة ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ قال قتادة: يرحمها الله إن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها؛ وقد علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس...^(١) ومما يدل على أن للهدية أثراً في الدعوة إلى الله، أن الله جعل في أصناف من يستحق الزكاة المؤلفة قلوبهم، ومعناه الذين يؤلفون على الإسلام^(٢) حيث جاء في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ ﴿٤﴾

قال في كتاب الفروع في المؤلفة قلوبهم: (هم رؤساء قومهم ممن يُرجى إسلامه، أو كف شره، ومسلم يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو نصحه في الجهاد، أو ذبه عن الدين)^(٥).

(١) سورة النمل، الآيات: ٢٩ - ٣٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج ١٣، ص ١٩٦ - ٢٠٠.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٤) سورة التوبة، من الآية: ٦٠.

وقال ابن كثير: (وأما المؤلف قلوبهم فأقسام: منهم يعطى ليسلم كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين وقد شهدها مشركاً... ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى يوم حنين جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم مائة من الإبل، وقال: (إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم)^(١) وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذهبية^(٢) في تربتها^(٣) من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس^(٤)، وعينية بن بدر^(٥) وعلقمة بن علاثة^(٦)، وزيد الخير^(٧)، وقال:

- (١) تقدم تخريجه ص ٢٢.
- (٢) (بذهبية)، أي بذهبة (انظر هامش محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم، ج ١، ص ٧٤١).
- (٣) (في تربتها) صفة الذهبية يعني أنها غير مسبوكة لم تخلص من ترابها (انظر: المرجع السابق، ج ١، ص ٧٤).
- (٤) الأقرع بن حابس بن عقال التميمي المجاشعي الدارمي وفد على النبي ﷺ وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف وهو من المؤلف قلوبهم وقد حسن إسلامه، استشهد باليرموك (انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ج ١، ص ٥٩).
- (٥) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر كان من المؤلف قلوبهم أسلم قبل الفتح وشهدا، كان ممن ارتد في عهد أبي بكر ثم عاد إلى الإسلام، عاش إلى خلافة عثمان (انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ج ٢، ص ٥٥).
- (٦) علقمة بن علاثة بن عوف العامري من المؤلف قلوبهم (انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٢، ص ٥٠٢).
- (٧) زيد الخيل بن مهلهل بن زيد الطائي وفد في سنة تسع وسماه النبي ﷺ زيد الخير، كان شاعراً خطيباً شجاعاً، مات في خلافة عمر (انظر الإصابة في تمييز الصحابة ج ١، ص ٥٧٢).

”أتألفهم“^(١) ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطى ليجبى الصدقات ممن يليه أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد)^(٢).

فقد فصل ابن كثير في أقسام من يعطي من المؤلفة قلوبهم حيث

ذكر منهم:

- من يعطى ليسلم.
- من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه.
- من يعطى لأن في إعطائه سبب في دخول أمثاله إلى الإسلام.
- من يعطى ليدفع عن حوزة المسلمين.

نجد من خلال هذه الآية كيف اعتنى الإسلام في استخدام وسيلة مهمة هي وسيلة بذل الأموال من أجل هدف سام هو الدعوة إلى دين الله حتى جعلها مصرفاً من مصارف الزكاة.

وقد اختلف العلماء في المؤلفة قلوبهم حيث قال بعض العلماء أن المؤلفة قلوبهم كانوا في عهد النبي ﷺ أما بعد عهده فلا يوجد مؤلفة قلوبهم^(٣).

ورجح الطبري أن المؤلفة في كل زمان فقال بعد أن ذكر الخلاف: (والصواب من القول في ذلك عندي: أن الله جعل الصدقة في معنيين: أحدهما سد خلة المسلمين والآخر معونة الإسلام وتقويته، فما كان

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَأَلَىٰ عَادِئَاتِهِمْ هُرْدًا﴾ ج، ٤، ص ١٠٨، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم

(١٤٣) (١٠٦٤) ج ١، ص ٧٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٣) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٦، ص ١٦٢.

في معونة الإسلام وتقوية أسبابه، فإنه يعطاه الغني والفقير لأنه لا يعطاه بالحاجة منه إليه، وإنما يعطاه معونة للدين، وذلك كما يعطي الذي يعطاه بالجهاد في سبيل الله، فإنه يعطي ذلك غنياً كان أو فقيراً للغزو لا لسدّ خلته، وكذلك المؤلفة قلوبهم يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء، استصلاحاً بإعطائهموه أمر الإسلام، وطلب تقويته وتأييده، وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى من المؤلفة قلوبهم، بعد أن فتح الله عليه الفتوح، وفشا الإسلام، وعز أهله، فلا حجة لمحتج بأن يقول: لا يتألف اليوم على الإسلام أحد لا تمتاع أهله بكثرة العدد ممن أرادهم وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى منهم في الحال التي وصفت^(١).

ونتلمس هذه الآثار من خلال بعض النصوص التي تبين ذلك كما في الحديث الذي أخرجه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أي قوم أسلموا فوالله! إن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر، فقال أنس: إن الرجل ليسلم وما يريد إلا الدنيا، فما يُسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها)^(٢).

وكما في الحديث الذي أخرجه مسلم: عن ابن شهاب قال: (غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح، فتح مكة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين وأعطى رسول الله ﷺ يوماً صفوان بن أمية. مائة من النعم ثم مائة ثم مائة.

قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله! لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ^(١).

ويعد الإهداء من الحوافز النفسية التي رغب بها علماء النفس من أجل حفز المتلقي على قبول ما يراد منه وهذا ما كان يستخدمه رسول الهدى ﷺ حيث كان يكثر العطاء والإهداء للمسلمين الجدد ولأصحابه كسباً لقلوبهم، وتثبيتاً لهم على الاستقامة، وإعانة لهم عند الحاجة، وكى تعطي الأثر المطلوب في حسن العلاقة بينه وبينهم.

وقد كان استخدام النبي ﷺ لهذه الوسيلة سبباً في ترك من يراد دعوته عن سلوك مشين، ومعصية، وكم حول قلوب عدد من أعدائه من الكره إلى المحبة، وبدل مواقفهم من العداوة إلى الصداقة، وبدل سلوكهم من المعصية إلى الطاعة^(٢).

فالهدية مما كان يتألف به رسول الله ﷺ الناس، لما لها من وقع في نفس المهدي له، لأنها إشعار بالاهتمام به، فالهدية تفعل ما لا تفعله الخطب والمواعظ، وتجعل القلب على أتم الاستعداد للتلقي عن المهدي، كما أنها أثر نعمة ويد لم تنزل تذكر بصاحبها، وتستحضر صفاته الحميدة، وسجاياه الطيبة، كما وإنها رسول مباشر إلى القلوب يدخل إليها دون استئذان فيأسرها، ويجعل المشاعر تجيش بالمودة، وتستشعر بالرفق والمحبة.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا وكثرة عطائه حديث رقم (٥٩) - (٢٣١٣) ج ٢ ص ١٨٠٦.

(٢) انظر: علم النفس الدعوي (دراسات نفسية تربوية) للأبء والدعاء والمربين، للدكتور عبدالعزيز بن محمد النغمشي ص ١٠٦، طبع دار المسلم - الأولى -
مجلة الدراسات الدعوية ١٤١٥هـ.

وهي وسيلة تريبوية ودعوية ذات أثر فعال، فكم من قلب كان ممثلاً حنقاً وحقداً، أبدلته حياً ورضاً، وكم من صدر اشتعلت فيه نار العداوة فأطفأتها لطافة الهدية، وكم من عدو صيرته صديقاً، وصديقٍ صيرته أخاً^(١).

فتجد أن من آثار الهدية:

١. أنها سبب في دخول غير المسلمين إلى الإسلام.
٢. أنها سبب في ثبات المسلم الجديد على إيمانه.
٣. أنها قد تعطى لأشخاص لهم تأثير فقد يسلم أو يهتدي بهدايتهم آخرون ممن يتأثرون بهم من نظرائهم أو أتباعهم.
٤. أن الهدية قد تكون سبباً في الدفاع عن حوزة المسلمين، والذود عن قضاياهم.
٥. أن في الهدية كسباً لقلوب المدعويين، وتقبلهم من الداعية، فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.
٦. كما أنها تزيل حاجز النفرة بين الداعية، والمدعو، لأن الداعية دائماً ما يدعو الناس إلى أمور من المعروف قد تخالف أهوائهم، وينهاهم عن فعل منكرات قد توافق أهوائهم، وبإلهدية إزالة لحاجز النفرة من الداعية، لما للهدية من وقع في نفس المهدي إليه، لأنها إشعار بالاهتمام به فتفعل الهدية ما لا تفعله الخطب والمواعظ، وتجعل القلب على أتم الاستعداد للتلقي عن المهدي، كما أنها أثر نعمة ويد لم تزل تذكر بصاحبها وتستحضر صفاته الحميدة، فإن النفوس جبلت على حب من يحسن إليها.

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د/ زيادة العاني، ص ٢٠٧ - طبع

٧. كما أن من أنواع الهدايا ما يكون فيه تعليم وتفقيه للمدعوين كالأشرطة النافعة والكتب القيمة، والرسائل والنشرات المفيدة.
٨. وفي الهدية من التكافل الاقتصادي والاجتماعي ما يجعل المجتمع مجتمعاً متحاباً، متآلفاً، متكاملأ يساعد بعضه بعضاً فيكون كما في الحديث: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)^(١) وحتى عد النبي ﷺ الهدية رزقاً ساقه الله للعبد كما في حديث: (من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه)^(٢) وهذا الأثر من تحاب المجتمع المسلم وتكافله يعد مطلباً دعوياً تتحقق به الأهداف التي دعا إليها الإسلام في أخوة المسلمين وتحابهم وتعاضدهم.

الختامة:

- الإسلام يدعو إلى المحبة والمودة والإخاء، ودعا إلى الوسائل التي تتحقق بها هذه المعاني، ومن هذه الوسائل الهدية، التي لها من الفضائل ما لا يمكن حصره كما قال ابن قدامة^(٣) ولا سيما إذا كان الباعث لها هو رضى الله سبحانه وتعالى، والدعوة إلى دينه. ومن خلال هذا البحث ظهرت لي عدد من النتائج أجملها فيما يلي:
- الهدية هي دفع عين إلى شخص معين لحصول الألفة والثواب من غير طلب ولا شرط.
 - بالهدية تحقق مطالب الإسلام من التآخي والتحاب والتواد.

(١) تقدم تخريجه ص ١٧.

(٢) تقدم تخريجه ص ١٧.

(٣) انظر: المغني لابن قدامة، ج ٨، ص ٢٤٠.

- الهدية هي إحدى وسائل تبليغ دين الله عز وجل، فالدعوة إلى دين الله مع عظمته، وصدقته، ووضوحه، تحتاج إلى أن يكون معها عند عرضها إحسان قلبي، وفعلي إلى الناس، ومن الإحسان الفعلي الهدية.
 - الهدية مشروعة، دل على مشروعيتها، كتاب الله عز وجل وسنة النبي ﷺ.
 - حكم الهدية مندوب إليها فهي سنة غير واجبة، وهي مما تورث المحبة وتذهب العداوة.
 - دل كتاب الله تعالى، وسنة النبي ﷺ على استخدام الهدية في الدعوة إلى دين الله عز وجل.
 - للهدية آثار في الدعوة إلى الله عز وجل في دخول الناس إلى دين الله عز وجل، وتثبيت المسلمين الجدد على إيمانهم كما أنها عند دفعها إلى أشخاص لهم تأثيرهم قد يسلم أو يهتدي بهدايتهم آخرون وقد تكون سبباً في الدفاع عن حوزة المسلمين إذا دفعت لمن يقوم بذلك، وفي الهدية كسب لقلوب المدعوين، وتقبلهم من الداعية، كما أنها تزيل حاجز النفرة التي قد تكون بين الداعية والمدعوين، وفيها من التكافل الاجتماعي والاقتصادي ما تتحقق به مطالب الإسلام من التآخي والتحاب.
- التوصيات:**

- إذا أردنا تحقيق نجاحات في الدعوة إلى الله عز وجل لابد أن نكون متأسين برسول الهدى ﷺ الذي قال عنه ربه سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ هَذَا سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾^(١).

- إن في التأسى برسول الهدى ﷺ بتقديم الدعوة مع الإحسان القولي والفعلي للناس أجدى وأنفع من تقديم الدعوة مجردة. فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع:

- ١ - أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية - د. زياد العاني - طبع دار عمار - الأولى - ١٤٢٠هـ.
- ٢ - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني - طبع مؤسسة إحياء التراث العربي - بيروت - الأولى - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ٣ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشيخ محمد بن علي الشوكاني - طبع مطبعة السعادة - القاهرة - الأولى.
- ٤ - تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي - طبع دار الفكر - ١٤١٤هـ.
- ٥ - تحفة الأحوذى لأبي العلي محمد عبدالرحمن المباركفوي - طبع بيت الأفكار الدولية.
- ٦ - التعريفات - لعلي بن محمد الجرجاني - تحقيق إبراهيم الأبياري - طبع دار الريان للتراث.
- ٧ - تفسير القرآن العظيم - للإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير - طبع مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ٨ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر بن جرير الطبري - طبع دار الفكر - ١٤٠٥هـ.
- ٩ - الجامع لأحكام القرآن - لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي - دار الكتاب العربي - القاهرة - ١٣٨٧هـ.
- ١٠ - حكم بذل الهدية - مقابل الشفاعة - د. وليد الحمدان - مجلة العدل بالملكة العربية السعودية - العدد ٣٥.
- ١١ - الرحيق المختوم - صفى الرحمن المباركفوري - طبع دار الوفاء - مصر - الرابعة ١٤٠٨هـ.
- ١٢ - سنن أبي داود للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث - طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

- ١٣ - سنن الترمذي محمد بن عيسى بن سورة - طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- ١٤ - السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية - دراسة تحليلية للدكتور مهدي رزق الله أحمد - طبع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الأولى - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ١٥ - سير أعلام النبلاء - للإمام محمد بن أحمد الذهبي - طبع مؤسسة الرسالة - الخامسة - ١٤١٣هـ.
- ١٦ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب - لابن عبد البر القرطبي - طبع مؤسسة التاريخ العربي - دار إحياء التراث العربي - الأولى - ١٣٢٨هـ.
- ١٧ - شذرات الذهب لابن العماد - طبع المكتب التجاري - بيروت - لبنان - بدون تاريخ النشر.
- ١٨ - شرح النووي لصحيح مسلم للإمام النووي - تحقيق عصام الصباطي - حازم محمد - عماد عامر - طبع دار أبي حيان - الأولى - ١٤١٥هـ.
- ١٩ - صحيح البخاري - للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- ٢٠ - صحيح سنن أبي داود - الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج - الأولى - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ٢١ - صحيح مسلم - الإمام مسلم بن الحجاج - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية - ١٤١٣هـ.
- ٢٢ - علم النفس الدعوي (دراسة نفسية للأبء والدعاة والمربين) للدكتور عبدالعزيز بن محمد النغمشي - طبع دار المسلم - الأولى - ١٤١٥هـ.
- ٢٣ - فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري - الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - طبع دار الريان للتراث - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٤٠٩هـ.

- ٢٤ - الفروع - شمس الدين محمد بن مفلح المقدسي - تحقيق د. عبدالله مجلة الدراسات الدعوية - طبع مؤسسة الرسالة - الأولى - ١٤٢٤هـ.

- ٢٥ - القاموس المحيط - لمجد الدين الفيروآبادي - طبع مؤسسة الرسالة
- الثانية ١٤٠٧هـ.
- ٢٦ - لسان العرب - لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور الأفريقي -
طبع دار صادر - بيروت - الأولى - ١٩٩٧م.
- ٢٧ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر
الهيثمي - طبع دار الريان للتراث - دار الكتاب العربي.
- ٢٨ - المسند للإمام أحمد بن حنبل - طبع دار الدعوة - دار سحنون -
الثانية ١٤١٣هـ.
- ٢٩ - معجم البلدان - لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي طبع دار
صادر - بيروت - ت ١ - الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
- ٣٠ - المغني لموفق الدين بن قدامة - تحقيق د. عبد الله التركي -
د. عبدالفتاح الحلو - طبع دار هجر - القاهرة - الطبعة الأولى.
- ٣١ - المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة -
لمحمد عبدالرحمن السخاوي - تحقيق محمد عثمان الخشت - طبع
دار الكتاب العربي - الطبعة الثانية - ١٤١٤هـ.
- ٣٢ - الموسوعة الحديثية - مسند الإمام أحمد بن حنبل - طبع مؤسسة
الرسالة - الأولى - ١٤١٩هـ.
- ٣٣ - الموطأ - للإمام مالك بن أنس - تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي -
طبع دار الدعوة - دار سحنون - الثانية - ١٤١٣هـ.

العلاقة بين القول والعمل وأثرها في الدعوة إلى الله

إعداد

الدكتور / حسن بن عائض آل عبد الهادي
الأستاذ المساعد في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية الدعوة وأصول الدين
في جامعة أم القرى

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْ حَظَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّتِي نَسَاءَ لُونِ بِيءِ وَأَلْزَمَ إِنْ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

أما بعد:

فإن الدعوة إلى الله ﷻ أمر جليل ودعامة عظيمة من دعائم ترسيخ المبادئ الحقّة في المجتمع المسلم، ومن أهم طرق الدعوة إلى الله ﷻ والتي يكون مردودها أوقع في النفوس والتي يرى فيها الناس واقعاً معاشاً، القول فيها صنو العمل، ولذلك رأينا القرآن الكريم يركز على العمل الصالح، وقد جاء في الأثر أن الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، مما يوحي بأن الإيمان في ديننا يعبر عن مضمون عملي، كما يعبر عن مضمون قلبي كما في حديث رسول الله ﷺ: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَنْتَهَبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارُهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ"^(٤).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الطيب للجمعة، برقم (٢٤٧٥)، ٨٧٥/٢.

فالجانب العملي لا يتمثل - فقط - في الحياة الخاصة التي تحدد للإنسان مصيره في الدنيا والآخرة، بل ينعكس على حركة الدعوة ومسيرتها الظاهرة لما للسيرة العملية للداعية من تأثير على تجاوب الناس مع القول، وتفاعلهم معه، بينما تعطي السيرة المضادة، تأثيراً عكسياً يوحي بالابتعاد عنها نظراً إلى فقدان الانسجام في حياة الداعية بين القول والعمل.

ولأهمية هذا الأمر أردت في هذا البحث أن أنبه إلى بعض إشارات تعين على أداء تلك المهمة العظيمة والرسالة الشريفة.
والله أسأل أن ينفعني وإخواني بهذه الكلمات، وأن يجعلنا من الداعين إلى سبيله على بصيرة، وأن يحيينا مسلمين، ويتوفانا مؤمنين، وأن يحشرنا في زمرة الرسل، والأنبياء والشهداء، والصالحين.
وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أهمية الموضوع وسبب اختياره:

أولاً: مطابقة القول للعمل يعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة، التي هي في متناول القدرات الإنسانية وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال.

ثانياً: مستويات فهم الكلام عند الناس تتفاوت، ولكن الجميع يتساوى أمام الرؤية بالعين المجردة لمثال حي. فإن ذلك أيسر في إيصال المعاني التي يريد الداعية إيصالها للمقتدي.

ثالثاً: الأتباع ينظرون إلى الداعية نظرة دقيقة فاحصة دون أن يعلم، قرباً عمل يقوم به لا يلقي له بالاً يكون في حسابهم من الكبائر، وذلك أنهم يعدونه قدوة لهم.

رابعاً: المثال الحي المرتقي في درجات الكمال، يثير في نفس البصير العاقل قدراً كبيراً من الاستحسان والإعجاب والتقدير والمحبة. ومع هذه الأمور تتهيج دوافع الغيرة المحمودة والمنافسة الشريفة، فإن كان عنده ميل إلى الخير، وتطلع إلى مراتب الكمال، وليس في نفسه عقبات تصده عن ذلك، أخذ يحاول تقليد ما استحسنته وأعجب به، بما تولد لديه من حوافز قوية تحفزها لأن يعمل مثله، حتى يحتل درجة الكمال التي رآها في المقتدي به.

خامساً: أن اقتران القول بالعمل يساعد على تكوين الحافز في المتربي دونما توجيه خارجي، وهذا بالتالي يساعد المتربي على أن يسلك المسالك الفاضلة من حسن السيرة والصبر والتحمل وغير ذلك.

خطة البحث:

أولاً: المقدمة.

ثانياً: أهمية الموضوع وسبب اختياره.

ثالثاً: الخطة التفصيلية وتشتمل على:

الفصل الأول: دلالة القرآن الكريم والسنة على أهمية اقتران القول

والعمل.

المبحث الأول: الأدلة من القرآن الكريم.

المبحث الثاني: الأدلة من السنة النبوية.

الفصل الثاني: علاقة القول بالعمل في حياة النبي ﷺ والسلف

الصالح ﷺ.

المبحث الأول: في حياة النبي ﷺ.

المبحث الثاني: في حياة السلف الصالح ﷺ.

الفصل الثالث: أسس العلاقة بين القول والعمل.

المبحث الأول: أسس العلاقة بين القول والعمل.

المبحث الثاني: مسائل لا انفصال فيها بين القول والعمل .

الخاتمة.

الفهارس.

فهرس الآيات.

فهرس الأحاديث.

فهرس الموضوعات.

دلالة القرآن الكريم والسنة

على أهمية اقتران القول والعمل

المبحث الأول الأدلة من القرآن الكريم:

ولقد حاولت أن أحصي المواضع التي وردت فيها كلمة العمل الصالح في القرآن الكريم فوجدتها نحواً من تسعين موضعاً. أما كلمة: العمل بتصريفاتها: (عمل، يعمل، يعملون، اعمل، اعملوا، عامل عاملون، عاملة، عمل، أعمال) مع وصف أو غير وصف، فهي نحو ثلاثمائة وستين موضعاً^(١).

إنها إشادة صريحة بأهمية العمل وقيمه وضرورته للحياة:

أولاً: قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾.

ثانياً: قال شعيب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ آخِذَ بِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَمَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٣﴾﴾.

ثالثاً: قال الله تعالى: ﴿يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٤﴾﴾.

قال الإمام الرازي: "أرشدتهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال و الأقوال، أما الأفعال فالخير، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله ومن قال الصدق قال قولاً سديداً ثم وعدهم بإصلاح الأعمال فإن يتقوا الله يصلح العمل والعمل الصالح

(١) انظر: معجم ألفاظ القرآن، إخراج مجمع اللغة العربية، ٢ / ٢٤٩ - ٢٥٢.

(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢ - ٣.

(٣) سورة هود، الآية: ٨٨.

(٤) انظر: معجم ألفاظ القرآن، إخراج مجمع اللغة العربية، ٢ / ٢٤٩ - ٢٥٢.

يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالداً في الجنة وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب.

وقد وردت آيات متعددة في الاستقامة، ولأئمة الدين تعريفات لها متعددة، ذات دلالة واحدة منها: تعريف سفيان الثوري - رحمه الله - بأنها: "العمل على وفاق القول"^(١).

وعرفها ابن تيمية - رحمه الله - بقوله: «الاستقامة على محبة الله وعبوديته، وعدم الالتفات عنه يمينا أو يسرة»^(٢).

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - : « هذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها: اعتدلوا على طاعة الله، عقداً، وقولاً، وفعلاً، وداوموا على ذلك»^(٣).

وقال ابن القيم - رحمه الله - : «فلاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء»^(٤). من تلك الآيات:

أولاً قوله تعالى: ﴿ أَفِدْنَا الْمَرْطَ الْمُسْتَقِيمَ ① مِرَطَ الَّذِينَ أَنْمَتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾^(٥).

ثانياً قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا سَتَرْنَا لَهُمْ آيَاتِنَا أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾^(٦).

(١) الجامع لأحكام القرآن، (١٥/٣١٩).

(٢) أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، (١٤٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، (١٥/٣١٩).

(٤) مدارج السالكين، (٢/٨٠).

(٥) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦، ٧.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

ثالثاً قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) **أُولَئِكَ أَحْسَبُ الْجَنَّةَ خَلِيدِينَ فِيهَا جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ^(١).

رابعاً قال ﷺ: **مخاطباً الرسول ﷺ وأُمَّته: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْفَرُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** ^(٢).

المبحث الثاني الأدلة من السنة النبوية:

الدليل الأول :

ذكر البخاري - رحمه الله - في حديث طويل عن صلح الحديبية وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من كتابة الصلح مع قريش: " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: قُومُوا فَاذْهَبُوا ثُمَّ احْلِقُوا قَالَ فَوَ اللَّهُ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ أَخْرُجْ ثُمَّ لِمَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَتَحَرَّ بِدُنْكَ وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بِدُنْهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَتَحَرَّوْا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا" (١).

الدليل الثاني:

" عن علي بن حسين أن صفيية زوج النبي ﷺ أخبرته أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره وهو معتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان ثم قامت تنقلب فقام معها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ قريبا من باب المسجد عند باب أم سلمة زوج النبي ﷺ مر بهما رجلان من الأنصار فسلمتا على رسول الله ﷺ ثم نفذا فقال لهما رسول الله ﷺ على رسلكما قالا سبحان الله يا رسول الله وكبر عليهما ذلك فقال رسول الله ﷺ إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا" (٢).

(١) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل

الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٥٨١)، (٩٧٤/٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الخمس، باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ، حديث رقم

(٢٩٣٤) (١١٣٠/٣). وصحيح مسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رأى =

فيحسن بالقدوة أن يكون على درجة من الشفافية والتحسس ليبقى بعيداً عن موارد الظنون ومواقع التأويلات. قال الحافظ في الفتح: "وفيه التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتياط من كيد الشيطان والاعتذار"^(١).

ويقول ابن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدى بهم فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم^(٢).

الدليل الثالث:

روى الإمام مسلم رحمه الله من حديث كثير بن العباس بن عبد المطلب قال: قال العباس: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي^(٣)، فلما التقى المسلمون والكفار ولى^(٤) المسلمون مدبرين فظنق^(٥) رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال العباس: وأنا أخذ بلجام^(٦) بغلة رسول الله ﷺ أكنها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان أخذ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ أي عباس ناد أصحاب

= خالياً بامرأة وكانت زوجة أو محرماً له أن يقول هذه فلانة. ليدفع ظن السوء به،

حديث رقم (٥٨٠٨)، (٨/٧).

(١) فتح الباري، (٤/٢٧٩).

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٢ / ٨٠).

(٣) هو فروة بن نفاثة الجذامي.

(٤) ولى: أدبر وانهمز.

(٥) طفق: شرع وبدأ.

(٦) اللجام: حديدة يشد بها فم الدابة فيسهل قيادتها.

السَّمْرَةَ^(١) فَقَالَ الْعَبَّاسُ: وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا^(٢): فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيُّنْ أَصْحَابُ السَّمْرَةَ قَالَ فَوَ اللَّهُ لَكَأَنَّ عَطَفْتَهُمْ^(٣) حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةَ الْبَقْرِ^(٤) عَلَى أَوْلَادِهَا فَقَالُوا يَا لَبِيكَ يَا لَبِيكَ قَالَ فَاقْتُلُوا وَالْكَفَّارَ وَالِدَعْوَةَ فِي الْأَنْصَارِ يَقُولُونَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ قَالَ ثُمَّ قَصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فَقَالُوا يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فَظَنَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَعْلَتِهِ كَأَمْتِطَاوِلٍ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذَا حِينَ حَمَى الْوَطَيْسُ^(٥) قَالَ ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَصِيَّاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وَجُوهَ الْكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ أَنهَزْمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ قَالَ فَذَهَبَتْ أَنْظَرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى قَالَ فَوَ اللَّهُ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصِيَّاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا^(٦) وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا^(٧).

هذا الحديث يبين ما حدث في غزوة حنين، وأن الساعات الأولى منها كانت لثقيف وهوازن التي سبقت إلى صعيد المعركة، واحتلت المضايق، وانبثوا في الشعاب والمواقع المنيعة، وبادروا في استقبال المسلمين بوابل من السهام، وكانوا رماة لا يخطئون. فارتفعت الصفوف المتقدمة من المسلمين لهذه المفاجأة المتكاتف.

(١) السمرة: الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية.

(٢) صيتا: قوي الصوت.

(٣) عطفتم: سرعة رجوعهم لمكانهم.

(٤) عطفة البقر: أي قبل ما تعطف وتحن.

(٥) حمى الوطيس: اشتد القتال.

(٦) كليلاً: قوتهم ضعيفة.

(٧) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٥).

فما كان من النبي ﷺ إلا الانقضاض على صفوف الأعداء يتقدم الجيش، ليقودهم إلى النصر المؤزر، بكل شجاعة ورباطة جأش. فمن هنا يتضح لنا أهمية عمل النبي ﷺ في هذا الموقف وأن مئات المواضع والخطب الرنانة لا تفعل فعل الشجاع الثابت الجأش.

الدليل الرابع:

روى البخاري - رحمه الله - عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ وَلَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ يَقُولُ لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِيٍّ مَا عَلَيْهِ سَرَجٌ فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ فَقَالَ لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ^(١).

الدليل الخامس:

روى البخاري في صحيحه عن عقبه ﷺ قال: " صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ الْعَصْرَ فَسَلَّمْتُ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فَرَأَى أَنَّهُمْ عَجِبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ فَقَالَ ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تَبَرِّ عِنْدَنَا فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ"^(٢).

الدليل السادس:

جاء في الصحيحين وغيرهما عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - أن النبي، ﷺ قال: " يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير، (٢٧٥١)، مسلم، كتاب الفضائل، (٢٣٠٧)،

الترمذي، كتاب الجهاد، (١٦٨٧)، أبو داود، كتاب الأدب، (٤٩٨٨)، ابن ماجه،

كتاب الجهاد، (٢٧٧٢)، أحمد، (١٤٧/٣).

(٢) البخاري، كتاب الأذان، (٨١٣)، النسائي، كتاب السهو، (١٣٦٥)، أحمد، (٨/٤).

فَتَنَدَلِقُ أَقْتَابَهُ^(١) فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْجَمَارُ بِرَحَاهُ^(٢) فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ أَيُّ قَلَانٍ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ كُنْتُ أَمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَأُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ"^(٣).

الدليل السابع:

روى الإمام أحمد رحمه الله قال: حدثنا محمد بن فضيل عن عطاء عن أبي عبد الرحمن زيد بن خالد الجهني قال: محمد بن فضيل عن عطاء عن أبي عبد الرحمن قال حدثنا من كان يُقَرِّئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ قَالُوا فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ^(٤)، وقد كان ذلك هو منهج السلف الصالح ﷺ، وبه يتواصون يقول الفضيل - رحمه الله - : «على الناس أن يتعلموا فإذا علموا فعليهم العمل»، ويقول ابن عيينة: «العلم إن لم ينفعك ضرك»، وقال الشيخ الألباني معلقاً على هذا القول: «يعني إن لم ينفعه بأن يعمل به ضره بكونه حجة عليه»^(٥).

(١) أقتابه: أمعاؤه وأحشاؤه.

(٢) الرحي: آلة تطحن الحب.

(٣) البخاري، كتاب بدء الخلق، (٣٠٩٤)، مسلم، كتاب الزهد والرقائق، (٢٩٨٩)،

أحمد، (٢٠٥/٥).

(٤) مسند أحمد بن حنبل، ج ٥/ص ٤١٠.

(٥) اقتضاء العلم بالعمل، الخطيب البغدادي، تحقيق الألباني، ص ٣٧.

الدليل الثامن:

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: اتَّخَذَ النبي ﷺ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فَأَتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ النبي ﷺ إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فَتَبَدَّهْ وَقَالَ إِنِّي لَنْ أَلْبَسَهُ أَبَدًا فَتَبَدَّ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ^(١).

قال العلماء: «فدُلُّ ذلك على أن الفعل أبلغ من القول».

الفصل الثاني

علاقة القول بالعمل

في حياة النبي ﷺ والسلف الصالح ﷺ

المبحث الأول في حياة النبي ﷺ:

إن من العوامل المهمة في تبليغ الدعوة إلى الله وجذب الناس إلى الإسلام وامتنثال أوامره واجتباب نواهيه، مطابقة قول الداعي لأفعاله الحميدة وصفاته العالية وأخلاقه الزاكية مما يجعله أسوة حسنة لغيره، يكون بها أنموذجاً يقرأ فيه الناس معاني الإسلام فيقبلون عليها وينجذبون إليها، لأن التأثر بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثر بالكلام وحده.

ولذا نجد الإسلام اهتم بهما. فاعتبر عمل النبي ﷺ وتقريره ﷺ سنة، كما اعتبر قوله ﷺ سنة. فأوجب إتباع النبي ﷺ في سلوكه كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾^(١).

ولقد أنكر الله ﷻ على المؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون، إنكاراً شديداً وذلك في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢).

إن الإسلام انتشر في كثير من بلاد الدنيا بالقدوة العملية للمسلمين التي كانت تبهر أنظار غير المسلمين وتحملهم على اعتناق الإسلام، فبالسيرة الطيبة يحقق الداعي دعوة عملية للإسلام يستدل بها سليم الفطرة راجح العقل من غير المسلمين على أن الإسلام حق من عند الله ﷻ.

مجلة

الدراسات (١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

الدعوية (٢) سورة الصف، الآية: ٢ - ٣.

ومما يدل على تأثير العمل في تصديق الداعي والإيمان بما يدعو إليه أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال له: من أنت؟ قال: أنا محمد بن عبد الله. قال الأعرابي: أنت الذي يقال عنك إنك كذاب؟ فقال: أنا الذي يزعمونني كذلك. فقال الأعرابي: ليس هذا الوجه وجه كذاب، ما الذي تدعو إليه؟ فذكر له رسول الله ﷺ ما يدعو إليه من أمور الإسلام فقال له الأعرابي: آمنت بك وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فالأعرابي استدلَّ بِسَمْتِ رسول الله ﷺ ووجهه المنير ﷺ الذي يظهر عليه الصدق، استدلَّ بذلك على صدقه فيما يدعو إليه ﷺ. فالأتباع ينظرون إلى الداعية نظرة دقيقة فاحصة دون أن يعلم، فربَّ عمل يقوم به لا يلقي له بالاً يكون في حسابهم من الكبائر، وذلك أنهم يعدونه قدوة لهم.

فقدوة المسلمين الأولى صاحب الخلق الأكمل والمنهج الأعظم رسولنا محمد ﷺ وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١) ومن دقيق المعنى في هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه جعل الأسوة في رسول الله ﷺ ولم يحصره في وصف خاص من أوصافه أو خلق من أخلاقه أو عمل من أعماله الكريمة، وما ذلك إلا من أجل أن يشمل الاقتداء أقواله عليه الصلاة والسلام وأفعاله وسيرته كلها فيقتدي به ﷺ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ويقتدي بأفعاله وسلوكه من الصبر والشجاعة والثبات والأدب وسائر أخلاقه، كما يشمل الاقتداء بأنواع درجات الاقتداء من الواجب والمستحب وغير ذلك مما هو محل الاقتداء.

وقد قال بعض أهل العلم: إن الله لو أرسل القرآن في كتاب مجموع منزل ولم يرتبط بحياة النبي ﷺ وسلوكه لما استطاع الإسلام أن يخطو خطواته الكبيرة في الحياة، ولكن الناس كانوا يستمعون إلى القرآن من النبي ﷺ من جهة، ويشاهدونه كصورة حية متحركة في حياته من جهة أخرى فتجسدت لهم أخلاق النبي ﷺ وأعماله قرآنا يتحرك على الأرض كما حدثت عنه زوجته "عائشة" رضي الله عنها بقولها: "كان خلقه القرآن".

وقد كان حديث القرآن عن علاقة سلوكه القرآني بنجاحه في الدعوة، صريحاً واضحاً وذلك هو قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِطْرًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفُسًا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾^(٢).

البحث الثاني علاقة القول بالعمل في حياة السلف ﷺ^(١):

من أقوال السلف في بيان أهمية مطابقة القول بالعمل:

أولاً يقول أبو الدرداء ﷺ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً»^(٢).

ثانياً ومن لطائف الفقه عند أهل العلم رحمهم الله ما ذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٣).

فالمعنى أن الله ذم بني إسرائيل على هذا الصنيع حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له بل الذم على الترك وحده وليس على الأمر، فإن الأمر بالمعروف مطلوب من العامل ومن المقصر ويتأكد هذا المعنى من الآية الثانية في قوله سبحانه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٤).

فإن الله ذمهم ولعنهم ليس على فعلهم المنكر فحسب بل على تركهم التناهي عنه، فالمقصر عليه واجبان: الأول: الكف عن التقصير

(١) هم أتباع النبي ﷺ من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين أهل القرون المفضلة التي قال عنها النبي ﷺ: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» رواه البخاري في كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم: ٢٦٥٢. ورواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم، رقم: ٦٤١٧. وانظر: شرح العقيدة الطحاوية، لأبي العز الطحاوي، ص ٣٣٠. ومفهوم السنة والجماعة، للدكتور ناصر العقل، ص ٧٩.

(٢) إبطال الحيل، ابن بطه، باب الفقيه الذي يستفتى.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٧٩.

والثاني: دعوة المقصرين إلى ترك التقصير. وهو فقه دقيق ينبغي أن ينتبه له الدعاة والمربون وكفى بريك هادياً ونصيراً.

وليس عالماً ذلك الذي لم يعمل بعلمه، ولا يستحق وصف التكريم هذا، فعن علي رضي الله عنه قال: (يا حملة العلم: اعملوا به، فإن العالم من علم ثم عمل، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم، لا يجاوز تراقيهم تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف علمهم عملهم، يقعدون حلقة، يباهي بعضهم بعضاً؛ حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم إلى الله عز وجل).

ثالثاً وقال الحسن البصري - رحمه الله - : « العالم الذي وافق علمه عمله، ومن خالف علمه عمله فذلك راوية سمع شيئاً فقال له «. ومرّ الحسن البصريُّ على مطرف بن عبد الله في أصحابه فقال: عِظْهُمْ. فقال: أخشى أن أقول ما لا أفعل. قال الحسن: وأينما يقول ما يفعل ؟ ودَّ الشيطانُ لو ظفرَ منكم بهذه .

رابعاً قال الثوري - رحمه الله - : «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل».

خامساً ذكر صاحب حلية الأولياء عن مالك بن دينار: « العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما تزل القطرة عن الصفا». **سادساً** قال الإمام الشافعي - رحمه الله - : «من وعظ أخاه بفعله كان هادياً».

سابعاً قال عبد الواحد بن زيد - رحمه الله - : « ما بلغ الحسن في الناس ما بلغ إلا لكونه إذا أمر الناس بشيء كان أسبقهم إليه، وإذا نهاهم عن شيء كان أبعدهم منه».

ثامناً يروي أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة. عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، وقال: يا هذا أنت اليوم رأسٌ والناس يقتدون بك، فو الله لئن أجبته إلى خلق القرآن ليجيبنَّ بإجابتك خلق من خلق الله وإن أنت لم تجب ليمتنعنَّ خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل - يعني المأمون - إن لم يقتلك فأنت تموت، ولا بد من الموت فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

وتمر الأيام عسيرة على الإمام أحمد، ويمتنحن فيها أشدَّ الامتحان ولم ينس نصيحة الأنباري، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له: "يا أستاذ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(١). فقال أحمد: يا مروزي اخرج، انظر أي شيء ترى! قال: فخرجتُ إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقاً من الناس لا يحصي عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم. فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له: رأيت قوماً بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء".

إننا نحاول التأكيد على هذا الجانب من الممارسة في حياة الداعية لأن الدعاة حين يستسلمون للحياة استسلام المشغوفين بها، المندفعين إليها، بكل شوق ولهفة، ويعبون منها بلا حساب، ويتحدثون عن الزهد

في الدنيا وما أعد الله للزاهدين، ويقصون على الناس قصص الزهاد، ولكنهم لا يزهدون في الدنيا هذا الزهد الذي يحدثون الناس به. **تاسعاً** وما أجمل ما صور ابن القيم به هذا الواقع المتضارب، وهذه الانفصالية بين الأقوال والأفعال وأثرها في المدعويين فقال رحمه الله: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قال قائلهم للناس هلموا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاع طرق».

فالذين لا يعملون بعلمهم ولا يتسق سلوكهم مع عملهم، فضلاً عن أن يكونوا من الراسخين في العلم، وإنما هم رواة أخبار وحفظه أسفار، والفقهاء فيما رووه أمر آخر وراء هذا. أو هم ممن غلب عليهم الهوى فغطى على قلوبهم. وهنا ينبغي أن يوجه اللوم، والعتاب كل العتاب، لمن يفعل ذلك، وحسبك أن الله ﷻ سمي ذلك الانفصام بين القول والعمل مقتماً، بل جعله أكبر المقت وأشدّ البغض، فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(١). إن الإيمان ليس مجرد كلمات يديرها الإنسان على لسانه، ويتحلى بها أمام الناس ويتشدد بها في المناسبات دون أن يكون لها أثرها في سلوكه وواقعه ودون أن تترجم إلى واقع حي يراه الناس، فيكون هذا الواقع العملي الظاهر والالتزام مؤشراً على الإيمان الصحيح وعمقه في نفس صاحبه.

الفصل الثالث

أسس العلاقة بين القول والعمل

المبحث الأول أسس العلاقة بين القول والعمل:

أساسا العلاقة بين القول والعمل، هما الإخلاص وموافقتهما للكتاب والسنة، فالإخلاص سر عظيم وباب دقيق والتميز به من أعظم المطالب - وهو من أولى ما ينبغي أن يُفتش عنه في الرجل المقتدى به. فيكون المقصود بالقول والعلم والعمل وجه الله ﷻ بعيداً عن أغراض النفس وأغراض المخلوقين، بل عبودية خاضعة تمام الخضوع لله ﷻ أمراً ونهياً ونظراً وقصداً.

فالعمل الصالح إذا أطلق يراد به أن يكون موافقا للشرع، والخالص المراد به أن يكون لوجه الله، وهذان ركنا العمل، شرطان لا يصح العمل إلا بهما.

الشرط الأول: أن يكون العمل صالحا، وهو أن يكون موافقا للشرع، والدين والسنة.

والشرط الثاني: أن يكون خالصا لله، وقد جمع الله بين الشرطين في مواضع من كتابه، قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١)، العمل الصالح ما كان موافقا للشرع، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا، هذا هو العمل الخالص.

وقال - سبحانه وتعالى - : ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢) فإسلام الوجه، هو إخلاص

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٢.

العمل لله، والإحسان هو أن يكون العمل موافقاً للشرع، وهو العمل الصالح، فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

وكلمة الفضيل بن عياض في هذا الباب معروفة، قال في تفسير آية الملك: ﴿لِبَلْوَاكُمْ أَتُكْرَمُونَ أَمْ لَكُمْ أَعْمَالٌ﴾^(٢): «أخلصه وأصوبه؛ فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، فلا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً»^(٣).

والمرء إذا أسلم وجهه لله وأخلص نيته لمولاه فإن حركاته وسكناته ونومه ويقظته محسوبة في مرضاة الله. بل إن النصح والإخلاص يرقى بالعبد الضعيف العاجز إلى رتبة القادر العامل، ففي غزوة العسرة من تبوك سجل القرآن الكريم خبر هؤلاء الضعفاء الناصحين المخلصين في قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذْ أَنْصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ۗ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٤) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَيَأْتِيَنَّهُمْ تَغْيُظٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾^(٥) وسجل لهم الرسول ﷺ هذا الموقف حين خاطب جنده الغازين في سبيل الله بخبر هذه الطائفة بقوله ﷺ: «إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر»^(٦).

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

(٢) سورة الملك، من الآية: ٢.

(٣) انظر: العبودية لابن تيمية ص ٧.

(٤) سورة التوبة، الآيات:

(٥) البخاري، كتاب الجهاد والسير، (٢٦٨٤)، ابن ماجه، كتاب الجهاد، (٢٧٦٤).

ومن هنا يتبين أن الإسلام يلحظ في أعمال الناس، وما يقارنها من نيات وما يصاحبها من دواعٍ وبواعث، لذا نرى أن ضعف الإخلاص عند بعض من ذوي المواهب والمواقع القيادية جعل تابعيهم والمعجبين بهم، يوجهون النقد إليهم، حتى يمكن تدارك هذا الخلل، وتلافي القصور .

المبحث الثاني مسائل لا تثريب فيها على من لم يتبع القول بالعمل:
المسألة الأولى: لا عصمة لغير النبي ﷺ:

وهو أن المسلم، حتى ولو كان قدوة مترقيًا في مدارج الكمال قد يغلبه هوى أو شهوة أو تدفعه نفس أمارة بالسوء أو ينزغه الشيطان، فتصدر منه زلة أو يحصل منه تقصير، فإذا حدث ذلك فليبادر بالتوبة والرجوع وليُعلم أن هذا ليس بمانع من التأسى به والاقترداء، فالضعف البشري غالب والكمال لله وحده ولا معصوم إلا من عصم الله ﷺ، وقد حدث مالك عن ربيعة قال: سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. قال: وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء.

وقال الحسن البصري لمطرف بن عبد الله بن الشخير: يا مطرف عذ أصحابك. فقال مطرف: إني أخاف أن أقول ما لا أفعل - فقال الحسن: يرحمك الله وأينا يفعل ما يقول؟؟ وذ الشيطان أنه ظفر بهذه منكم فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر.

وقال الحسن أيضاً: أيها الناس إني أعظكم ولست بخيركم ولا أصلحكم وإني لكثير الإسراف على نفسي غير محكم لها ولا حاملها على الواجب في طاعة ربها، ولو كان المؤمن لا يعظ أخاه إلا بعد إحكام أمر نفسه لعدم الواعظون، وقلّ المذكرون ولما وجد من يدعو إلى الله جل ثناؤه ويرغب في طاعته وينهى عن

معصيته، ولكن في اجتماع أهل البصائر ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضاً حياة لقلوب المتقين، وإذكار من الغفلة، وأمن من النسيان، فالزموا - عافاكم الله - مجالس الذكر، فرب كلمة مسموعةً ومحتقرٍ نافعٌ.

وعلى هذا لا ينبغي أن يترك أحد الدعوة إلى الله ﷻ بحجة التقصير؛ بل يستمر فيها ويسعى إلى سدّ الخلل، وتلافي التقصير، وذلك بالمسارعة إلى فعل ما أمر الله ﷻ به ورسوله الكريم ﷺ والمبادرة إلى اجتناب ما نهى الله ﷻ عنه ورسوله الكريم ﷺ.

المسألة الثانية: أصحاب الأعدار:

ينبغي أن يفهم أن الداعي إذا لم يعمل وفق دعوته لعذر معقول فلا إثم عليه ولا حرج، ويستمر في دعوته ولا يعاب عليه، ومما يدل على هذا ما يلي:

أولاً: روى الإمام البخاري عن أبي هريرة ؓ قال: «أوصاني خليلي بثلاث: لا أدعهن حتى أموت^(١). صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر^(٢)»^(٣).

(١) «لا أدعهن حتى أموت»: قال الحافظ ابن حجر: يحتمل أن يكون قوله: «لا أدعهن» إلخ من جملة الوصية: أي أوصاني أن لا أدعهن، ويحتمل أن يكون من إخبار الصحابي بذلك عن نفسه. (فتح الباري ٥٧/٢).

(٢) «نوم على وتر»: وفي رواية أبي التياح: «وأن أوتر قبل أن أنام». (نقلًا عن المرجع السابق ٥٧/٢).

ثانياً: روى الإمام مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «أوصاني حبيبي بثلاث: لن أدعهن ما عشت: بصيام بثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، وبأن لا أنام إلا على وتر»^(١).

ثالثاً: روى الإمام النسائي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أوصاني حبيبي بثلاثة: لا أدعهن إن شاء الله تعالى أبداً أوصاني بصلاة الضحى، وبالوتر قبل النوم، وبصيام ثلاثة أيام من كل شهر»^(٢).

فالنبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث السابقة أوصى أبا هريرة وأبا الدرداء وأبا ذر بنوم على وتر ولم يكن صلى الله عليه وسلم يصلي الوتر قبل النوم، فقد روى الإمام البخاري عن ابن عمر قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي من الليل مثني مثني، ويوتر بركعة"^(٣).

كما روى الإمام البخاري أيضاً عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي وأنا راقدة معترضة على فراشه، فإذا أراد أن يوتر أيقظني، فأوترت»^(٤).

ومما نجده في هذين الحديثين أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لم يكن يفعل ما وصى به أصحابه الثلاثة من النوم على وتر.

والسبب لذلك أن وصيته صلى الله عليه وسلم تلك كانت لمن يثق بالاستيقاظ. قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وفيه استحباب تقديم الوتر على النوم، وذلك في حق من لم يثق

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، رقم الحديث ٨٦ (٧٢٢)، ٤٤٩/١.

(٢) سنن النسائي، كتاب الصيام، صوم ثلاثة أيام من الشهر، ٢١٧/٤ - ٢١٨. وصححه الشيخ الألباني: (انظر: صحيح سنن النسائي ٥٠٧/٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الوتر، باب ساعات الوتر، رقم الحديث ٩٩٥، ٤٨٦/٢.

(٤) المرجع السابق، باب إيقاظ النبي صلى الله عليه وسلم أهله بالوتر، رقم الحديث ٩٩٧.

بالاستيقاظ»^(١)، ولم يكن النبي الكريم ﷺ في حاجة إلى ذلك حيث كان واثقاً بفضل الله تعالى من الاستيقاظ.

ومن فعل الصحابة:

أولاً: ما روى الإمام البخاري عن عبدالرحمن بن القاسم عن عبدالله بن عبدالله بن عمر أنه أخبره أنه كان يرى عبدالله بن عمر يتربع في الصلاة إذا جلس. ففعلته، وأنا يومئذ حديث السن^(٢). فنهاني عبدالله بن عمر^(٣)، وقال: «إنما سنة الصلاة أن تتصب رجلك اليمنى، وتثني اليسرى». فقلت: «إنك تفعل»^(٤). فقال: «إن رجلي لا تحملاني»^(٥).

ومما نجده في هذه الرواية أن عبدالله بن عمر لم ير بأساً في نهى ابنه من الجلوس متربعاً في الصلاة، مع أنه ﷺ كان يجلس فيها متربعاً، حيث كانت جلسته تلك بسبب عذر.

ثانياً: ذكر الحافظ الذهبي عن أبي وائل عن أبي الدرداء ﷺ: «إني لأمركم بالأمر وما أفعله، ولكن لعل الله يأجرني فيه»، ولعل ترك أبي الدرداء ﷺ ذلك كان لعذر معقول. والله تعالى أعلم. وبعد: فهذا ما يسر الله ﷻ، لعل فيه ما أفاد، فإن كان كذلك فله الحمد والمنة، وإن كان سوى ذلك فأرجو أن لا يضمن محباً بنصح، وصلى الله على خير خلقه نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) فتح الباري ٥٧/٢.

(٢) «وأنا يومئذ حديث السن»: صغير لم أميز بين فعل العذر وغيره. (حواشي كشف المغطاء عن وجه الموطأ ص ٧٢ هامش ١).

(٣) (فنهاني عبدالله بن عمر): فيه دليل على الإنكار على الطفل إذا أخطأ في الصلاة.

(٤) «فقلت: إنك تفعل»: فيه دليل على أن مخالفة الداعي لما يقوله تثير تساؤلاً لدى المخاطب.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب سنة الجلوس في التشهد.

الخاتمة:

الحمد لله الذي تتم بنعمه الصالحات، وأشكره سبحانه على توفيقه وتيسيره لي في كتابة هذا البحث عن العلاقة بين القول والعمل وأثرها في الدعوة إلى الله ﷻ والذي تضمن مقدمة وثلاثة فصول تحدثت في الفصل الأول عن: دلالة القرآن والسنة على اقتران القول بالعمل وفيه مبحثان، المبحث الأول: الأدلة من القرآن الكريم و المبحث الثاني: الأدلة من السنة النبوية. وفي الفصل الثاني علاقة القول بالفعل في حياة النبي ﷺ والسلف الصالح. وفيه مبحثان، المبحث الأول: في حياة النبي ﷺ و المبحث الثاني: في حياة السلف الصالح، أما الفصل الثالث فقد خصصته للحديث عن أسس العلاقة بين القول والعمل وفيه مبحثان، المبحث الأول: أسس العلاقة بين القول والعمل و المبحث الثاني: مسائل لا انفصال فيها بين القول والعمل هذا وقد تجلّى في هذا البحث عدة نتائج وتوصيات وذلك على النحو

التالي:

أولاً: نتائج البحث:

- إن القرآن الكريم حث على اقتران القول بالعمل ورتب عليه الفضل العظيم والثواب الجزيل، مما يدل على كمال الشريعة وشمولها.
- إن النبي ﷺ كان قدوة للناس في تطبيق القول للعمل وكان أحسنهم سريرة وعلانية.
- إن الدعاء إلى الله في هذا الزمان أحوج ما يكونون إلى المقارنة بين الأقوال والأفعال ليكونوا قدوة حسنة لغيرهم، ودعوة صامتة تآثر أبلغ الأثر وأحسنه في الآخرين حتى وإن كانوا من أكبر أعداء الدعوة ومناوئهم.

مجلة
الدراسات
الدعوية

- إن الانفصال بين القول والعمل في حياة الدعوة من أبرز العوائق والعقبات التي تقف في طريق الدعوة إلى الله ﷺ، وتحد من انتشارها وتأثيرها.

ثانياً: التوصيات.

- أوصي نفسي وأخواني الدعوة إلى الله ﷺ بتقوى الله عزوجل والعناية بكل ما يعلي من شأن الدعوة إلى الله ﷺ وينهض بها.
- أن يحرص الدعوة إلى الله ﷺ على مطابقة أفعالهم لأقوالهم في الدعوة إلى الله ﷺ .
- ضرورة العناية بدراسة سيرة الرسول ﷺ، والإفادة من مواقفه العظيمة في أقواله وأعماله، للاقتداء به ﷺ .
- العناية بسيرة السلف الصالح - رحمهم الله - والإفادة من مواقفهم في الدعوة إلى الله بالأقوال والأفعال.
- أن تنظم المؤسسات التعليمية التي لها علاقة بالدعوة والدعاة الندوات العلمية واللقاءات حول اقتران القول بالعمل وضرورة تحلي كل مسلم بها .
- هذا والله أسأل ﷺ أن يجعل أقوالنا وأعمالنا جميعاً خالصة لوجهه الكريم وأن يزيدنا علماً وعملاً، إنه خير مأمول وأعظم مسؤول، وصلى الله وسلم على نبينا وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع:

- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين القشيري، ابن دقيق العيد، المحقق: مصطفى شيخ ومدثر سندس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- اقتضاء العلم العمل، الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣)، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ط٥ (المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤ هـ).
- تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي، لأبي العلي محمد عبد الرحمن عبد الرحيم المباركفوري، ت ١٣٥٣ هـ، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن الخطيب عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ت ٧٧٤ هـ، طبعة ١٤٠٧ هـ، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- تفسير غريب ما في الصحيحين، للإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي ت ٤٨٨ هـ، تحقيق د. زبيدة محمد سعيد، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ، مكتبة السنة، القاهرة.
- تهذيب سنن أبي داود (المطبوع مع معالم السنن)، للإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد ابن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد حامد الفقي، بدون تاريخ، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، للدكتور أحمد غلوش، طبعة ١٣٩٩ هـ، دار الكتاب المصري، القاهرة.
- زاد الداعية إلى الله، للعلامة محمد بن صالح العثيمين، مطابع المدينة، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله القرطبي، الطبعة الأولى، دار الفكر.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للعلامة محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

- سنن ابن ماجه - مخرج الأحاديث على الصحاح والسنن، ابن ماجه، تحقيق: العطار، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، دار الفكر.
- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، ت ٢٧٩هـ، تحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر. تحقيق د. فؤاد عبد المنعم أحمد، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ، دار الوطن، الرياض، المملكة العربية السعودية. العلمية والإفتاء، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ت ٢٥٥هـ طبعة ١٤٠٤هـ، تحقيق عبد الله بن هاشم اليماني، توزيع الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض. المملكة العربية السعودية.
- سنن النسائي (ت ٣٠٣)، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، ترقيم أبي غدة، ط ٢ (مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ).
- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي (ت ٧٩٢)، تحقيق جماعة من العلماء وتخريج محمد ناصر الدين الألباني، ط ٩ (المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ)
- شرح صحيح مسلم للنووي، لمحيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ت ٦٧٦هـ، تحقيق لجنة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ دار القلم، بيروت، لبنان.
- شرح علل الترمذي، للحافظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ت ٧٩٥هـ، تحقيق نور الدين عتر، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ، دار الملاح للطباعة والنشر.
- الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ط ٣ (دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٤هـ).
- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، بقلم محمد بن ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية، دار الصديق، الجبيل، المملكة العربية السعودية.

- صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت ٢٥٦هـ، طبعة ١٤١٤هـ، دار الفكر، بيروت، لبنان. وطبعة ١٣١٥هـ، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا، والنسخة.
- صحيح الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، ط ١ (المكتب الإسلامي ١٣٨٨هـ).
- صحيح السيرة النبوية، الشيخ محمد بن رزق بن طرهوني، ط ١ (دار ابن تيمية القاهرة، ١٤١٠هـ).
- صحيح سنن ابن ماجة، محمد ناصر الدين الألباني، ط ١ (المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٧هـ).
- صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، ط ١ (المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٩هـ).
- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، ط ١ (المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ).
- صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، ط ١ (المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٩هـ).
- العبودية، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، ت ٧٢٨ ط ١ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ.
- فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح وتعليق سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، نشر (رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض).
- فصول في الدعوة والثقافة الإسلامية، حسن عيسى عبد الظاهر، ط ١ (دار القلم الكويت، ١٤٠١هـ).
- المدخل إلى علم الدعوة، محمد أبو الفتح البيانوني، ط ١ (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٢هـ).
- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، الطبعة الأولى، دار الفكر

- معالم السنن، حاشية سنن أبي داود، حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٨٨) ط١ (دار الحديث، بيروت، ١٣٨٨هـ).
- المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠)، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط١ (الدار العربية للطباعة). وكذلك نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضع محمد فؤاد عبد الباقي، نشر (مؤسسة جمال للنشر، بيروت).
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥)، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٢ (مصطفى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٩٠هـ).
- موسوعة أطراف الحديث النبوي، أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ط١ (دار الفكر، بيروت، ١٤١٠هـ).

السلطة التقديرية للمحتسب

إعداد

الدكتور / رزين بن محمد الرزين

الأستاذ المساعد في قسم الدعوة والاحتساب

بكلية الدعوة والإعلام

في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فقد شرع الله عز وجل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإقامة شرعه بين خلقه وحفظ حدود الله وحفظ حقوق خلقه، وقد عني علماء هذه الأمة ببيان أحكام هذه الفريضة وتقرير أصولها وتفریع فروعها على هدى من الكتاب والسنة، ومن ذلك بيان سمات وسلطات من يقوم بهذه الفريضة وهو من يسميه العلماء بالمحتسب الذي يمارس سلطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولاشك أن المحتسب في ممارسته لهذه السلطة يجب أن ينطلق من الضوابط والحدود الشرعية، وهذه السلطة التي يمارسها تتصف بتعاملها مع أشخاص وأحوال وأزمنة مختلفة مما يوجب أن تكون هذه السلطة قابلة للتكيف والمرونة لتحقيق غايات الحسبة وأهدافها، ولذلك لا بد أن يكون في تلك السلطة مساحة كافية لتقدير الأحوال والظروف ودرجات الاحتساب، وهو ما اصطُح عليه في الأنظمة المعاصرة بالسلطة التقديرية.

وإذا كنا لا نرى هذا المصطلح لفظاً في مصنفات الحسبة فلا يعني ذلك أنه غير موجود في الحقيقة، بل إنه محل اعتبار عند العلماء كما سنبينه بعون الله في هذا البحث.

وقد دفعني إلى هذا البحث أن الحسبة في العصر الحاضر تتميز

بتنظيمها وفق أنظمة مختلفة ولاسيما في المملكة العربية السعودية، مجلة الدراسات الدعوية وهذه الأنظمة وإن كانت مستمدة في أساسها من الشريعة الإسلامية

إلا أن تفسيرها خاضع للمبادئ القانونية، ولذلك رغبت في بيان مبدأ السلطة التقديرية الذي يمارس فعليا في مجال الحسبة منطلقاً في ذلك من نصوص الشريعة الإسلامية وقواعدها وضوابطها، ثم سأعرض لبعض تطبيقات السلطة التقديرية في أحد أنظمة الحسبة الصادرة في المملكة وهو نظام مكافحة الغش التجاري.

أسأل الله عز وجل العون والتوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

خطة البحث:

أهمية الموضوع:

يعتمد نظام الحسبة في مجمله على حمل الناس على فعل المعروف وترك المنكر بحسب المراتب والدرجات التي قررها علماء الإسلام بناء على الأدلة الشرعية، والمحتسب يستند في سلطته وأمره ونهيه إلى هذه المصادر، وهي سلطة تقديرية في مجملها، ولكن لا بد أن تتضبط بالضوابط الشرعية وأن تكون وسيلتها وغايتها تطبيق الشرع ولذلك كان من المهم دراسة هذا الموضوع.

أهداف الدراسة:

١. أن يتضح لمن يقوم بالحسبة أن سلطة المحتسب يجب أن تنطلق من ضوابط وأن تلتزم بحدود الشرع.
٢. تقرير هذا المصطلح وضبطه بضوابطه الشرعية.
٣. بيان أن الحسبة سلطة شرعية تنظم تحت ضوابط الشرع وتلتزم بحدوده.

تساؤلات الدراسة:

١. ما المراد بالسلطة التقديرية في النظام الوضعي؟
٢. ما المراد بالسلطة التقديرية في النظام والشريعة الإسلامية؟
٣. ما ضوابط وحدود السلطة التقديرية للمحتسب؟
٤. ما مجالات السلطة التقديرية للمحتسب؟

منهج البحث:

سيعتمد هذا البحث على المنهج الاستقرائي وهو المنهج الذي يتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعها^(١).

(١) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حنيفة الميداني، جدة، دار البشير، ط ٧، ١٤٢٥هـ، ص ١٨٨.

التعريف بمصطلحات الدراسة:

السلطة التقديرية في اللغة:

السلطة في اللغة:

سلط السين واللام والطاء أصل واحد، وهو القوّة والقهر. من ذلك السّلاطة، من التسلط وهو القهر، ولذلك سمّي السُّلطان سلطاناً، والسلطان: الحجّة^(١).

التقدير في اللغة:

قدر القاف والذال والراء أصل صحيح يدل على مَبْلَغ الشيء وكُنْهه ونهايته. فالقدر: مبلغ كلّ شيء، يقال: قدره كذا، أي مبلغه، وكذلك القدر، وقدرت الشيء أقدره وأقدره من التقدير، وقدرته أقدره؛ والقدر: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها، وهو القدر أيضاً^(٢).

يعرف بعض الباحثين السلطة التقديرية بأنها:

هي تمتع الإدارة بقسط من حرية التصرف وهي تمارس اختصاصاتها القانونية^(٣).

ويعرفها آخر بأنها: مُكْنة تتيح للإدارة الاختيار الحر للإجراء الذي تراه مناسباً للوقائع التي تبرر اتخاذها، وذلك في غير الحالات التي تلتزم بما يقرره كل من المشرع والقاضي من قيود في خصوصها^(٤).

(١) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، باب السين واللام وما يثلثهما.

(٢) ابن فارس، مقاييس اللغة، باب القاف والذال وما يثلثهما.

(٣) د. عصام بن عبد الوهاب البرزنجي، السلطة التقديرية للإدارة (مصر، القاهرة، دار النهضة العربية) ص ١.

(٤) د. رمضان بطيخ، الاتجاهات المتطورة في قضاء مجلس الدولة الفرنسي للحد من سلطة الإدارة التقديرية، (مصر، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٤م) ص ٤٥.

وتعريف المحتسب:

المحتسب هو القائم بالحسبة وقد يكون محتسبا رسميا أو محتسبا متطوعا، ولكنه إذا أطلق فإنه يراد به المحتسب القائم بولاية الحسبة الرسمية^(١).

والحسبة في اللغة:

الحسبة مصدر احتسابك الأجر على الله تعالى، تقول فعلته حسبةً، واحتسب فيه احتساباً، والاحتساب: طلب الأجر.. والاحتساب من الحساب كالأعداد من العد، وإنما قيل لمن ينوي بعمله وجه الله تعالى: احتسبه، لأن له حينئذ أن يعتد عمله^(٢).

وفي الاصطلاح: يعرف العلماء الحسبة في الاصطلاح بأنها: (أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله)^(٣) وهذا التعريف يعد أجمع وأمنع تعريف للحسبة في نظري، وكما قرر ذلك بعض العلماء^(٤).

(١) انظر للتوسع والاستزادة: الأحكام السلطانية للماوردي و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للفضالي، وغيرها.

(٢) جمال الدين بن منظور الأنصاري، لسان العرب، إعداد وتصنيف: يوسف خياط (لبنان، بيروت: دار لسان العرب) ١/٦٣٠، مادة حسب.

(٣) الإمام أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية (لبنان، بيروت: دار الكتاب العربي)، ص ٣٩١، واختاره أ.د. محمد رواس قلعة جي، معجم لغة الفقهاء، بيروت، دار النفائس، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م، مادة حسب، ١٥٨.

(٤) يقرر ذلك فضيلة الأستاذ الدكتور فضل إلهي، في كتابه الحسبة تعريفها، ومشروعيتها، ووجوبها (باكستان، سيتلاييت تاؤن: إدارة ترجمان الإسلام، ط٢ ١٤١٣هـ ١٩٩٣م)، ص ٢٠.

تقسيمات الدراسة:

المقدمة.

تمهيد: القاسم المشترك بين السلطة التقديرية في النظام والشريعة

الإسلامية.

المبحث الأول: أساس السلطة التقديرية في النظام.

المطلب الأول: تدرج القواعد القانونية.

المطلب الثاني: نظرية الحقوق الشخصية.

المطلب الثالث: فكرة المشروع.

المبحث الثاني: السلطة التقديرية في الشريعة الإسلامية.

المطلب الأول: مشروعية السلطة التقديرية في الشريعة الإسلامية.

المطلب الثاني: ضوابط السلطة التقديرية للمحتسب.

المطلب الثالث: التمييز بين السلطة التقديرية للمحتسب الرسمي

والمتطوع.

المطلب الرابع: مجالات السلطة التقديرية للمحتسب.

المبحث الثالث: نموذج لتطبيقات للسلطة التقديرية في أنظمة الحسبة

في المملكة.

المطلب الأول: السلطة التقديرية فيما يتعلق بالعقوبة.

المطلب الثاني: السلطة التقديرية فيما يتعلق ببعض الإجراءات.

خاتمة.

تمهيد:

القاسم المشترك بين السلطة التقديرية في النظام والشريعة الإسلامية:

قد يثور مثل هذا التساؤل قبل الدخول في هذا البحث عن وجه الارتباط بين السلطة التقديرية في النظام وفي الشريعة الإسلامية، سيما وأن التفاصيل ومنهج عرض هذه القضية قد يختلف كلياً بين المصادر في النظام وفي الشريعة الإسلامية، ولكننا عند التأمل نجد أن هذا الارتباط يتضح جلياً في النظر إلى المصلحة العامة وتقديرها. ففي مجال النظام نجد اعتبار قضية المصلحة يتضح جلياً في سبب تدخل الإدارة وممارستها للسلطة التقديرية ولذلك يعنى بالسلطة التقديرية في النظام (أن يترك المشرع^(١) للإدارة شيئاً من الحرية لتقرر بمحض اختيارها ما إذا كان من الصالح أن تتدخل أو تمتنع^(٢)). واعتبار المصلحة أيضاً في الغاية من اتخاذ القرار الإداري المشمول بالسلطة التقديرية فهذه الغاية يحددها المشرع دائماً إما وفقاً للقيود العام، وهو قيد المصلحة العامة، وإما وفقاً للقيود المخصص الذي يضعه المشرع لكل سلطة يمنحها للإدارة^(٣).

(١) عبارة المشرع ترد كثيراً عند فقهاء القانون الوضعي ويعنى بها واضع النظام وقد نقلتها كما ذكرها باعتبارها مصطلحاً، ولكن الأولى عدم ذكرها واستبدالها بواضع القانون أو المنظم أو المقنن ونحو ذلك، لأن المشرع هو الله تبارك وتعالى.

(٢) د. سليمان الطماوي، الوجيز في القانون الإداري، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٩م، ٦٣٢.

(٣) د. سليمان الطماوي، مبادئ القانون الإداري، القاهرة، دار الفكر العربي، ط٦،

١٩٦٤م، ٨٩٥. وانظر: د. محمد فؤاد عبدالباسط، أعمال السلطة الإدارية، القاهرة،

١٩٨٩م، ١١٢.

وسيتضح خلال تناول البحث للسلطة التقديرية في الشريعة الإسلامية أن مدارها مبني على المصلحة، وسيأتي الحديث عنها مفصلاً بإذن الله تعالى في موضعه.

المبحث الأول

أساس السلطة التقديرية في النظام

قبل الحديث عن السلطة التقديرية في النظام الوضعي ينبغي التأكيد على أنه لا توجد سلطة تقديرية مطلقة باتفاق شراح القانون، كما أنه أيضاً لا توجد سلطة مقيدة في كل أحوالها بل يتاح للإدارة إمكانية التقدير في بعض الجوانب وإن كانت طفيفة أو مضيقية إلى حد كبير^(١).

تمتعت الإدارة ولازالت بجانب من حرية التقدير في نشاطها الذي تمارسه بصرف النظر عن اتساع هذا الجانب حيناً أو ضيقه حيناً آخر، وذلك لأن حرية التقدير ظاهرة تلازم النشاط الإنساني في جميع مستوياته وأشكاله، ومهما كانت القواعد التي تنظم هذا النشاط، فإن تقييد النشاط الإداري تقييداً تاماً إنما هو الاستحالة بعينها، فالإدارة في الوقت الحاضر أصبحت إدارة خدمات، ترتاد مجالات واسعة من صنوف النشاط، ومن المتعذر تنظيم كل دقائق نشاطها بقواعد سابقة ومحددة^(٢).

يذهب الباحثون في مجال القانون إلى عدد من الاتجاهات في أساس السلطة التقديرية سنفصلها في المطالب الآتية:

(١) انظر: د. محمد فؤاد عبدالباسط، أعمال السلطة الإدارية، ١٠٩، ١١٠.

(٢) انظر: عبدالوهاب البرزنجي، السلطة التقديرية للإدارة، ص ١٨٥، ١٨٤.

المطلب الأول تدرج القواعد القانونية:

وتعني هذه الفكرة أن القواعد القانونية في المجتمع إنما تتدرج فيما بينها في مراتب مختلفة، بحيث تقيد القاعدة الأدنى منها درجة، وهذه الأخيرة تتضمن تخصيصاً للقاعدة الأولى، وبمعنى آخر أن كل قاعدة قانونية في التدرج القانوني بالدولة تتخذ لها صفتين: فهي قاعدة منفذة ومخصصة للقاعدة الأعلى منها درجة من ناحية، ومنشئة في ذات الوقت للقاعدة الأدنى منها مرتبة من ناحية أخرى^(١).

ولما كان اختصاص رجل الإدارة حين ينفذ القاعدة القانونية اختصاصاً مقيداً إذا وقف بقراره عند حد التنفيذ الحر في القاعدة القانونية، وبعد اختصاصاً تقديرياً إذا أضاف لهذه القاعدة عناصر جديدة، فإنه يمكن القول إن السلطة التقديرية للإدارة إنما تجد أساسها في التدرج التنازلي للقواعد القانونية، إذ غالباً ما تكون القاعدة الأعلى متسمة بالعمومية والتجريد وتتطلب بالتالي نوعاً من التحديد والتقييد من جانب رجل الإدارة، وهذا لايتأتى إلا إذا كان له سلطة تقديرية^(٢).

ويؤخذ على هذه الفكرة أنها تضيق من نطاق السلطة التقديرية حيث تقصرها فقط على مجرد تخصيص رجل الإدارة للقاعدة القانونية مع أن هناك حالات أخرى يتمتع رجل الإدارة فيها بسلطة تقديرية دون أن يضيف إلى القاعدة القانونية التي يتولى تنفيذها أية عناصر جديدة، وذلك مثل الاختيار الحر بين قرارين أو أكثر، أو

(١) انظر: د. سامي جمال الدين، قضاء الملائمة والسلطة التقديرية للإدارة (مصر،

القاهرة، ١٩٩٢م) ص ٢٤.

(٢) انظر: د. رمضان بطيخ، الاتجاهات المتطورة في قضاء مجلس الدولة الفرنسي، ص ٤٦.

التقرير الحر لاتخاذ القرار من عدمه، أو تحديد الوقت الملائم لاتخاذ هذا القرار وغير ذلك، ولهذا لا تصلح مثل هذه الفكرة لبيان الأساس القانوني للسلطة التقديرية^(١). ويرى بعض شراح القانون أن تدرج القواعد القانونية ليس أساساً للسلطة التقديرية بقدر ما يعتبر مبرراً لقيام السلطة التقديرية^(٢).

(١) انظر: د. رمضان بطيخ، الاتجاهات المتطورة في قضاء مجلس الدولة الفرنسي، ص ٤٧.

(٢) د. نبيل إسماعيل عمر، سلطة القاضي التقديرية في المواد المدنية والتجارية (مصر،

الاسكندرية، دار المعارف، ط ١ ١٩٨٤) ص ٣٣.

المطلب الثاني نظرية الحقوق الشخصية:

تقوم هذه النظرية على الربط بين الحقوق الشخصية والاختصاص المقيد بمعنى أن هذا الاتجاه يرى أن الأساس القانوني للسلطة التقديرية هو انتفاء أو عدم وجود حق قانوني للفرد تجاه الإدارة^(١). ومعنى ذلك أن الإدارة تستطيع ممارسة اختصاصاتها بحرية تامة بدون تقييد إذا كان ذلك لا يتعرض لحقوق شخصية للأفراد تجاه الإدارة، إذ بوجود هذه الحقوق تصبح سلطة الإدارة مقيدة^(٢). ولذلك يرى بعض الشراح أن فكرة الحقوق الشخصية تعد تحديداً لمجال السلطة التقديرية أو قيدها عليها أساساً لوجودها، مع أن الإدارة قد تتمتع بقدر من السلطة التقديرية في مواجهة بعض حالات السلطة التقديرية، وذلك لاعتبارات مختلفة وأبرزها الصالح العام^(٣).

(١) انظر: د عصام البرزنجي، السلطة التقديرية للإدارة، ص ١٨٩.

(٢) انظر: د. رمضان بطيخ، الاتجاهات المتطورة في قضاء مجلس الدولة الفرنسي، ص ٤٧ - ٤٨.

(٣) انظر: د. نبيل إسماعيل عمر، سلطة القاضي التقديرية في المواد المدنية والتجارية، ص ٢٢، ود. عصام البرزنجي، السلطة التقديرية للإدارة، ص ١٩٥.

المطلب الثالث فكرة المشروع:

تقوم هذه الفكرة على أساس أن الإدارة بما تباشره من أنشطة متعددة لا تختلف كثيرا عن مشروعات الأفراد الخاصة، بمعنى أن الإدارة العامة بهيئاتها المختلفة عبارة عن مشروع يشبه إلى حد كبير المشروعات الخاصة للأفراد، وطالما أن هؤلاء الأفراد يتمتعون عن إدارتهم لتلك المشروعات بسلطة تقديرية، فإنه يجب الاعتراف لإدارة كذلك بمثل هذه السلطة^(١).

وبذلك تتبلور الإجابة عن التساؤل عن سبب تخلي القواعد القانونية عن تحديد النشاط الإداري أحيانا، وبمعنى آخر سبب تمتع الإدارة بالاستقلال وحرية التقدير في ممارسة النشاط الإداري، في صفة المشروع التي تصبغ هذا النشاط الإداري، ومن ثم سلطات الإدارة بوصفها المدير المسؤول أو الرئيس لهذا المشروع، بمعنى أن السلطة التقديرية هي أمر يرتبط بطبيعة المشروع حيث يتعين النظر إلى النشاط الإداري باعتباره كذلك، وعليه تقوم الإدارة بتسيير مشروع كبير يهدف إلى المصلحة العامة من خلال إقامة النظام العام وتوفير المنافع والمرافق العامة، وفي سبيل ذلك تملك الإدارة تقييد نشاطها ذاتيا، كما تملك كذلك ملاءمة نشاطها وأعمالها، ومن ثم تمثل صفة المشروع للنشاط الإداري مصدر السلطة التقديرية وأساسها^(٢).

(١) انظر: د. رمضان بطيخ، الاتجاهات المتطورة في قضاء مجلس الدولة الفرنسي،

ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) انظر: د. سامي جمال الدين، قضاء الملاءمة والسلطة التقديرية للإدارة (مصر)،

القاهرة، ١٩٩٢م) ص ٣٦ - ٣٧.

ويبدو أن هذا الاتجاه هو الأقرب للصحة، وهو الأساس القانوني
للسلطة التقديرية في القانون^(١).

(١) انظر: د. رمضان بطيخ، الاتجاهات المتطورة في قضاء مجلس الدولة الفرنسي،

ص ٤٩ - ٥٠.

و د. سامي جمال الدين، قضاء الملاءمة والسلطة التقديرية للإدارة (مصر،

القاهرة، ١٩٩٢م) ص ٣٧.

المبحث الثاني

السلطة التقديرية في الشريعة الإسلامية

المطلب الأول مشروعية السلطة التقديرية في الشريعة الإسلامية:

ضبطت الشريعة الإسلامية سلطة ولي الأمر مطلقاً بإطار عام، وهو أن تكون طاعة ولي الأمر ضمن حدود طاعة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(١).
 ويدل لذلك أيضاً ما رواه عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ، قال «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(٢).

قال ابن خويز منداد: وأما طاعة السلطان فتجب فيما كان لله فيه طاعة، ولا تجب فيما كان لله فيه معصية^(٣).

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٤).

حقيقة العدل بين شيئين أو شخصين المعادلة والموازنة بينهما في أمر ما، فالمقصود به إذا مراعاة التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في كل شيء، وليس حقيقة انتظام مصالح الناس وتناسقها مع بعض، إلا خطأ مستقيماً يفصل بين طرفي الإفراط والتفريط في شؤونهم، وهما طرفان ينتهيان بالمفسدة لا محالة، ويبرز هذا المعنى واضحاً في تصريح

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، ومسلم، كتاب الإمارة.

(٣) تفسير القرطبي، ٢٥٨/٥.

(٤) سورة النحل، الآية: ٩٠.

الآية بالمفهوم المخالف للعدل المأمور به وهو النهي عن الفحشاء والمنكر والبغى، وليست هذه الثلاث إلا جماع المفاصد المختلفة التي تعرقل السبيل إلى تنظيم مصالح الناس وتحقيق الخير لهم^(١).

لقد ضببت الشريعة الإسلامية سلطة الوالي بشكل عام بضابط اعتبار المصلحة الشرعية المعتبرة، لتكون المصلحة والسعي لتحصيلها غاية ونطاقاً لأي تصرف يمارسه الوالي ضمن ولايته الشرعية، ولذلك فكما أن المصلحة تعد قيوداً على سلطة الوالي التقديرية فهي أيضاً مبرر لتصرفات الوالي، وقد استتبط العلماء لذلك قاعدة فقهية كلية وهي قاعدة (التصرف على الرعية منوط بالمصلحة)^(٢).

أساس هذه القاعدة:

يقول - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٣).

فهذه الآية الكريمة تأمر الحاكم أن يكون حكمه بالعدل، ولاشك أن من الحكم بالعدل أن تكون تصرفات الحاكم مبنية على مصلحة الأمة، بل وفي هذه الآية تنبيه منه تبارك وتعالى في قرن الأمانة بالحكم إلى أن المسؤولية أمانة توجب على الحاكم أن يكون تصرفه من منطلق العدل.

(١) انظر: د. محمد سعيد البوطي، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، دمشق، مؤسسة

الرسالة، ص ٧٦.

(٢) الشيخ أحمد الزرقاء، شرح القواعد الفقهية، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٣هـ.

١٩٨٣م، ٢٤٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٨.

ويقول المصطفى ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)^(١).
ويقول ﷺ: (ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه لم يجد
رائحة الجنة)^(٢).

وذلك أن نفاذ تصرف الراعي على الرعية ولزومه عليهم شأؤوا أم
أبوا معلق ومتوقف على وجود الثمرة والمنفعة في ضمن تصرفه، دينية
كانت أو دنيوية، فإن تضمن منفعة ما وجب عليهم تنفيذها^(٣).

ويقول ابن القيم - رحمه الله - : الشريعة مبناها وأساسها على
الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ومصالح
كلها، وحكمة كلها^(٤).

يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله - : والشريعة ما وُضعت إلا
لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل ودرء المفسد عنهم^(٥).

ويقول العز بن عبد السلام رحمه الله:

يتصرف الولاية ونوابهم بما ذكرنا من التصرفات بما هو الأصح
للموكل عليه درءاً للضرر والفساد، وجلباً للنفع والرشاد، ولا يقتصر
أحدهم على الصلاح مع القدرة على الأصح إلا أن يؤدي إلى مشقة
شديدة، ولا يتخيرون في التصرف حسب تخيرهم في حقوق أنفسهم مثل

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب تأويل قوله تعالى (من بعد وصية يوصي بها
أو دين) برقم ٢٦٩٢. ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة
الجائر برقم ٤٦٨٠.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، برقم
٣١٩.

(٣) انظر: الشيخ أحمد الزرقاء، شرح القواعد الفقهية، (لبنان، بيروت، دار الغرب
الإسلامي، ١٤٠٢هـ) ص ٢٤٧.

(٤) إعلام الموقعين ١٣/٢.

(٥) الإمام الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ٩/٢.

أن يبيعوا درهما بدرهم، أو مكيلة زيب بمثلها لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١) وإن كان هذا في حقوق اليتامى فأولى أن يثبت في حقوق عامة المسلمين فيما يتصرف فيه الأئمة من الأموال العامة؛ لأن اعتناء الشرع بالمصالح العامة أوفر وأكثر من اعتناؤه بالمصالح الخاصة، وكل تصرف جر فساداً أو دفع صلاحاً فهو منهي عنه كإضاعة المال بغير فائدة، وإضرار الأمزجة لغير عائدة، والأكل على الشبع منهي عنه؛ لما فيه من إتلاف الأموال، وإفساد الأمزجة، وقد يؤدي إلى تفويت الأرواح، ولو وقعت مثل قصة الخضر عليه السلام في زماننا هذا لجاز تعيب المال حفظاً لأصله ولأوجبت الولاية ذلك في حق المولى عليه حفظاً للأكثر بتفويت الأقل فإن الشرع يحصل الأصلح بتفويت المصالح، كما يدرأ الأفسد بارتكاب المفسد، وما لا فساد فيه ولا صلاح فلا يتصرف فيه الولاية على المولى عليه إذا أمكن الانفكاك عنه^(٢).

فالشريعة تكفل للوالي التصرف في أمور الدولة منطلقاً من تقديره للمصلحة ولذلك يمكن القول إن السلطة التقديرية تمارس بشكل موسع في الدولة الإسلامية.

(٢) سورة الأنعام، من الآية: ١٥٢.

(١) الإمام العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: دنزيه حماد ود عثمان ضميرية، دمشق، دار القلم، ط١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ١٥٨/٢.

المطلب الثاني ضوابط السلطة التقديرية للمحتسب:

لتحقق السلطة التقديرية المشروعة للمحتسب غاياتها، فإنه لا بد أن يراعي المحتسب في تنفيذها الضوابط الشرعية، التي تحميها من الزلل، ومن أهم هذه الضوابط:

١- ألا يخالف نصاً من الكتاب أو السنة:

يجب على المحتسب في كل تصرفاته أن ينظر في نصوص الكتاب والسنة، وأن يكون التغيير موافقاً هدي الكتاب والسنة، ذلك أن كل عمل صالح أساسه أمران: إخلاص النية وموافقة الشرع^(١)، فإن وجد الحكم في أحدهما منصوصاً عليه بالوجوب أو الحظر، أي أن سلطته مقيدة بما هو منصوص عليه، وأما إن خيره النص، أو سكت عن بيان حكم تلك القضية، كان له الحرية في التعامل إزاءها^(٢).

ويدل لذلك:

قوله تعالى: ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾^(٤).

(١) محمود توفيق سعد، فقه تغيير المنكر، قطر، مركز البحوث والدراسات، بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، كتاب الأمة، الإصدار الحادي والأربعين، ص ٢٥.

(٢) د. خالد الظاهر، مقال منشور بجريدة الحياة اللندنية، ٦/١٢/٢٠٠٧م.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾^(١).

فهذه الآيات الكريمة تلزم بوجوب طاعة ما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ به وترك ما نهى الله ورسوله عنه.

٢- الأ يخالف الإجماع:

فإذا كانت القضية غير منصوص عليها، لا في الكتاب ولا في السنة المطهرة، فعلى المحتسب أن ينظر في ما أجمع عليه علماء الأمة، لأن السلطة كما تتقيد بالنص، تتقيد أيضاً بما هو على إجماع فلا يجوز أن يخرج عنه^(٢).

٣- الأ يخالف القياس:

القياس مراعاة مصلحة في فرع، بناء على مساواته لأصل في علة حكمه المنصوص عليه فبينهما من النسبة إذاً، العموم والخصوص المطلق، إذ القياس فيه مراعاة لمطلق المصلحة، وفيه زيادة على ذلك العلة التي اعتبرها الشارع، ومراعاة لمطلق المصلحة أعم من أن توجد فيها هذ الزيادة...، فكل قياس مراعاة للمصلحة، وليس كل مراعاة للمصلحة قياساً، إذ تتفرد هذه الثانية في كل ما يسمى بالمصالح المرسل، وهي المصالح التي يراها المجتهد مما لاشاهد يؤيده من أصل يقاس عليه، ولادليل يلغيه من نص كتاب أو سنة^(٣).

٤- الأ يخالف مقاصد الشريعة الإسلامية:

مقاصد الشارع في خلقه تتحصر في حفظ خمسة أمور: الدين، النفس، العقل، النسل، المال، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول

مجلة (١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

الدراسات (٢) انظر: د. خالد الظاهر، مقال منشور بجريدة الحياة اللندنية، ٢٠٠٧/١٢/٦م.

الدعوية (٣) انظر: د. البوطي، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، ٢١٦.

الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول أو بعضها فهو مفسدة^(١).

فيجب أن تكون ملائمة لمقاصد الشارع في الجملة ومتفقة مع المصالح الشرعية^(٢).

إن الشريعة موضوعة لمصالح العباد، ودرء المفسد عنهم، فمن قصد غير ما وضعت له، كان مناقضاً لها فيكون عمله باطلاً، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٣) عليه يجب أن تكون تصرفات المكلفين سائرة في فلك هذه المقاصد، غير خارجة عنها ولا مصادمة لها، وغير ذلك معناه مخالفة التشريع في مقاصده وأهدافه^(٤).

على أنه يجب أن يُعلم أن هذه الأمور الخمسة أو الضرورات الخمس، وسيلة لتحقيق غاية كلية واحدة، هي أن يكون المكلفون عبيداً لله في التصرف والاختيار، كما هم عبيد له بالخلق والاضطرار^(٥).

٥- الأيخالف العرف:

جاء الإسلام لإصلاح ما فسد من أوضاع الناس، ولم يكن من أهدافه هدم ما اعتاده الناس من عادات صالحة، تعارفوا عليها جيلاً

(١) د البوطي، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، ١١٩.

(٢) د.عبدالحميد البعلبي، التشريعات العقابية ومكافحة الجريمة، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ٤٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٤) انظر: د. خالد الظاهر، ضوابط السلطة التقديرية، مقال منشور في جريدة الحياة

اللندنية، ٢٠٠٧/١٢/٦م

(٥) د. البوطي، ضوابط المصلحة، ١٢١

بعد جيل، وهو باحترامه للعرف يكون قد شرعه للناس، وبناء على القاعدة الفقهية «العادة محكمة»^(١) ومقتضى ذلك استقرار المجتمع وضبط إجراء الأعمال وفق الأعراف التي في اعتبارها مصلحة معتبرة شرعاً... ويقصد بالعرف بصفة عامة، اعتياد الناس في مجتمع ما على ممارسة سلوك أو تصرف معين مرات متكررة ولفترة طويلة، مما يجعل الاعتقاد بين الناس جميعاً بأن ذلك السلوك أو التصرف هو قاعدة نظامية ملزمة، فالعرف قاعدة غير معروفة، ولكنه يتمتع بصفة الإلزام شأنه شأن القواعد المدونة، ولكن يشترط لاعتبار العرف أن لا يخالف حكماً شرعياً أو يترتب على مفسدة.

والأدلة على تحكيم العرف في الكتاب والسنة:

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِيَّةِ ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿ وَهَلْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(٣).

ومن السنة: قوله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرام، لا يعضد

شوكه ولا يختلى خلاه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا لمعرف»^(٤).

إن الشارع كان له اهتمام بمراعاة العرف الصالح، إذ إن الإسلام جاء لإصلاح ما فسد من أوضاع الناس، ولم يكن هدفه هدم ما اعتاده الناس من عادات صالحة، لذا يشترط في السلطة التقديرية

(١) الشيخ أحمد الزرقاء، شرح القواعد الفقهية، ١٦٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٢٨.

(٤) أخرجه البخاري، في كتاب الحج، باب فضل الحرم، برقم ١٥٦٨، ومسلم في

كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها، برقم ٢٢٥٦

لإدارة في الفقه الإسلامي أن تراعي العرف في ممارساتها الإدارية، حتى لا تصدر قوانين الناس التي أقرها لهم الشرع الإسلامي، لكي لا يؤدي العمل إلى فساد^(١).

ويبين الإمام الشاطبي - رحمه الله - أن الشريعة ضببطت مسألة العرف وتحكيمه فيقول (العوائد المستمرة ضربان: أحدهما العوائد الشرعية التي أقرها الدليل الشرعي أو نفاها، ومعنى ذلك أن يكون الشرع أمربها إيجاباً أو ندياً، أو نهى عنها كراهة أو تحريماً، أو أذن فيها فعلاً وتركاً، والضرب الثاني هي العوائد الجارية بين الخلق بما ليس في نفيه ولا إثباته دليل شرعي) ثم يواصل حديثه عن هذين النوعين فيقول: (فأما الأول فثابت أبداً كسائر الأمور الشرعية كما قالوا في سلب العبد أهلية الشهادة، وفي الأمر بإزالة النجاسة..، وما أشبه ذلك من العوائد الجارية في الناس، إما حسنة عند الشارع أو قبيحة، فإنها من جملة الأمور الداخلة تحت أحكام الشرع، فلا تبدل لها وإن اختلفت آراء المكلفين فيها) ثم يقول (وأما الثاني: فقد تكون العوائد ثابتة وقد تتبدل، ومع ذلك فهي أسباب لأحكام تترتب عليها، فالثابتة كشهوة الطعام والشراب والوقاع والنظر والكلام، والبيطش والمشى وأشباه ذلك، وإذا كانت أسباباً لمسببات حكم بها الشارع فلا إشكال في اعتبارها والبناء عليها والحكم على وفقها دائماً،..، والمتبدلة منها ما يكون متبدلاً في العادة من حسن إلى قبح وبالعكس، مثل كشف الرأس فإنه يختلف بحسب البقاع في الواقع، فهو لذوي المروآت قبيح في البلاد المشرقية، وغير قبيح في البلاد المغربية، فالحكم الشرعي يختلف باختلاف

ذلك، فيكون عند أهل الشرق قادحاً في العدالة وعند أهل المغرب غير قادح^(١).

٦- ألا يخالف قواعد سد الذرائع:

إن على المحتسب، قبل أن يتخذ أي تصرف إداري، أن ينظر وأن يتأكد أن ذلك التصرف لا يخالف الكتاب أو السنة المطهرة أو أمراً مجمماً عليه، ولا يخل بقصد من مقاصد الشارع، وأن يراعي العرف الذي تعارف الناس عليه... وإن سد الذرائع هو نوع من المصلحة لأنه «عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه، قويت التهمة في أدائه، إلى فعل محظور» أو هو الطريق، والوسائل، حتى لا تؤدي إلى آثارها المقصودة سواء أكانت محمودة، أم مذمومة، صالحة أم فاسدة، ضارة أم نافعة، وقد بنى الشاطبي قاعدة سد الذرائع على أصل مهم، وهو قصد الشارع إلى النظر في مآلات الأفعال، سواء كانت موافقة أم مخالفة، لأن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو الإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، فقد يكون مشروعاً لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تشأ عنه أو لمصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك. لذا فإن النظر إلى المآلات لا يعتمد على مقصد العامل ونيته بل على نتيجة العمل وثمرته، فبحسب النتيجة والثمرة يحسن العمل أو يقبح، ويطلب أو يمنع، لأن الأصل في اعتبار الذرائع سواء في سدها أم فتحها هو النظر إلى مآلات الأفعال، فيأخذ الفعل حكماً يتفق مع ما يؤول إليه سواء قصده الفاعل أم لم يقصده، أي أن العلاقة بين قاعدة سد

مجلة

الدراسات

الدعوية

(١) الشاطبي، الموافقات، ٢/ ٢٨٤، ٢٨٢

الذرائع ومآلات الأفعال هي السببية، فالذريعة إذا كانت تؤدي إلى مفسدة أو ضرر سدت، وإذا كانت تؤدي إلى مصلحة أو خير فتحت، فالمآل سبب والذريعة سبب^(١).

٧- ألا يتسبب في تقويت مصلحة أهم منها أو مساوية لها:

شريعة الله تعالى قائمة على أساس مصالح العباد، لأن المقصود بمراعاتها لمصالحهم أنها تقضي بتقديم الأهم على ما دونه، وبالتزام المفسدة الدنيا لانقضاء الكبرى، حينما تتلاقى المصالح والمفاسد في مناط واحد، أو يستلزم أحدهما الآخر لسبب ما، فهذا هو الميزان الذي حكمته هذه الشريعة الغراء في مراعاة المصالح ونتائجها، وفهم درجاتها في الأهمية بنظر الشارع، حتى لا يحيد المجتهد عن التمسك بهذا الميزان لدى اجتهاده في المصالح والمفاسد التي لم يجد نصاً في شأنها^(٢).

يقول النبي ﷺ: (من ولي من أمر المسلمين شيئاً، ثم لم يجهد لهم وينصح، لم يدخل الجنة معهم)^(٣).

يقول العز بن عبد السلام - رحمه الله - : (والولاية كلها عامها وخاصها ومتوسطاتها كلها وسائل إلى جلب مصالح المولى عليه ودرء المفاسد عنه، الأولى من ذلك فالأولى)^(٤) ثم بعد أن تناول الولايات بدءاً من تولية أهل الحل والعقد الخلافة قال: (وعلى كل واحد من هؤلاء

(١) دخاند الظاهر، مقال منشور بجريدة الحياة اللندنية، ٢٠٠٧/١٢/٦م.

(٢) البوطي، ضوابط المصلحة، ٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، ١٢٦/١٣.

ومسلم، كتاب الإمامة، باب فضيلة الإمام العادل، ٤٦٨٧.

(٤) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام، ١٧٨/١.

الأولياء القيام بما ولاه الله إياه بتقديم الأصل فالأصلح والأمثل فالأمثل، وتأخير الأفسد فالأفسد، والأرذل فالأرذل^(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما هو المشروع)^(٢).

ولذلك فإن على المحتسب الموازنة بين المصالح عند استعماله للسلطة التقديرية، فيجب أن تسعى السلطة التقديرية إلى الحفاظ على المصالح الأهم فالمهم والموازنة بينها موازنة دقيقة، وهذا الضابط متفق عليه بين الفقهاء^(٣).

وهذا الضابط من القواعد المهمة التي ينبغي على المحتسب مراعاتها والالتزام بها^(٤).

(١) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام، ١/١٧١.

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٨/٢٨٤.

(٣) ذكر الاتفاق على ذلك البوطي في ضوابط المصلحة، ٢٤٩.

(٤) انظر: أ.د. حمود بن أحمد الرحيلي، قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر على ضوء الكتاب والسنة، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط٢

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢م، ٤٧.

المطلب الثالث التمييز بين السلطة التقديرية للمحتسب الرسمي والمتطوع:

يذكر بعض العلماء فروقاً بين المحتسب الرسمي والمحتسب المتطوع، ولاشك أن هذه الفروق تتدرج أيضاً على السلطة التقديرية المخولة للمحتسب، وممن فرق بينهما الإمام الماوردي^(١) والإمام أبو يعلى^(٢)، والسناي^(٣) رحمهم الله، وغيرهم سواءً بذكر هذا الفرق بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، وسنتناول في هذا المطلب الفرق بين سلطتي المحتسب المتطوع والرسمي التقديرية، مستنبطاً ذلك مما سطره العلماء في هذا المجال، وأهم هذه الفروق ما يأتي:

- ١ - أن سلطة المحتسب التقديرية وسائر ممارساتها فرض عين على المحتسب الرسمي، بينما ذلك داخل تحت فروض الكفايات بالنسبة للمتطوع.
- ٢ - أن اتخاذ المحتسب الرسمي للقرار النابع من سلطته التقديرية سواء كان هذا القرار أمراً أو نهياً أو تغييراً، أو منعاً، أو تدبيراً وقائياً أو غير ذلك من القرارات داخل تحت واجباته الرئيسة التي لا يجوز له التشاغل عنها غيرها، بينما ذلك بالنسبة للمحتسب المتطوع نافذة.
- ٣ - صلاحيات السلطة التقديرية للمحتسب الرسمي تتسع لتعطيه الحق في اتخاذ العقوبات التعزيرية المناسبة فيما دون الحدود وفي حدود ما يوكل له، بينما لا تتسع سلطة المحتسب المتطوع لذلك.
- ٤ - أن للمحتسب الرسمي سلطة تقديرية فيما يتعلق بالاجتهاد فيما يتعلق بالعرف دون الشرع، وقد مثل الماوردي لذلك باتخاذ

(١) في كتابه: الأحكام السلطانية، ٢٩١، ٢٢٩٢.

(٢) في كتابه الأحكام السلطانية، ٢٨٤، ٢٨٥.

(٣) في كتابه: نصاب الاحتساب، ٣٢٢، ٣٢٣.

المقاعد في الأسواق وإخراج الأجنحة أي ما يخرج من محلات
الباعة في السوق، فله تحديد هذا العرف ولكن ذلك ليس
للمحتسب المتطوع^(١).

مجلة
الدراسات
الدعوية
(١) انظر: الماوردي، الأحكام السلطانية ٣٩٢، ٣٩١، القاضي أبو يعلى الحنبلي، الأحكام
السلطانية، ٢٨٤.

المطلب الرابع مجالات السلطة التقديرية للمحتسب:

١. السلطة التقديرية في مجال التدابير الواقية من المنكرات:

من مقاصد عمل المحتسب منع وقوع المنكرات فإن هذا المقصد أهم من الاحتساب على المنكر بعد وقوعه ولذلك يورد العلماء قاعدة مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي أنه (لا يتعلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بأمر مستقبل)^(١) ولذلك فممنع الأسباب المؤدية إلى المنكر أولى من الانتظار إلى وقوع المنكر ثم الاحتساب عليه، وهذا الأمر تؤيده النصوص الشرعية والقواعد المستتبطة منها فمن ذلك:

تحريم الخلوة بالأجنبية للوقاية من الوقوع في الزنا، وتحريم أنواع من البيع مخافة الوقوع في الربا أو الغرر، ولذلك فقد جعلت الشريعة للوسائل أحكام المقاصد، فالوسيلة إلى المحرم محرمة ولذلك فإذا تأملنا في كثير من المحرمات نجد أنها محرمة لكونها وسائل إلى مفساد (فالنظر إلى الأجنبية محرم لكونه وسيلة للوقوع في الزنا، والخلوة بها أقبح من النظر إليها..، وكلما قويت الوسيلة في الأداء إلى المفسدة كان إثمها أعظم من إثم مانتقص عنها)^(٢) ولذلك فقد استتبطن العلماء قاعدة مهمة وهي أن درء المفساد مقدم على جلب المصالح^(٣).

(١) العز بن عبدالسلام، قواعد الأحكام، ١/١٧١.

(٢) العز بن عبدالسلام، قواعد الأحكام، ١/١٧٢.

(٣) الشاطبي، الموافقات، ٤/١٥٨. قندوز محمد الماحي، قواعد المصلحة والمفسدة عند المالكية، بيروت، دار ابن حزم، ط١ ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

ويدل لهذه القاعدة:

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْلَفِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

فأله تعالى ذكر في هذه الآية الكريمة أن في الخمر منافع للناس ولكن الله تعالى مع ذلك حرمها لاشتمالها على مفسد تفوق هذه المنافع.

٢. السلطة التقديرية في مجال الإنكار:

للمحتسب سلطة تقديرية في الإنكار من عدمه فعلى المحتسب الموازنة بين المصالح والمفاسد المترتبة على إنكاره وهو بذلك ينطلق من قاعدة فقهية أساس في هذا المجال ألا وهي قاعدة (جلب المصالح مقدم على درء المفاسد)^(٢) فإذا علم أن المفسدة على الإنكار أعظم من المصلحة لم يجز له الإنكار، وإذا علم أن مصلحة الإنكار أعظم وإن تسبب ذلك في حدوث مفسدة يسيرة وجب عليه الإنكار وهكذا، ويفصل الإمام الغزالي في هذه المسألة فيقول (وأما إن رأى فاسقاً متغلباً وعنده سيف وبيده قدح وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدح وضرب رقبتة فهذا مما لا أرى للحسبة فيه وجهاً وهو عين الهلاك) ثم يقول (بل لو علم أنه لو احتسب لبطل ذلك المنكر ولكن كان سبباً لمنكر آخر يتعاطاه غير المحتسب عليه فلا يحل له الإنكار الأظهر)^(٣).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) الشاطبي، الموافقات، ١٥٨/٤.

(٣) الإمام الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق سيد إبراهيم، مصر،

القاهرة، دار الحديث، ٢٩.

وقت الإنكار:

للمحتسب سلطة تقديرية في اختيار الوقت المناسب للإنكار سيما إذا لم يترتب على ذلك فوات مصلحة راجحة أو حدوث مفسدة، أو فوت مالا يدرك إلا بالإنكار على الفور فيجب عليه الإنكار، كما أن اختيار الوقت المناسب للإنكار يرجع إلى تقدير المحتسب لذلك الوقت بحسب تقديره للمصلحة، وهذا مبدأ نبوي أصله نبينا ﷺ، فقد كان يتخول أصحابه بالموعظة كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه كان يُذكر كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إنا نحب حديثك، ونشتهيهِ، ولوددنا أنك حدثتنا كل يوم، فقال: ما يمنعني أن أحدثكم إلا كراهية أن أملكم، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة مخافة السامة علينا^(١).

كما أن على المحتسب مراعاة ظرف المحتسب عليه، ليس لأجله هو بل مراعاة للمصلحة المتحققة من مدى استجابته للأمر، فقد يكون تكرار الأمر والنهي محققا لضد مقصود المحتسب ولذلك (كان السلف لا ينكرون على الفسقة والظلمة كلما رأوهم)^(٢).

درجات الإنكار:

استتبط العلماء - رحمهم الله - درجات للإنكار تبدأ من التعرف وتنتهي بحمل السلاح واتخاذ الأعوان^(٣).

(١) أخرجه البخاري كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة كي لا ينفروا (٦٨).

(٢) العز بن عبدالسلام، قواعد الأحكام، ١٧٥/١.

(٣) راجع درجات الإنكار عند الغزالي وغيره.

والمأمل لهذه الدرجات يجد مجالاً رحباً للسلطة التقديرية مع انضباطها بضوابط محددة في الانتقال من درجة إلى التي تليها، وقد نص العلماء على أنه ينبغي أن يستعملها المحتسب مرتبة، يقول الإمام الصالحي - رحمه الله - : (فهذه أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودرجاته التي ينبغي أن يستعملها الأمر والنهي مرتبة من غير تقديم ولا تأخير كما قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني)^(١).

الدرجة الأولى: التعرف:

وهي التعرف على وجود المنكر^(٢) وهل الحالة القائمة منكر أم لا وللمحتسب سلطة في التعرف على المنكر فله حق التفتيش والسؤال يقول الماوردي: (أن عليه أن يبحث عن المنكرات الظاهرة ليصل إلى إنكارها ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر ليأمر إلى إقامته وليس على غيره من المتطوعة بحث ولا فحص)^(٣) ولكن هذا الحق في السؤال والبحث والتفتيش والفحص له ضابط مهم وهو أن لا يكون عن طرق التجسس فإن مهمة المحتسب هي القضاء على المنكرات الظاهرة فإن التجسس محرم يقول الماوردي - رحمه الله - : (من شرط المنكر الذي ينكره المحتسب أن يكون ظاهراً، فكل من

(١) الإمام عبدالرحمن بن أبي بكر الصالحي، الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق أ.د. مصطفى صميعة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ٣٦٥.

(٢) انظر: الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٣، وجيه الدين عبدالرحمن المعروف بابن الديبع، بغية الأرية في معرفة أحكام الحسبة، مكة، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م. ص ٦٤. وذكرها أيضاً الإمام الصالحي، الكنز الأكبر، ٢٣٤.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ٣٩١.

ستر معصيته في داره وأغلق بابه، لا يجوز أن يتجسس عليه^(١) ويقول ابن النحاس - رحمه الله - : (اعلم أن التجسس حرام، فليس للإنسان أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع أصوات الملاهي، ولا أن يستشق ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يمس ما في ثوب إنسان ليعرف هل الذي بداخله منكر أم لا؟ ولا أن يستخبر جيرانه ليخبروه بما يجري في بيت جاره)^(٢) يقول ابن الديبع (الاحتساب وله درجات الأولى التعرف لا التجسس وهو حرام)^(٣) فإن للإسلام موقفاً واضحاً من التجسس حتى لو كان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدل على تحريمه أدلة كثيرة من الكتاب والسنة:

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُّ أَعْدَكُمْ أَنَّ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(٤).

يقول ابن جرير الطبري - رحمه الله - : (وقوله: وَلَا تَجَسَّسُوا يقول: ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، بيتقي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقتنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل)^(٥).

(١) الماوردي، الرتبة في طلب الحسبة، ١١٠.

(٢) الإمام أبو زكريا أحمد بن النحاس، تبيين الغافلين عن أعمال الجاهلين، دار الكتب العلمية، ٤٦، ٤٧.

(٣) ابن الديبع، بغية الإرية، ٦٤.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٥) محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، دار المعرفة، ١٩٩٠م، ٣٥٢/٧.

ويدل لذلك من السنة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً)^(١).

وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنك إن تتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت تفسدهم)^(٢).

ولكن هناك أحوال تستثنى من ذلك:

منها: أن يكون في ذلك استدراك لما قد يفوت كإنقاذ شخص من القتل، أو امرأة من أن يزني بها أو نحو ذلك مما يفوت إدراكه يقول الماوردي: (فكل من ستر نفسه وأغلق بابه، لا يجوز أن يتجسس عليه، إلا أن يكون ذلك في انتهاك حرمة يقصد استدراكها، مثل أن يخبره من يثق بصدقه أن رجلاً خلا برجل ليقته، أو امرأة ليزني بها، فيجوز له في مثل هذا الحال أن يتجسس ويقدم على الكشف والتهك، والبحث حذراً من فوات مالا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب المحظورات)^(٣).

ويمكن أن يعبر عن هذا الأمر في الأنظمة المعاصرة بمشروعية وسائل الاستدلال، فلا يمكن أن تكون وسيلة التعرف على المنكر

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن... برقم ٦٠٦٦.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في النهي عن التجسس، برقم ٤٨٨٨، وصححه النووي في رياض الصالحين، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ٤٠٥هـ-١٩٨٤م، ص ٥٩٦.

(٣) الماوردي، الرتبة في طلب الحسبة، ١١٠.

محرمة، فالغاية لاتبرر الوسيلة إلا فيما استثني، وهي حالة تتدرج تحت قاعدة (إذا تعارض المصلحة والمفسدة قدم أرجحهما)^(١).

الدرجة الثانية: التعريف:^(٢)

وهي الدرجة التي تلي درجة التعرف على المنكر، والمراد من هذه الدرجة تبين الحق لمرتكب المنكر، وللمحتسب سلطة تقديرية في تطبيقه لهذه الدرجة مقيدة بقيود من أهمها:

١ - إحسان النية بمرتكب المنكر والاعتذار له، فربما كان جاهلاً أو ناسياً، وذلك من حسن الظن بالمأمور به بين المسلمين يقول

تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتِنُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِبَعْضِ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^(٣).

٢ - أن يكون التعريف بلطف من غير عنف:

وقد نص بعض العلماء على وجوب ذلك يقول الغزالي - رحمه الله - بعد أن أشار إلى هذه الدرجة: (فيجب تهريفه باللطف من غير عنف)^(٤) ثم يقول (وإذا كان التعريف كشفاً للعورة مؤذياً للقلب فلا بد وأن يعالج أذاه بلطف الرفق فنقول له: إن الإنسان لا يولد عالماً ولقد كنا أيضاً جاهلين.. وهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء، فإن إيذاء المسلم حرام محذور كما أن تقريره على المنكر محذور وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم)^(٥).

(١) ذكر هذه القاعدة: شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٥٢٨/٢٠، وذكرها: ابن القيم في إعلام الموقعين، ٧/٢، وذكرها: العز بن عبد السلام في قواعد الأحكام، ٧٤/١.

(٢) أشار إليها: الإمام الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٤، ابن الدبيع بغية الإرية، ٦٥. والصالح في الكنز الأكبر، ٢٣٦.

(٣) سورة الحجرات، من الآية: ١٢.

(٤) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٤.

(٥) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٤.

٣ - الأ ينسب المحتسب عليه إلى الجهل:

يقول الغزالي - رحمه الله - : (وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحمق، والتجهيل إيذاء وقلما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمر لاسيما بالشرع)^(١) وقد أنكر النبي ﷺ على من يستهزئ بالجاهل، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة خلقاً تخلق أم نسجاً تتسج؟ فضحك بعض القوم فقال رسول الله ﷺ (مم تضحكون؟ من جاهل يسأل عالماً؟ ثم أكب رسول الله ﷺ ثم قال: أين السائل؟ قال هو ذا أنا يا رسول الله، قال: لا، بل تشقق عنها ثمر الجنة ثلاث مرات)^(٢).

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى^(٣):

وهذه الدرجة تلي التعريف فإذا عُرِّف مرتكب المنكر بمنكره، أو كان ممن يعلم أنه منكر فإنه يوعظ ويخوف بالله تعالى يقول الغزالي - رحمه الله - : (النهي بالوعظ والنصح بالتخويف بالله تعالى، وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكراً ...، فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك وتحكى له سيرة السلف وعبادة المتقين)^(٤).

(١) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٤.

(٢) أخرجه أحمد، ٢، ٢٤٤، برقم: ٧٠٩٥ وصححه أحمد شاكر، في الحاشية، ٤٩٨/٦.

(٣) ذكر هذه الدرجة: الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٤، وابن الديبع،

بغية الإرية، ٦٥.

(٤) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٤.

وللمحتسب سلطة تقديرية في هذه الدرجة تبدأ من تقدير حال مرتكب المنكر ومدى إصراره عليه، ولكن هذه السلطة عليها قيود من أهمها:

١ - أن يكون النهي والوعظ والنصح برفق من غير عنف وغضب: ويبين ذلك الإمام الغزالي - رحمه الله - فيقول بعد أن بين هذه الدرجة: (وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب بل ينظر إليه نظر المترحم عليه ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه إذ المسلمون كنفس واحدة)^(١).

٢ - ألا ينسب المحتسب نفسه إلى العلم والمحتسب عليه إلى الجهل: فعلى المحتسب مراعاة هذا الأمر وأن يوليه أهمية كبيرة فلا يعني احتسابه على غيره أنه أعلم وأن المحتسب عليه أجهل، بل يقصد من ذلك الوعظ والنصح لا إظهار العلم والمعرفة، يقول الغزالي - رحمه الله - : (وهنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها فإنها مهلكة، وهي أن العالم يرى - عند التعريف - عز نفسه بالعلم، وذل غيره بالجهل، فريما يقصد بالتعريف الإذلال وإظهار التمييز بشرف العلم، وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل فإن كان الباعث هذا، فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر الذي يعترض عليه)^(٢).

٣ - ألا يزيد الوعظ عن قدر الحاجة إليه^(٣): وذلك أن غاية الاحتساب هو ترك المنكر أو فعل المعروف، فإذا انتهى المنهي واثمر المأمور فلا وجه لمزيد من الوعظ والنصح، فقد تحققت غاية الاحتساب.

(١) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٤.

(٢) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٥، ٤٤.

(٣) انظر: فاطمة الجارد، الاحتساب باللسان، دار المؤيد، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ -

٢٠٠٥م، ١٨٦.

ويدل لذلك ما كان من رسول الله ﷺ حينما سمع أن حياً من الأنصار قد وجدوا على رسول الله ﷺ حينما لم يعطهم من غنائم غزوة حنين دخل سعد على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفياء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «أين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة؟» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فاتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قاله بلغني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضللاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسوله أمنٌ وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فتصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك. أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟» قال: نعم، فوالله لولا الهجرة، لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً ووادياً، وسلك الأنصار شعباً ووادياً لسلك شعب الأنصار

مجلة
الدراسات
الدعوية

وواديها، الأنصار شعار والناس دثار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، قال: فيكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا رضينا برسول الله قسماً وحظاً ثم انصرف رسول الله ﷺ (تفرقتنا)^(١) فقد وعظ النبي ﷺ في هذه الحادثة صحابته الكرام من الأنصار موعظة مناسبة لحالهم وما يعلم من إيمانهم ومحبتهم له، واكتفى ﷺ بإحداث الأثر المقصود منها، ولم يزد على ما قال أو يغلظ لهم في القول.

ويفرق العلماء بين النصيحة والتوبيخ بالإسرار والإعلان: فإن لم يندفع المنكر بإسرار الموعظة ولم ينته صاحبه أظهر - حينئذٍ - ذلك وأذاعه وأعلنه^(٢).

الدرجة الرابعة: الإغلاظ في القول:

وينتقل المحتسب إلى هذه الدرجة إذا تيقن أن الوعظ بالنصح واللطف لا يجدي، وسلطة المحتسب التقديرية في هذه الدرجة مقيدة بقيود من أهمها:

١ - ألاّ يقدم على الغلظة في القول ولا ينتقل لهذه الدرجة إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف مع المحتسب عليه:

يقول الغزالي رحمه الله: (أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف)^(٣).

٢ - أن يراعي عند إغلاظه في القول وتعنيفه، الإخلاص لله تعالى:

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال، برقم ٤٢٢٨.

(٢) الصالحي، الكنز الأكبر، ٢٤٠.

(٣) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٦.

وذلك بالأ يتحول هذا الإغلاظ إلى انتصار للنفس بل يجب أن يكون خالصاً لله تعالى وحده يقول ابن النحاس - رحمه الله - :
(واعلم أن هنا دقيقة عظيمة مهمة - قلّ من ينتبه لها - وهو أنه يجب أن يكون قصده بتغليظ الكلام وتخشينه رجوع العاصي عن تلك المعصية لا الانتصار لنفسه، لكونه ردّ كلامه واستهزأ به، فإنه ربما يكون مخلصاً في ابتداء الإنكار فإذا استهزأ به ثارت نفسه، وأغلظ في الكلام، وربما تعلق به واستعدى عليه إلى الحاكم، وكل ذلك في الحقيقة انتصار لنفسه لا غضب لله ولمحارمه، فخرج بهذا عن دائرة الإخلاص، ووقع في مهوات الغضب والحمق المنهي عنه، وصار ممن يجب الإنكار عليه بعد أن كان مُنكراً^(١)).

(١) ابن النحاس، تبيين الغافلين، ٥٣. يقول ابن النحاس - رحمه الله - : فإن قلت كيف يفرق بين الغضب لله والانتصار للنفس؟ قلت: محك الاعتبار في هذا أن ينظر في نفسه لو حصل له سبٌّ وشتَمٌ واستهزاء مع زوال المنكر هل كانت نفسه ترضى بذلك وتسكن إليه؟ فإن وجدها راضية بذلك مطمئنة به صابرة على ما نالها من السبِّ والاستهزاء محتسبة له عند الله تعالى، علمنا بذلك أنه مخلص، وأنه ما كان قصده إلا وجه الله تعالى، وتغيير المنكر وقد حصل مقصده، فمثل هذا لا حرج عليه إذا سبَّ أو غلظ الكلام إذا تبين أنه مخلص في جميع ذلك، وإذا وجد نفسه لا ترضى بذلك، ولا تصبر عليه، بل كان يقابله بما تصل إليه الاستطاعة من السبِّ والأذى، علمنا أن ثمَّ دسيسة نفسية من حب الرئاسة والاحتكام ونفاذ الكلام فمثل هذا ينبغي أن يمسك من الكلام الغليظ إلى أن يتحقق من نفسه الإخلاص، اعتبار آخر: وهو أن ينظر لو رجع في أثناء الكلام الغليظ عن ذلك المنكر، هل كان يسكن غضبه ويمسك عن الكلام؟ فإن علم أنه يسكن غضبه ويمسك عن الكلام متى زال المنكر، علمنا أنه مخلص، وأنه ما كان قصده إلا زوال المنكر، وقد زال فلم يبق للكلام الغليظ فائدة، وإن علم أنه لا يسكن غضبه، ويتم يسترسل في الكلام علمنا أن الحامل على ذلك باعث نفساني، وغضب كمين =

٣ - ألا يقول إلا حقاً ولا يزل لسانه بالسب المحرم أو القذف أو الإفحاش في الألفاظ:

يقول الغزالي - رحمه الله - : (والثاني: أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه، بل يقتصر على قدر الحاجة)^(١).

٤ - أن يتناسب التعنيف مع المنكر^(٢): فلا يوصف المحتسب عليه بوصف لا يستحقه بسبب فعله كالوصف بالظلم أو الجهل أو الفسق أو حتى الكفر ونحو ذلك^(٣).

الدرجة الخامسة: التغيير باليد:

وهذه الدرجة من أهم الدرجات، وللمحتسب سلطة تقديرية واسعة في هذه الدرجة ولكنها تتقيد بقيود عدة من أهمها:

=لغير الله تعالى، بل مقابلة على الإساءة فيمسك عن الكلام، والله أعلم، اعتبار آخر: وهو أن يقدر أن المنكر عليه استهزأ به، وسبّه وشتمه، وأنه هم بإغلاظ الكلام له وتخشينه فجاء إنسان فقام مقامه في ذلك وأغلظ له القول فرجع إليه، وزال ذلك المنكر هل كان ذلك يسره أم لا؟ فإن كان ذلك يسره ويفرح به، ويرى لله تعالى عليه المنّة فيه إذ صان لسانه عن الكلام السيء، وإيحاش قلب أخيه المسلم مع حصول المقصود من زوال المنكر، وأنه حصل له ثواب بينته، وأجر ما أصيب به في عرضه فهذا مخلص، وإن كان لا يرد عنه الشرع في السب والتغليظ وجود غيره ويثقل عليه كون المنكر زال بكلام غيره من غير سب واستهزاء، ولم يزل بكلامه مع أن ما حصل له من السب والاستهزاء فهو غير مخلص والله أعلم). أ.هـ ابن النحاس، تبيين الغافلين، ٥٢، ٥٤.

(١) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٦.

(٢) فاطمة الجارد، الاحتساب باللسان، ٢١٦.

(٣) انظر: فاطمة الجارد، الاحتساب باللسان، ٢١٦.

١ - ألا يباشر التغيير باليد إلا إذا عجز عن ذلك باللسان، ورفض المحتسب عليه الاستجابة.

يقول الإمام الغزالي - رحمه الله - : (فإذا أمكنه أن يكلفه المشي في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره، وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر وكسر الملاهي وحل دروز ثوب الحرير فلا ينبغي أن يفعل ذلك بنفسه)^(١).

٢ - أن يقتصر في التغيير على قدر الحاجة:

فلا يجوز تجاوز الحد الكافي لتغيير المنكر، وتقدير هذا الحد راجع إلى المحتسب بحكم سلطته التقديرية، فالحد الكافي يعني زوال المنكر، فلا يجوز إتلاف مالا حاجة إلى إتلافه لأجل تغيير المنكر، ولا أن يغلف التغيير بإيذاء المحتسب عليه أو الانتقام منه أو حتى معاقبته، فإن العقوبة شيء والتغيير أمر آخر.

قال الغزالي في معرض ذكره لهذا القيد: (فإن قلت فهلا جاز الكسر لأجل الزجر؟ وهلا جاز الجر بالرجل في الإخراج عن الأرض المغصوبة ليكون ذلك أبلغ في الزجر؟ فاعلم أن الزجر إنما يكون عن المستقبل، والعقوبة تكون على الماضي، والدفع على الحاضر الراهن، وليس إلى أحاد الرعية إلا الدفع وهو إعدام المنكر، فما زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على جريمة سابقة، أو زجر عن لاحق، وذلك إلى الولاية لا إلى الرعية)^(٢).

٣ - أن يكون المنكر محل التغيير من منكرات الجوارح:

مجلة
الدراسات
الدعوية

(١) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٦.
(٢) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٧.

فأما إذا كان هذا المنكر من منكرات القلب أو اللسان فلا مجال للتغيير فيه باليد، وكذلك المنكرات المقتصرة على نفس العاصي وجوارحه الباطنة^(١). ومن ذلك مثلاً، إظهار آلات المعازف أو كأسات الخمر أو غير ذلك.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف:

وذلك بتهديده للمحتسب عليه بإيقاع عقوبة عليه أو ضربه أو نحو ذلك، وسلطة المحتسب في هذه الرتبة مقيدة بقيود من أهمها:

- ١ - أن يتوافق التهديد مع نوع المنكر وقدره: فليس له التهديد بعقوبة لا يعاقب بها مرتكب هذا المنكر، فلا يجوز له تهديد شارب الخمر للمرة الأولى بالقتل مثلاً^(٢).
- ٢ - ألا يهدد أو يتوعد إلا بما يجوز له تحقيقه: فلا يجوز له التهديد بوعيد ليس له فعله، كالتهديد بفعل محرم، كقوله لأنهبين دارك، أو لأضربن ولدك، أو لأسبين زوجتك وما يجري مجراه، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام، وإن قاله من غير عزم فهو كذب^(٣).
- ٣ - أن يكون قادراً على تنفيذ ماهدد به^(٤): فإن لم يكن قادراً على ذلك فتهديده نوع من الكذب^(٥) وقد هدد إبراهيم عليه السلام

(١) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٦.

(٢) انظر: فاطمة الجارد، الاحتساب باللسان، ٢٦٢.

(٣) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٨.

(٤) انظر: فاطمة الجارد، الاحتساب باللسان، ٢٦٢.

(٥) انظر: الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٨.

قومه ونفذ تهديده قال تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا

مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾^(١).

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد وغير ذلك مما ليس فيه شهر
سلاح:

وسلطة المحتسب التقديرية في هذه الدرجة مقيدة بقيود من أهمها:

١ - أن يراعي المحتسب التدرج، فلا يصل إلى هذه الدرجة إلا بعد استفاد الدرجات السابقة.

٢ - أن يقتصر في الضرب على قدر الضرورة فإذا اندفع المنكر وجب عليه الكف^(٢).

٣ - أن يكون الضرب بقصد المنع من ارتكاب المنكر:

فلا يجوز أن يكون الضرب بقصد إيذاء المحتسب عليه، أو الانتقام منه فيجب أن يكون الضرب فقط لدفع المنكر.

٤ - تجنب ضرب الوجه والمقاتل:

فقد نهى الإسلام عن ضرب الوجه والمقاتل حتى عند تنفيذ

العقوبات الحدية^(٣)، ففيها من باب أولى، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيَتَّقِ الْوَجْهَ»^(٤).

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٥٧، ٥٨.

(٢) انظر: الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٩.

(٣) انظر: ابن قدامة، الكافي، المكتب الإسلامي، ١٩٨٨م، ٢١٢/٤ وانظر عند

الشافعية: السيد البكري الدمياطي، إعانة الطالبين، دار الكتب العلمية

٢٠٠٢م، ١٤٣/٤ وحاشية القليوبي وعميرة، دار الفكر، ١٩٩٨م، ٢٠٥/٤.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب النهي عن ضرب الوجه، رقم ٦٦٠٥.

وروي عن علي عليه السلام أنه قال للجلاد: اضرب أو أوجع، واثق الرأس والوجه والفرج. وقال: لكل موضع من الجسد حظ إلا الوجه والفرج، ولأن القصد الردع، لا القتل^(١).

الدرجة الثامنة: شهر السلاح واتخاذ الأعوان:

وهذه الدرجة هي آخر الدرجات وأقصى ما يمكن أن يفعله المحتسب بعد استنفاد الدرجات السابقة ومن القيود على هذه الدرجة:

١ - أن يقتصر في ذلك على حال الضرورة القصوى، بعد استنفاد كل الطرق والوسائل والدرجات.

٢ - أن يقتصر على قدر الضرورة عند الحاجة لاستعمال السلاح، فيرمي الساق أو الفخذ ويتجنب المقاتل يقول الغزالي - رحمه الله - (وينبغي ألا يقصد المقتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعى فيه التدرج)^(٢).

٣ - السلطة التقديرية في مجال العقوبة:

شرعت العقوبات التقديرية للزجر عن اقتراح المنكرات، وردع من ينوي ارتكابها، يعرف الماوردي - رحمه الله - العقوبات بأنها: (زواجروضعها الله تعالى للردع عن ارتكاب ما حذر وترك ما أمر)^(٣). والعقوبات الشرعية نوعان إما عقوبة حدية أو عقوبة تعزيرية:

النوع الأول:

عقوبات محددة: وهي الحدود الشرعية على الجرائم الحدية وهي الزنا، والردة، والحاربة، والسرقعة، وشرب الخمر، فإن للمحتسب

(١) ذكر هذا الأثر: ابن قدامة، الكافي، ٢١٢/٤.

(٢) الغزالي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤٩.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٣٦٤.

سلطة تقديرية محدودة لا تتعدى اختيار الزمان والمكان المناسبين لتنفيذ هذه العقوبة، وذلك مراعاة لمصلحة معتبرة، على أن سلطته أيضا تبقى محدودة جدا إلا فيما قد يوكل إليه من بعض العقوبات الحدية كجلد من يشرب الخمر إذا رأى ولي الأمر إسناد هذا الأمر إليه سيما إذا كان مما شاع بين الناس وفشى، وإلا فإقرار العقوبات الحدية يرجع إلى القاضي

النوع الثاني:

عقوبات غير محددة: وهي عقوبات التعزير، فمن حكمة الله عز وجل أن جعل العقوبة مرنة قابلة لمسايرة الجريمة وكبحها، سيما والجريمة تتغير بتغير الزمان والمكان وأحوال الأشخاص، ولذلك كان من حكمته تعالى أن تكون بيد الولاة على أمور المسلمين عقوبات تسائر ذلك التغير في الجرائم والمخالفات، تكفل معالجتها ودرءها، ولذلك فلولي الأمر سلطة تقديرية في تحديد العقوبة، وفي العفو عنها، وسلطة المحتسب في هذا النوع من العقوبات واسعة سيما إذا علمنا أن بعض درجات الاحتساب تتداخل مع العقوبات التعزيرية، فالإغلاظ في القول والتهديد قد يكون تعزيرا، وكذلك الضرب والإتلاف والمصادرة كلها تتداخل مع العقوبات التعزيرية، ولذلك فإن المحتسب كما يقدر درجة الاحتساب فإنه يقدر العقوبة التعزيرية الملائمة، ومجال سلطة المحتسب في العقوبات التعزيرية لا يتجاوز إلى عقوبات كالقتل أو القطع أو نحو ذلك، كما أن العقوبات التي ينفذها يجب أن تتماشى مع طبيعة عمل المحتسب وفق شروط إنكار المنكر، فلا يقوم المحتسب بتنفيذ تعزيرات في غير مجالات

مجلة
الدراسات
الدعوية

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن ذكر جملة من المعاصي مما لا حد فيه ولا كفارة قال (إلى غير ذلك من أنواع المحرمات فهؤلاء يعاقبون تعزيراً وتكليلاً وتأديباً، بقدر ما يراه الوالي، على حسب كثرة ذلك الذنب في الناس وقتته، فإذا كان كثيراً زاد في العقوبة بخلاف ما إذا كان قليلاً، وعلى حسب حال المذنب: فإذا كان من المدمنين على الفجور، زيد في عقوبته، وبخلاف المقل من ذلك، وعلى حسب كبر الذنب وصغره، فيعاقب من يتعرض للنساء وأولادهم، مالا يعاقبه من لم يتعرض إلا للمرأة واحدة أو صبي واحد)^(١).

ولابن القيم رحمه الله كلام نفيس ذكره بعد أن تحدث عن تدرج الحدود والحكمة من عقوباتها وتناسبها مع الجرائم انتقل بعد ذلك للحديث عن العقوبات التعزيرية التي تقل عن العقوبات الحدية يقول - رحمه الله - : (ثم لما كانت مفاصد الجرائم بعد متفاوتة غير منضبطة في الشدة والضعف والقلة والكثرة - وهي ما بين النظرة والخلوة والمعانقة - جعلت عقوباتها راجعة إلى اجتهاد الأئمة وولاة الأمور، بحسب المصلحة في كل زمان ومكان، وبحسب أرباب الجرائم في أنفسهم؛ فمن سَوَّى بين الناس في ذلك وبين الأزمنة والأمكنة والأحوال لم يفقه حكمة الشرع)^(٢).

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية، السياسة الشرعية، القاهرة، المطبعة السلفية،

ط٢١٢٩٩هـ، ٥٦، ٥٧.

(٢) الإمام ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م،

٤٠٤/١، ٤٠٥.

أنواع سلطة المحتسب في العقوبة التعزيرية: الأول: سلطته في تحديد نوع العقوبة.

- حيث إن لولي الأمر تحديد نوع العقوبة التي يستحقها من توقع عليه ، ولكن هذه السلطة ليست سلطة مطلقة بل سلطة مقيدة بقيود:
- ١ - أن لا تكون الجريمة من الجرائم الحدية ، أي مما دون الحد يقول الماوردي: (أن له أن يعزر في المنكرات الظاهرة لا يتجاوز إلى الحدود)^(١).
 - ٢ - أن تكون العقوبة من العقوبات المشروعة ، وذلك لأن التعزير وإن كان يخضع لتقدير ولي الأمر ولكنه يجب أن يكون ضمن العقوبات المشروعة.

الثاني: سلطته في تقدير العقوبة من حيث التشديد أو التخفيف.

للمحتسب سلطة تقديرية في تقدير العقوبة التعزيرية بناء على طبيعة المخالفة المحتسب عليها وطبيعة مرتكب هذه المخالفة ، فليس المعاند كغيره ، وليس الجاهل كالعالم وهذه التفرقة تنظر إلى المصلحة المرجوة من إيقاع العقوبة التعزيرية يقول الكاساني: (ومن مشايخنا من رتب التعزير على مراتب الناس فقال: التعازير على أربع مراتب: تعزير الأشراف وهم الدهاقون والقواد ، وتعزير أشراف الأشراف وهم العلوية والفقهاء ، وتعزير الأوساط وهم السوقة وتعزير الأخصاء وهم السفلة ، فتعزير الأشراف بالإعلام المجرد ، وهو أن يبعث القاضي أمينه إليه فيقول له: بلغني أنك تفعل كذا وكذا ، وتعزير أشراف الأشراف بالإعلام والجر إلى باب القاضي والخطاب بالمواجهة ، وتعزير الأوساط الإعلام والجر والحبس ، وتعزير السفلة

مجلة
الدراسات
الدعوية

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ٣٩١.

الإعلام والجر والضرب والحبس، لأن المقصود من التعزير هو الزجر وأحوال الناس في الانزجار على هذه المراتب^(١).

الثالث: سلطته في الإعفاء من العقوبة.

فالإسلام يعطي للمحتسب سلطة تقديرية تصل إلى درجة العفو عن العقوبة، وذلك لتحقيق مصلحة معتبرة قد يكون تحققها بالعفو أخرى من تحققها بالعقوبة وبدل لذلك عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود)^(٢).

الرابع: سلطة تقديرية في كيفية تنفيذ العقوبة:

فلولي الأمر سلطة تقديرية مقيدة بقيود في كيفية تنفيذ العقوبة ومن يقوم بتنفيذها وزمن ومكان تنفيذها ومن أبرز القيود على هذه السلطة:

- ١ - قيود على من يقوم بالتنفيذ: فلا يجوز إسناد تنفيذ العقوبة للخصم، ولا يجوز إسنادها للجاني نفسه، ولا يجوز إسنادها لقريبه كوالده أو ولده أو نحو ذلك.
- ٢ - قيود على كيفية التنفيذ: فقد ذكر العلماء كيفية للضرب ومقدار ما يرفع الضارب يده ونوع العصا أو السوط الذي يجلد به حتى لا يكون الجلد متعديا لما شرع له أو غير مؤلم للجاني فلا يتحقق الردع المراد من العقوبة.

(١) علاء الدين الكاساني، بدائع الصنائع، ٥/٥٣٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود باب: في الحد يشفع فيه رقم ٤٢٧٥ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ٢/٨٢٧.

المبحث الثالث

نموذج لتطبيقات السلطة التقديرية في أنظمة الحسبة في المملكة

سأتناول في هذا المبحث تطبيقات السلطة التقديرية في نظام مكافحة الغش التجاري في المملكة العربية السعودية، حيث يعد الاحتساب على الغش التجاري أحد أنواع الاحتساب المشروعة، والتي نظمت في المملكة بموجب هذا النظام.

المطلب الأول السلطة التقديرية فيما يتعلق بالعقوبة:

من أمثلة ذلك:

ما تضمنه نظام مكافحة الغش التجاري من سلطة تقديرية في إيقاع عقوبة الغش إذ ينص على سلطة تقديرية في مقدار العقوبة التي يعاقب بها من اقترف الغش وهذه السلطة تشمل مقدار الغرامة ومقدار السجن حيث تنص المادة الأولى من هذا النظام على ما يلي (يعاقب بغرامة من خمسة آلاف ريال إلى مائة ألف ريال، أو بإغلاق المحل مدة لا تقل عن أسبوع ولا تزيد على تسعين يوماً، أو بهما معاً - كل من خدع أو شرع في أن يخدع، أو غش أو شرع أن يغش..) حيث إن واضح النظام أعطى للقاضي سلطة تقديرية متنوعة في هذه العقوبة فيما يلي:

- ١ - سلطة تقديرية في مقدار عقوبة الغرامة.
- ٢ - سلطة تقديرية في مقدار عقوبة إغلاق المحل.
- ٣ - سلطة تقديرية في اختيار إحدى العقوبتين أو جمعها معاً:

يعطي النظام من يقوم بتطبيقه سلطة تقديرية في اختيار نوع العقوبة التي يرى مناسبة تطبيقها على مرتكب جريمة الغش التجاري وهذه السلطة مقيدة باختيار عقوبة حددها النظام سلفاً.

مجلة
الدراسات
الدعوية

٤ - سلطة تقديرية في جمعهما معاً بالحد الأقصى، أو جمعهما معاً بالحد الأدنى.

أو أن تكون إحداهما بالحد الأدنى والأخرى بالحد الأقصى أو ما بين ذلك.

وفي مقابل هذه السلطة فقد وضع النظام أيضاً على هذه السلطة قيوداً ليس للقاضي تجاوزها:

- ١ - ألا يعاقب القاضي بعقوبة أخرى لم ينص عليها النظام.
- ٢ - ألا ينقص القاضي عن الحد الأدنى ولا يزيد عن الحد الأعلى.
- ٣ - ألا يعاقب عن جريمة غير منصوص عليها.
- ٤ - أن تتطبق شروط النظام على مرتكب هذه الجريمة، كافتراض العلم بوقوع الغش الذي تنص عليه المادة الثانية عشرة من النظام.

المطلب الثاني السلطة التقديرية فيما يتعلق ببعض الإجراءات:

١. السلطة التقديرية في تقدير حسن نية البائع:

تنص المادة الثانية عشرة من النظام على أنه: لتطبيق أحكام هذا النظام يفترض العلم بغش السلعة أو فسادها أو عدم صلاحيتها للاستعمال متى كان المخالف من المشتغلين بالتجارة مالم يثبت حسن نيته) فقد أعطى النظام جهة الاحتساب على الغش التجاري سلطة تقديرية في تقدير حسن نية البائع من عدمها.

٢. السلطة التقديرية في تحديد بعض المدد:

ومن ذلك أن اللائحة التنفيذية للنظام في مادتها السادسة أعطت لوكيل وزارة التجارة المختص سلطة تقديرية في تمديد المدة التي تمنح للمستورد لرفع الغش عن السلعة، وذلك مقيد بالأسباب التي يبيدها المستورد.

ومن ذلك تقدير المدة التي يتم فيها إعادة تصنيع أو تجهيز السلعة المغشوشة كما تنص على ذلك المادة الحادية عشرة من اللائحة التنفيذية، كما تنص هذه المادة أيضا على أنه: يجوز تمديد هذه المدة للأسباب التي يبيدها المصنع أو المجهز ويقدرها وكيل الوزارة المختص أو من يفوضه.

٣. السلطة التقديرية في تقدير إمكانية إعادة أو تجهيز السلعة

المغشوشة:

تنص المادة الحادية عشرة من اللائحة التنفيذية لنظام مكافحة الغش التجاري على أنه: يجوز لوكيل الوزارة المختص أو من يفوضه - إذا قدر إمكانية ذلك بناء على طلب المصنع أو المجهز من تلقاء

نفسه - الموافقة على إعادة تصنيع أو تجهيز السلعة المغشوشة بما يجعلها صالحة للاستعمال في الغرض المصنعة من أجله.

مجلة
الدراسات
الدعوية

٤. السلطة التقديرية في اختيار وسيلة الإلتلاف للسلعة المصادرة:

تنص المادة الخامسة عشرة من اللائحة التنفيذية لنظام مكافحة الغش التجاري على أن: السلع التي يثبت الغش في متطلباتها أو يثبت فسادها أو عدم صلاحيتها للاستعمال في أي غرض من الأغراض، يتم إلتافها بالوسيلة التي تقدرها الجهة الإدارية المختصة التي قامت بضبطها بعد تحرير محضر ضبط ومصادرة بذلك.

وكذلك تعطي المادة السادسة عشرة من النظام هذه السلطة لجهة الاحتماب على الغش في تقدير الوسيلة المناسبة لإلتلاف المواد أو العبوات التي قصد بها غش أية سلعة.

٥. السلطة التقديرية في الحق في إجراء تحقيق فوري مع المخالف:

تعطي المادة السابعة عشرة في فقرتها (ج) الحق للمحتسب على الغش في تقدير ملائمة إجراء تحقيق فوري مع المخالف بعد مواجهته بالتهم المنسوبة إليه.

خاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأسأل الله عز وجل في ختام هذا البحث أن أكون قد وفقت في عرض موضوع هذا البحث بصورة مناسبة، وقد كان من أبرز النتائج التي توصلت لها:

أولاً: أن الإسلام بكامله وشموله قد سبق القوانين المعاصرة في مجال السلطة التقديرية بل قد تفوق عليها بوضع ضوابط لهذه السلطة تتعدى مسألة الحد الأدنى أو الأعلى للعقوبة أو تقرير مجال لها في الأنظمة الوضعية، فعلى سعة هذه الضوابط إلا أنها تضيق مجال الانحراف في تطبيقها.

ثانياً: أن سلطة المحتسب تحظى بقدر واسع جداً من السلطة
مجلة الدراسات الدعوية
التقديرية في مجالات متعددة من أبرزها:

أن تكون هذه السلطة ضمن إطار عام وهو طاعة الله تعالى وأهم ضوابط هذه السلطة:

- ١- عدم مخالفة النص من الكتاب أو السنة.
- ٢- عدم مخالفة الإجماع.
- ٣- عدم مخالفة القياس.
- ٤- عدم مخالفة مقاصد الشريعة الإسلامية.
- ٥- عدم مخالفة العرف.

ثالثاً: أن هناك فرقاً بين سلطة المحتسب الرسمي التقديرية وسلطة المحتسب المتطوع وأن صلاحيات الرسمي أو سع من صلاحيات المحتسب المتطوع.

رابعاً: أن أهم مجالات السلطة التقديرية للمحتسب:

١. السلطة التقديرية في مجال التدابير الواقية من المنكرات.
٢. السلطة التقديرية في مجال الإنكار. وفي وقت الإنكار، ودرجته.

٣. السلطة التقديرية في مجال العقوبة.

وسلطة المحتسب في العقوبة التعزيرية تتنوع إلى أنواع:

- الأول: سلطته في تحديد نوع العقوبة.
- الثاني: سلطته في تقدير العقوبة وتشديدها وتخفيفها.
- الثالث: سلطته في الإعفاء من العقوبة.
- الرابع: سلطة تقديرية في كيفية تنفيذ العقوبة.

رابعاً: عرض لتطبيق السلطة التقديرية على أحد أنظمة الحسبة

الصادرة في المملكة العربية السعودية وهو نظام مكافحة الغش
مجلة الدراسات الدعوية التجارية.

هذا وأسأله تعالى التوفيق والسداد ، والإخلاص في القول والعمل.
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً
كثيراً.

قائمة المصادر والمراجع:

- ١ - الألباني: ناصر الدين، صحيح سنن أبي داود، (مكتبة المعارف: الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ).
- ٢ - البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى البغا، (لبنان، بيروت: دار ابن كثير، ط ٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- ٣ - البعلي: د. عبدالحميد محمود البعلي
- ٤ - البوطي: د. محمد سعيد البوطي، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، دمشق، مؤسسة الرسالة.
- ٥ - بطيخ: د. رمضان بطيخ، الاتجاهات المتطورة في قضاء مجلس الدولة الفرنسي للحد من سلطة الإدارة التقديرية، (مصر، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٤م).
- ٦ - البرزنجي: د. عصام بن عبدالوهاب البرزنجي، السلطة التقديرية للإدارة (مصر، القاهرة، دار النهضة العربية).
- ٧ - ابن تيمية: شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، (المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٠٦هـ/١٩٩٥م).
- ٨ - الجارد: فاطمة الجارد، الاحتساب باللسان، دار المؤيد، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ١٨٦.
- ٩ - جمال الدين: د. سامي جمال الدين، قضاء الملائمة والسلطة التقديرية للإدارة (مصر، القاهرة، ١٩٩٢م).
- ١٠ - ابن حنبل: الإمام أحمد بن حنبل، المسند، (لبنان، بيروت: المكتب الإسلامي، ط ١، ١٤١٣هـ)، ونسخة أخرى، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، (لبنان، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٧هـ).
- ١١ - الديمياطي: السيد البكري، إعانة الطالبين، دار الكتب العلمية مجلة الدراسات الدعوية ٢٠٠٢م.

- ١٢ - ابن الديبع: وجيه الدين عبدالرحمن المعروف بابن الديبع، بغية الإربة في معرفة أحكام الحسبة، مكة، جامعة أم القرى، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- ١٣ - أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين، (لبنان، بيروت: دار الفكر).
- ١٤ - الرحيلي: أ.د. حمود بن أحمد الرحيلي، قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسنة، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط ٢، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- ١٥ - الزرقاء: أحمد بن محمد، شرح القواعد الفقهية، (سوريا، دمشق: دار القلم، ط ٢، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م).
- ١٦ - سعد: د. محمود توفيق، فقه تغيير المنكر، وزارة الشؤون الإسلامية بقطر، كتاب الأمة، ٤١.
- ١٧ - الشاطبي: إبراهيم بن موسى، الموافقات، دار الفكر.
- ١٨ - الظاهر: د. خالد الظاهر، ضوابط السلطة التقديرية للإدارة، مقال منشور بجريدة الحياة اللندنية، ٦/١٢/٢٠٠٧م.
- ١٩ - الصالحي: الإمام عبدالرحمن بن أبي بكر الصالحي، الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق: أ.د. مصطفى صميده، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
- ٢٠ - الطماوي: د. سليمان محمد الطماوي، الوجيز في القانون الإداري، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٩م.
- ٢١ - الطماوي: د. سليمان محمد الطماوي، مبادئ القانون الإداري، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٤م ط ٦.
- ٢٢ - ظهير: فضل إلهي، الحسبة تعريفها ومشروعيتها ووجوبها، (باكستان، سيتلائييت تاؤن: إدارة ترجمان الإسلام، ط ٢، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).
- ٢٣ - عبدالباسط: د. محمد فؤاد عبدالباسط، أعمال السلطة الإدارية، القاهرة، ١٩٨٩م.

- ٢٤ - ابن عبدالسلام: الإمام العز بن عبدالسلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: دنزيه حماد ود.عثمان ضميرية، دمشق، دار القلم، ط١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- ٢٥ - عمر: د. نبيل إسماعيل عمر، سلطة القاضي التقديرية في المواد المدنية والتجارية، (مصر، الاسكندرية، دار المعارف، ط١٩٨٤).
- ٢٦ - السنامي: عمر السنامي، نصاب الاحتساب، دار الوطن، ط١٤١٤هـ ١٩٩٣م.
- ٢٧ - ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر، أعلام الموقعين عن رب العالمين، راجعه: طه عبدالرؤوف سعد، (لبنان، بيروت: دار الجيل).
- ٢٨ - فارس: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
- ٢٩ - الفراء: القاضي أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، صححه محمد حامد الفقي، الرياض، دار الوطن.
- ٣٠ - ابن قدامة: موفق الدين عبدالله بن قدامة المقدسي، الكافي في فقه الإمام المجل أحمد بن حنبل، (لبنان، بيروت: المكتب الإسلامي).
- ٣١ - قلعة جي: أ.د. محمد رواس قلعة جي، معجم لغة الفقهاء، بيروت، دار النفائس، ط١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
- ٣٢ - ابن كثير: إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، (لبنان، بيروت: دار المعرفة، ١٣٨٨هـ).
- ٣٣ - ابن منظور: جمال الدين بن منظور الأنصاري، لسان العرب، إعداد وتصنيف: يوسف خياط (لبنان، بيروت: دار لسان العرب) ٦٣٠/١.
- ٣٤ - الغزالي: محمد بن محمد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد إبراهيم، (مصر، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩١م).
- ٣٥ - القشيري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (لبنان، بيروت: دار إحياء التراث).

- ٣٦ - نظام مكافحة الغش التجاري الصادر بالمرسوم الملكي رقم م/١١ وتاريخ ٢٩/٥/١٤٠٤هـ.
- ٣٧ - الماوردي: الإمام أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية (لبنان، بيروت: دار الكتاب العربي).
- ٣٨ - الميداني: عبدالرحمن حبنكة، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال، جدة دار البشير، ط١٤٢٥هـ، ٧هـ.
- ٣٩ - الماحي بقندوز محمد الماحي، قواعد المصلحة والمفسدة عند المالكية، بيروت، دار ابن حزم، ط١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- ٤٠ - الماوردي، الرتبة في طلب الحسبة، دار الرسالة، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- ٤١ - ابن النحاس: الإمام أبو زكريا أحمد بن النحاس، تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين، دار الكتب العلمية.
- ٤٢ - الطبري: الإمام ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (مصر، القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٨هـ).
- ٤٣ - النووي: الإمام يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.
- ٤٤ - الكاساني: الإمام علاء الدين أبو بكر بن مسعود، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، (لبنان، بيروت: دار الفكر للطباعة، ط ١، ١٤١هـ/١٩٩٦م).
- ٤٥ - حاشية القليوبي وعميرة، دار الفكر، ١٩٩٨م.
- وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.







أهداف الجمعية السعودية للدراسات الدعوية

- ١ < تسمية الفكر العلمي في مجال الدراسات الدعوية والعمل على تطويره وتشغيله.
- ٢ < تحقيق التواصل العلمي لأعضاء الجمعية.
- ٣ < تقديم الاستشارات العلمية في مجال الدراسات الدعوية.
- ٤ < تطوير الأداء العلمي والمهني لأعضاء الجمعية.
- ٥ < تيسير تبادل الإنتاج العلمي والأفكار العلمية في مجال الدراسات الدعوية بين الهيئات والمؤسسات المهنية داخل المملكة وخارجها .

